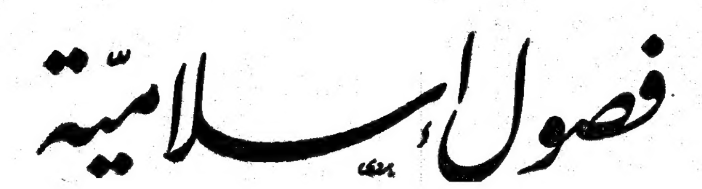
علي الطنطاوي



نشر وتوزيع
دار الدعوة بدمشق
لصاحبها موفق الشاويش

ص.ب ٨٠٠ هاتف ١١٦٣٧

الطبعة الأولى

١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م

مطابع دار المنار بدمشق
ص.ب ٤٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا

من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له

اللهم اهدنا الصراط المستقيم وارزقنا الإخلاص في العمل

والثبات عليه وصل اللهم على محمد وآله وصحبه

المقدمة

هذه فصول إسلامية ، كتبت في أزمنة متباعدة ، فاختلف أسلوبها ، ولكن اتحدت بحمد الله أغراضها ومقاصدها ، وربما تكررت فيها المعاني ، ذلك لأن الشُبه تكرر ورودها فاضطررنا لتكرار ردّها ، وإن من الحقائق ما لا تضرّ معه الإعادة ، ولا تبليه كثرة الردّ .

وأنا أسأل الله أن ينفع بها ، وألاّ يحرم كاتبها الثواب عليها .

« المؤلف »

دعوة الاسلام

خطبة جمعة ألقيت على منبر
مسجد جامعة دمشق سنة ١٩٥١

نحن في عصر انتقال ، كما كنا أوائل عهد العباسيين يوم اختلطوا بالفرس ، وأخذوا منهم وأعطوهم
وكما كان الرومان لما اتصلوا باليونان .

وفي عصور الانتقال ، تتعدد مسالك الحياة ، وتتزاحم المذاهب والدعوات .

فأين هو مكان دعوة الإسلام بين هذه الدعوات ؟

هذا ما أريد بيانه في هذه الخطبة .

★ ★ ★

إن دعوتنا هي دعوة الكمال ، فكلما تردد الإنسان بين طريقين دعونا إلى خير الطريقين .

إن تردد العقل بين حق وباطل ، كانت دعوتنا هي دعوة الحق ، وإن تردد الطبع بين فضيلة ورذيلة ، كانت دعوتنا هي دعوة الفضيلة ، وإن تردد المرء بين لذة وواجب ، كانت دعوتنا هي دعوة الواجب .

ونحن نعترف أنها دعوة لأَصعب الطريقين ، وأشقّ الأمرين .

ذلك لأن الانحدار مع الهوى سهل ، ولكن الصعود إلى المثل الأعلى صعب . والماء ينزل وحده حتى يستقر في قرارة الوادي ، ولكنه لا يصعد إلا بالمضخّات .

والذي يدعو إلى الإثم يغري الناس بكل لذيذ ممتع ، يهواه القلب ،

ويعشقه الطبع ، من لذّة النظر ، ولذة اللمس ، واللذة الأخرى التي ركبها الله في كل نفس ، فما الذي يغري به الناس داعي الصلاح ؟

ليس له ما يغريهم به إلا رضا الله ، والعمل للآخرة ، وترك عاجل محقّق ، لآجل هو عند ضعاف الإيمان غير محقق ، لذلك أثنى الله على المؤمنين بالغيب ، ووعدهم أعلى المراتب في الجنة ، ولذلك يجتمع على حرب دعوتنا ، أولياء النفس والشيطان ، واللاّهون العابثون الذين لا يفكرون بشيء ، ولا يهتمون لشيء .

والانسان مركّب من مَلَك وسَبُع وشيطان .

فللشيطان الكفر واللذة الحرام ، وأتباعه من الناس هم الذين يحركونه في الإنسان ، بالاستهتار والإباحة ، ونهل اللذّات من كل ينبوع ، والاستمتاع بالجمال أينما كان .

وللسبع الشدة والبطش والسطو والظلم ، والمضلّون يوقظونه في الإنسان بحب الغلبة والسيطرة والانتقام .

وأما المَلَك فله الإيمان والإحسان ، وأولياؤه الأنبياء ، وورثة الأنبياء ، من العلماء .

ورأس دعوتنا أن نوقظ المَلَك في الإنسان ، حتى يكف يده عن الظلم ، وجوارحه عن اتباع الشهوة إلا من طريق الحلال ، وأن يسأل الإنسان نفسه : لماذا خلقت وإلى أين المسير ؟ ويتفكر في خلق السموات والأرض وفي خلق نفسه ، وفي غاية الخلق ، وفي حقيقة المصير . على حين يصحو أولئك فيقبلون على أكلهم ولبسهم ، ثم يذهبون إلى عملهم، فيغرقون في سعيهم ، وفي كسبهم ، ثم يعودون المساء مثلما بدؤوا في الصباح ، لايخلون بأنفسهم ساعة يفكرون .

قد شغلتهم توافه الحياة ، عن مقصد الحياة ، وألهتهم مناظر الطريق عن غاية السفر .

يأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوىً لهم . وهم ينظرون حولهم ناكسي رؤوسهم ، ليروا جوانب الأرض ، ونحن ندعو إلى رفع الأنظار إلى السماء ، لنتصل بالله .

هم يعملون ليومهم وحده ، ولا يرون إلا ما بين أقدامهم ، ونحن ندعو إلى مد البصر إلى الأمام ، فننظر الى بعيد ، ونعمل ليومنا ولليوم الآخر .

ودعوتنا واضحة صريحة ، وطريقنا مستقيم بيِّن ، لا حجب لدينا ولا أستار ، ولا خفايا ولا أسرار .

إننا نعلن مبادئنا كل يوم خمس مرات : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح ، الله اكبر » ، فهل رأيتم أو سمعتم بدعوة يكرر قانونها الأساسي خمس مرات كل يوم ، يصاح به على المآذن ؟

ونحن ثابتون على دعوتنا ، لا نستطيع أن نساوم فيها ، أو ننقص منها ، لأنها ليست دعوة وضعية ، نحن وضعناها ، فنحن نملك التصرف فيها ، بل هي دعوة إلهية ، ألقاها ربنا من فوق سبع سموات على رسول منا ، فمن شاء فليتبعها ليكون معنا ، ومن شاء فليخالفها . ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . إنما نحن دعاة ، وعلى الله الحساب .

وهذه الدعوة أقوى من أن يردها شيء لأنها ذكر الله ، « إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون » .

ولقد لقي الإسلام مصائب شداداً ، ورأى أياماً أشد سواداً ، وقامت في وجهه مصاعب فكرية ومادية ، فما وقفت[1] سيرَه لحظة . من مكايد المشركين واليهود ، إلى القرامطة ، والباطنية ، والتتر ، والصليبيين ، إلى الصليبيين واليهود اليوم مرة ثانية ، والإسلام هو الإسلام .

---

(١) وقف يتعدى بنفسه ولا يقال أوقف

وسترون أنتم ، يا أيها الشباب ، إن امتدّ بكم الأجل ، يوماً لم يبق فيه في الشـام واحد يقول بهذه الشبه والضلالات التي تملأ الدنيـا وتشغل الناس اليوم ، وتصـدم بضجيجها كل أذن ، وتزكم بريحها كل أنف ، وسيقرأ هذه الخطبة ناس يومئذ ، فيسألون متعجبين : ما هذه الضلالات التي يشير إليها ؟!

ولا يجيبهم أحد . لأنه لا يعرفها يومئذ أحد

إنها كالحشائش التي تنبت على أرجل السنديانة الضخمة ، يأتي بها الربيع ، ويذهب بها الخريف ، والسنديانة لم تحس بها .

وهذا خيـال دون الحقيقة ، لأنها ستموت كل سنديانة في الأرض ولكن الإسلام لن يموت أبداً .

ولقد كانت فتنة القرامطة مثلا ، تملأ الأرض كلها ، وتهدد الإسلام ، حتى ان أتباعهـا اقتلعوا الحجر الأسود ، وذبحوا الحجاج على ظهـر الكعبة ، حتى سالت دماؤهم من ميزاب الرحمة ، وحسب ضعاف الأحلام، أنها نهاية الإسلام . فأين القرامطة اليوم وأين من يعرف خبرهم ؟

★ ★ ★

إن أو لما ندعو إلى فهمه أن الإسلام ليس ديناً كالأديان ، إن الدين عند العلماء الأوربيين ، ومن يتكلم منا بلسانهم ، ويأخذ عنهم ، هو ما يربط الإنسان بالله . ومكانه المسجد أو الكنيسة أو المعبد ، ولذلك قالوا : إن الدين لله والوطن للجميع ، وقالوا بفصل الدين عن السياسة ، وفصل الدين عن العلم . وهذا كله حق في دين الاسلام وفي غير الاسلام من الأديان ، ولكن ميزة الإسلام أنه ليس ديناً فقط ، بل هو دين ، وهو تشريع ، وهو أخلاق ، وهو سياسة ، وهو علم .

افتحوا أي كتاب من كتب الفقه ، تروا فيه باب العبادات وهـذا هو وحده الدين في عرف الأوربيين ، وباب المعاملات ، وهـذا هو القانون المدني ، وبا بالعقوبات وهذا هو القـانون الجزائي ، وباب المناكحات وهو قانون الأحوال الشخصية ، وأحكام الامارة والبيعـة وهو الدستور أي القانون الأساسي ، وباب الجهاد وهو القانون الدولي .

فالإسلام للفرد : يبيّن له ما يحل له وما يحرم عليه ، وكيف يقوي جسمه ويصلح نفسه ، ويكمل أخلاقه .

والإسلام للأسرة : يحدّد صلات الولد بأبيه ، والأخ بأخيه ، والزوج بزوجه مالياً وأدبياً .

والإسلام للسوق : يبين حلال المعاملات من حرامها .

والإسلام للحاكمين والمحكومين ، والمسلمين والمحاربين ، فلا يخطو المسلم خطوة ولا يعمل عملا ، إلا وللإسلام فيه حكم من الأحكام الخمسة وهي الوجوب أو الندب أو الإباحة أو الكراهة أو التحريم .

ونحن لا نكره هذه الحضارة الغربية ، ولا نرفضها جملة ، كما يفعل الجهلة المتعصبون ، ولكن لا نقبلها كذلك جملة ، كمـا يفعل القردة المقلدون ، بل نحكّم فيها شرعنا وعقولنا ، فنأخذ منها وندع .

نأخذ أخذ المبصر المميّز لا أخذ الأعمى الجهول ، ولا كمن كان في الظلام فخرج إلى النور فعشيت عيناه ، ولا القرد الذي قلّد النجار فعلق ذنبه في الشق ، ولا محمد خالد والقصيمي وأمثالهما ، ممن يريد أن يقال انه مجدّد وانه متمدن ... فلا يجد سبيلاً إلى ذلكَ الا ببذل شيء من دينه ومن ضميره ومن منطقه ، حتى يبرز على الناس بلا دين و لامنطق ولا ضمير ، فينعب كالغراب : (من هنا نبدأ) !

من هنا نبدأ . ولكن إلى أين تنتهي بدعوتك يا سيد غراب ؟

إلى الخراب .

★ ★ ★

بل إنه ليجب علينا وجوباً ، أن نأخذ كل نافع من حضارة الغرب ووسائل القوة ، وطرائق العلم ، وأسباب العزة والرفاهية .

وألا تتخلف عن ركب المدنية ، فلقد كنا أبداً في الطليعة ، ولولا وقوف الأتراك ، الذين كانوا قادتنا يومئذ ، ما سبقتنا أوربة أبداً .

ونحن أمة العروبة ، وأصحاب دعوتها ، وبنا فخارها ، لساننا عربي ونبيئنا عربي ، وعاداتنا عربية ، وتاريخ العربية هو تاريخنا ، وسلائق العربية سلائقنا . ولكنا نهينا أن ندعو إلى العصبيات فنقطع رابطة المسلمين ، ونفرق جمعهم ، ونذهب ريحهم . وهذا ما يسعى إليه المستعمرون .

وقد بطلت اليوم دعوة العصبية التي كانت (موضة) القرن التاسع عشر وصار في الدنيا دعوتان عالميتان : ديموقراطية وشيوعية ، ونحن لا نريدها غربية ولا شرقية ولكن عربية اسلامية .

ان من معجزات الإسلام أنه سبق عصره سبقاً طويلاً ، فصنع أمة ليس لها في وحدتها نظير ، من أمم شتى مختلفة ألسنتهم وألوانهم تجمعهم كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، والقبلة البيت الحرام .

وإذا كانت الشيوعية ، وكانت الديموقراطية ، تحاول أن تحل مشاكل العالم ، فالإسلام يحلها على طريقته وأسلوبه . وهو نظام كامل لا نحتاج معه إلى البحث عن (الديموقراطية في الإسلام) (والشيوعية في الإسلام) تقرباً إلى أهلهما وتزلفاً ، كما يصنع بعض قصار النظر منا ، ولو عقلت أمم الاسلام لكانت كتلة ثالثة ضخمة[1] ، تطفيء هذه النار التي ينفخ فيها الشيوعيون والغربيون ليحرقوا بها الحضارة وأهلها ، وتعيد إلى الدنيا الأمن والسلام بالإسلام .

ونحن لا ننكره الدعوة إلى العروبة . إنها دعوتنا نحن معشر المسلمين،

---

(١) هذا الذي قلناه سنة ١٩٥١ واوردناه على أنه أمل ورجاء . صار الآن حقيقة واقعة

وكل داع للإسلام داع لها ، وهذه أمم الأعاجم من الفرس والترك والهند والصين ، ما الذي علّمهم العربية وحبّب إليهم أهلها الا الإسلام ،

وكل دعوة إلى العروبة دعوة إلى الإسلام ، اذ ما العربية ، وما الإسلام ، وما العرب ، لولا محمد ؟

لولا محمد لبقي العرب أمة بدوية جاهلية ، لم يَدْرِ بها التاريخ ، ولم تحس بها الحضارة •

إنه لم يكن في قريش وهم أكمل العرب لمّا بعث فيهم محمد ، إلا أحد عشر رجلا وامرأة واحدة يكتبون ، والباقون أميّون ، وحنيفة صنعت لها ربّا من التمر فلما جاعت (أكلت حنيفة ربّها) وكان وأدُ البنات وإضاعة حق المرأة ، فبنى العرب بعد الإسلام عروبة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة ، ووضعوا هذه العلوم ، وهذه الفنون ، وهذه الحضارة ، وألّفوا هذه المؤلفات التي تدأب المطابع في الشرق والغرب من مئة سنة على طبع القليل الذي بقي منها ، ولم تطبع بعدُ إلا الأقل من هذا القليل •

وكان محمد هو الذي لقّنهم كلمة (العربية) لم يكونوا يعرفونها من قبله •

هاتوا شاعراً واحداً فخر بالعرب من حيث هم عرب • إنما كان فخرهم بالقبيلة ، ببكر أو تَغلب أو عبْس أو ذُبيان •

إنها أمة واحدة ، ذات رسالة خالدة • وما رسالتها إلا رسالة الله •

فمن نصب الحرب للرسالة الخالدة ، وفرّق الأمة الواحدة ، كان كاذباً مرتين :

مرّة لأنه قال ولم يعمل ، ومرة لأنه عمل بغير ما قال •

فهل في الشباب من يريد أن يكون كاذباً مرتين ؟

★ ★ ★

ونحن ندعو إلى التشريع الإسلامي ، ولكن لا كما يرجف بنا

المخالفون ، ويشيعون عنا . اننا لا نريد أن نطبق حاشية ابن عَابدين مثلاً بكل ما فيها ، ولا كتب المتأخرين ، بل ننظر إلى الأحكام التي ورد عليها النص في الكتاب أو الحديث الصحيح ، فلا نخالفها .

أما الأحكام التي بنيت على عرف واستندت إلى اجتهـاد ، فإنه لا ينكر في مثلها تغيُّر الأحكام بتغير الأزمان .

ففي الحقوق الأساسية لا يشترط الإسلام شكلاً معيناً للحكومة ، ولا طريقاً معيناً لإدارتها . إنما يشترط الانتخاب الصحيح في الحاكم ، (أي البيعة) ، والشورى في الحكم ، وذلك بعد التقيد بنصوص الدين . وكل حكومة انتخابية سواء كانت جمهورية محددة بمدة ، أو ممتدة مدى الحياة ، وكانت لا تخالف هذه النصوص ، فهي حكومة إسلامية .

أما هذا النظام البرلماني فلا يخالف روح الإسلام ، ولكنه لم يثبت على التجربة ، ولم ينجح إلا في انكلترة وهي معدنه ومنها مخرجه .

وفي الحقوق المدنية نقبل كل قاعدة ، وكل حكم ، لا يخالف النص ، ويضمن تحقيق العدالة . ومن مزايا الإسلام أنه ترك أكثر الأحكام في المعاملات لاجتهاد المجتهدين ، ليراعى فيها الزمان ، والمكان ، وأحوال الرعية وأعرافها . ولذلك كثرت فيها المذاهب وتعددت الأقوال ، حتى صار عندنا ثروة حقوقية لا تعادلها ثروة ، لا الحقوق الرومانية ، ولا الحقوق الغربية اليوم . وأنا أقول ما أقول عن بيّنة ، وأثبت ما أقول بالأدلة .

فلماذا ندع هذا كله ، (ونشحد) القانون المدني من فرنسا ، أومن (شحدوه) من فرنسـا . إننا إن لم نأخذ آراء فقهائنا على أنها دين ، فلنأخذها على أنها ثروة قومية ، ومفخرة وطنية ، ولأنها مشـتقة من طبيعة مجمعنا ، ولأنها تعالج مشاكل أمتنا .

وفي الحقوق الجزائيـة ، نقيم الحـدود ، وهي العقوبات القليلة

المنصوص عليها ، ويكون لنا الخيار بعد ذلك في وضع قانون العقوبات، على ما نرى فيه مصلحة الأمة ، وردع المجرمين .

والحدود هي العقوبات الموضوعة للقتل والسرقة والزنا وأمثالها . ويستشكل الآن عقوبة السرقة والزنا .

أما عقوبة السرقة فليست (كما يتوهَّم من لا اطّلاع له على كتب الفقه) مطلقة عامة في كل سرقة ، مهما قلَّت .

فلقد اختلف الفقهاء في تعريف السرقة المستوجبة العقوبة ، ومقدار المسروق ، وحال السارق وظروف السرقة ، مما لا مجال لتوضيحه هنا[1] فينتج من ذلك أن العقوبة لاتجب إلا في أقل الحالات ، وهي بعد ذلك عقوبة يكفي أن تطبَّق أمداً قصيراً ، حتى لاتحتاج إلى تطبيق بعدُ ، كما وقـع في الحجاز .

وأما عقوبة الزنا فالشرط فيها أن يرى العضو في العضو أربعة شهداء وهذا أمر كالمتعذّر ، ولا تطبق إلا في حال الاعتراف ، ثم إنهـا تُدرأ بالشبهات .

وما عدا ذلك من القوانين النافعة ، كالسجل العقاري ، وسجـل النفوس ، وقوانين البلديات ، وكل قانون ينفع الناس ، ولم يردْ أمر به ، ولا نهي عنه ، فهو شرعي ، على قاعدة المصالح المرسلة .

ونحن ندعو إلى تأليف لجنة من كبار العلماء ، ممن لهم بصر واسع في الفقه ، ووقوف على الأدلة ، وإدراك لمقاصد الشريعة ، وبعدٌ عن التعصب الفكري والمذهبي فيعرض عليها مشروع كل قانون قبل إقراره لبيان حكم الله فيه .

إن دعوتنا هي دعوة الإيمان بالله وحده لاشريك له ، لانقيم أصناماً من حجر ولا أصناماً من لحـم ودم ، وأنه هو الذي يقسم الأرزاق ،

---

(١) يراجع (البدائع) مثلاً .

ويقدر الأعمار ، فلا نخاف في الحق أحداً ، ولا نطيع في معصية الخالق مخلوقاً ، ولا ندع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هي دعوة الصدق والاستقامة فلا يكون المسلم غشّاشاً ، ولا كذاباً، ولا سرّاقاً ، ولا دجّالا ولا (شحاداً) ولا بطالا ، ولا فظّاً غليظا ، ولا رخواً ذليلا .

هي دعوة المحبة والأخوة . المسلم أخو المسلم ، لا يؤذيه بيد ولا لسان ، ولا يظلمه ولا يعدو عليه . والخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله . وفي (كل كبد حرّى أجر)[1] حتى في الإحسان للحيوانات العجماوات .

هي دعوة القوة والعزة والجهاد : جهاد النفس ، وجهاد العدو ، الجهاد باللسان ، والجهاد بالمال ، والجهادبالنفس ، وأن يعمل المسلم للدنيا كأنه يعيش فيها أبداً ، وأن يعمل للآخرة كأنه يموت غداً .

وان المرأة أخت الرجل ، لها حقوقها المالية والاجتماعية ، ولها طلب العلم ، ولها المنزلة والكرامة ، على ألاّ تتكشّف التكشف المؤدي إلى المعصية ، فتبدي أكثر من الوجه والكفين ، في غير ما فتنة منها أو بها[2] . وألا تختلط بالرجال الاختلاط المؤدّي إلى الفساد ، لا في الجامعة ، ولا في السوق ، ولا في النزهة ، ولا في الدار . وألا تخلو امرأة برجل أصلاً إلا إن كان محرماً لها ، وألا تسافر إلا مع محرم لها .

وان من واجبات المسلم محاربة المنكرات ، والبدع في الدين ، والتمسك بما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وان الإسلام دين النظام ، فلا فوضى في الإسلام .

وان من إقامة الإسلام ، نشر العدالة الاجتماعية بين الناس ، ومنع الظلم ، وألا يتخذ بعض الناس بعضاً أربابا من دون الله ، وألا يستعبد أحد أحداً .

---

(١) اي ان في العطف على الحيوان اجرا .

(٢) فان خشيت الفتنة من الوجه وجب ستره .

ولسنا ندعو إلى الطفرة ولا إلى الثورة ، لاخوفاً من احـد ، فإن المسلم لا يخاف إلا الله ، ولكن لاعتقادنا أن الذي يأتي بالطفرة ، يذهب بالفطرة ، وأن التدرج سنّة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا : الولد الذي يخرج من بطن أمه فيمشي ويتكلم ويلبس ثيابه بيديه ، لايكون إلا عفريتاً أو يكون معجزة ، والبذرة التي تغرسها في التراب فتصير من فورها شجرة باسقة لا تكون إلا شعوذة أو عجيبة ، والفساد ماجاء في يوم واحد ، حتى يذهب في يوم واحد . لقد قصّر النساء الملاءة أصبعاً أصبعا ، حتى خرجن سافرات ، بالأكمام اليابانية ، وحتى اختلط في الجامعات الفتيات المسلمات ، بنات الصالحـين ، بالشباب الأجانب ، فلنرجع إلى الصلاح خطوة خطوة ، وأصبعاً أصبعا .

ولا تلقوا بالاً لمن يقول إنها « رجعية » ، فإن هذا التكشف هـو الرجعية لأن الناس ولدوا متكشفين ، وكانوا كذلك في فجر البشرية ، ثم تحضّروا فاستتروا ؛ فالذي يدعو إلى التكشف هو الرجعي ؛ وكل حمير الدنيا عراةمباح (فيعرفهن الحمّاري) العـُرْيُ والاختلاط . وإنمايمتاز البشر بالتصوّن والتستر والعفاف .



هذه دعوتنا . هذا هو المتن وستأتي الشروح .

هذه هي الخطوط الكبرى ، وسنكمل الصورة في الخطب الأخرى .

هذه هي الدعائم الكبرى والاركان ، وستتم بما يجيء من البيان ، إشادة البنيان .

فما الذي يعاب في هذه الدعوة ؟

ما الذي يدفع أقواماً الى السخط عليها أو الخوف منها ؟

أليست دعوة الحق ؟

أليست دعوة الفضيلة ؟

أليست دعوة العزة ؟

أليست دعوة الكمال ؟

بلى وإن الظفر لهـا ، والمستقبل لاصحابهـا ، لأنه لا يصـح إلا الصحيح ، والا يبقى إلا الأصلح .

والله معنا « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

طرق الدعوة الى الاسلام

خلاصة محاضرة القيت في حفلة تعارف الحجاج
في مكة في موسم الحج سنة ١٣٧٣ هـ

أحفظ حديثاً صحيحاً ، دائراً على الألسنة ، هو أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها ، ولقد ظهر كثير من هؤلاء المجددين ، في كثير من بلاد الإسلام ، وكثير من الدعاة إلى الله ، ولقد اطلعت على سيرهم جميعاً ، ووقفت على دعواتهم ، فوجدتها كلها تلتقي في المبدأ والغاية ، مبدؤها جميعا من الكتاب والسنة ، وغايتها ردُّ هذه الأمة إلى دينها ، ولكن طرقها مختلفات ، كل داع يختار لدعوته طريقاً ، يصل مبدأها بغايتها .

وقد عرضت هذه الطرق في ذهني ، فوجدتها تجتمع على اختلافها في شوارع ستة كبرى ، تتفرع عنها جوادٌ وسبُلْ . وهذه الشوارع الستة هي :

١ ــ طريق الدعوة إلى الله ، بإصلاح الملِك أو الحاكم ، يجعله الداعي قصده ، ويبلغ في إصلاحه جهده ، كما فعل (السرهندي) في الهند ، حين رأى الإمبراطور أكبر ، يكفر ويحمل الناس على الكفر ، ويحاول أن يمحو الإسلام من تلك البلاد ومن نفوس أهلها ، وكان الجيش معه ، والزعماء يؤازرونه ، والحكم له ، والمال تحت يده ، والشعب عاجزاً ضعيفاً لا يستطيع أن يأمره بمعروف ولا أن ينهاه عن منكر ، فجعل يتصل بأسرته وحاشيته لعله يستخلص واحداً منهم للإسلام ، وما زال يعمل هو وأولاده وتلامذته ، حتى وفّق إلى مايشبه

المعجزة حين أخرج الله به وبتلاميذه من صلب ذلك الإمبراطور المرتد الكافر ، ملكاً كان من أفضل ملوك الإسلام ، ومن أعدلهم وأتقاهم، وأشدهم حزماً ، وأكثرهم إصلاحاً ، وكان (بقية الخلفاء الراشدين[1]) هو عالم كير أورانك زيب بن شاهجهان بن جهانكير[2] بن أكبر .

وهذا الطريق قصير المدى ، عاجل النفع ، سريع الثمرة ، ولكن ثمرته تبقى ما بقي هذا الحاكم الصالح ، فان زال زالت .

٢ ـ طريق الدعوة الشعبية التي يحميها الحاكم ، ويؤيدها بسلطانه ، ويرد عنها الأذى بسيفه ، كما فعل (محمد بن عبد الوهاب) في نجد ، حين وجه دعوته إلى الشعب ولكنه ابتغى من الأمراء أجداد الملك سعود ، حماة لها ، ومدافعين عنها ، فضمن لها بذلك النصر والاستمرار .

٣ ـ طريق الدعوة الشعبية التي تحميها الثورة المسلحة ، كما فعل (أحمد بن عرفان) في الهند ، حين جند أتباعه ، وحمل أمامهم راية الجهاد ، وواتاه النصر حتى أقام دولة اسلامية في شمال الهند ، تحكم بالكتاب والسنة ، وتوشك أن تعيد الهند كلها إلى الإسلام ، لولا أن الانكليز لما عجزوا عن هدمها بقوة الأسد ، حاربوها بمكر الثعلب ، وأثاروا عليها المسلمين من رجال القبائل القوية المسلحة ، بحجة أنها دولة وهابية ...

فكانت النتيجة الفاجعة . إذ قضى المسلمون بأيديهم ، على الدولة الإسلامية الناشئة ، ليعيدوا الهند إلى إنكلترا ، بدلاً من إعادتها إلى الإسلام !

وكما فعل (عز الدين القسّام) ، هذا الشيخ المؤمن القوي ، الذي استحيا من الله أن يقرىء تلاميذه أحكام الجهاد ، وأنه يكون فرضاً على

---

(١) أنظر الحديث عنه في كتابي (رجال من التاريخ) .

(٢) عالم كير : قائد العالم ، وأورانك زيب : زهرة الملك ، وشاهجهان : ملك الدنيا ، وجهان كير : قائد الدنيا .

المسلمين جميعاً إذا احتلّ العدوُّ الكافر أرضاً اسلامية ، ثم يذهب الى داره فيأكل الرز واللحم ، ويشرب الشاي الأخضر ، وينام مطمئناً إلى أنه قام بكل ما يوجبه الإسلام على الرجل المسلم ــ وخرج معهم بعد أن تدرب على القتال ودرّبهم ، وباشر الجهاد فعلاً يوقع بالإنكليز ، ويحارب لإعلاء كلمة الله ، وأن تخلص فلسطين لأهلها ، ولبث على ذلك حتى سقط شهيداً .

مضى ولكنه خلّف أثراً لاتمحوه الأيام ، وكان أول من سنّ لنا في فلسطين طريق الجهاد ، حتى فعلنا سنة ١٩٣٦ ما لم تستطعه أمة في الدنيا ، وسجلنا من روائع البطولات ، على قلة العَدد ونقص العُدد ، ما لم يسجل مثله تاريخ . ولو لا أننا تنكبنا هذا الطريق وخالفناه ماكان الذي كان ...

٤ ــ الدعوة ببث الأفكار ، وعرض الحقائق على أفراد الناس ، في المجالس والمجامع والطرق ، وفي كل مكان ، وبالأسلوب المناسب ، والتعبير الموافق لما تقتضيه الحال ، من غير دخول في جدل ، أو اشتباك مع مخالف ، كما فعل (جمال الدين الأفغاني) وله جملة واحدة مشهورة يلخّص فيها مذهبه هذا ، هي (قل كلمتك وامشِ) .

وكما فعل (طاهر الجزائري) ، الذي زاد عليه بأنه كان إذا رأى مخالفاً له ، أظهر له التواضع وتجاهل ما يعرفه أمامه ، وجاءه بكتاب من الكتب التي تصحح له خطأه ، وترده عنه ، فقال له :

ــ إني وجدت هذا الكتاب في مكتبتي ، ولم أعرف ما فيه وأنا أحب أن تنظر فيه ، ثم تخبرني هل هو نافع لي فأقرأه ، أم هو من الكتب الضّارة ؟!

ويترك له الكتاب ، فلا تمر أيام ويستكمل قراءته ، حتى يكون قد رجع عن خلافه .

وهذه طريقة مضمونة النتيجة ، ولكنها طويلة ، والثمرة فيها بطيئة الظهور .

٥ ـ الدعوة إلى الله ، بالتعليم والإقراء وتأليف الكتب العلمية ونشر القديم النافع منها ، كما فعل (وليّ الله الدهلوي) في الهند ، و (محمد عبده) و (رشيد رضا) في مصر ، و (عبد الحميد بن باديس) في الجزائر .

٦ ـ الدعوة من طريق الصحف والمجلات ، والمقالات والمباحث كما فعل (محب الدين الخطيب) ، وهو أبو الحركة الاسلامية الجديدة في مصر ، كان قلمه أول قلم دعا إليها ، وكانت مطبعته السلفية أول مطبعة وُقفت عليها ، وكانت مجلته (الفتح) أول مجلة إسلامية في مصر ، وكما فعل (شكيب أرسلان) ، الذي كان كاتب الاسلام الأول .

★ ★ ★

وفي العالم الاسلامي اليوم ، دعوتان إسلاميتان ، اتّسعتا وكثر أتباعهما ، حتى صارتا أوسع الدعوات الاسلامية ، دعوة في الهند ، ودعوة في مصر .

ولا أستطيع أن أغفل جماعة هي (في رأيي) أصفى الجماعات الإسلامية ، وأقواها وأشدها تمسكاً بالإسلام ، وإن كان عددها قليلاً جداً ، هي جماعة المودودي (الجماعة الإسلامية) .

أما دعوة جماعة التبليغ في الهند فقد أسسها الشيخ إلياس ، وألزم فيها تلامذته أن يبذلوا لها قليلاً من أوقاتهم ، ساعة في الأسبوع ، أو يوماً في الشهر ، أو شهراً في السنة ، أو أربعة أشهر في العمر .

يسيحون في البلاد على نفقة أنفسهم ، لا يسألون أحداً معونة بل

لا يقبلون المعونة من أحد ، يدعون إلى الله ، ويبلغون المسلمين رسالة الإسلام ، لأنهم صاروا في الواقع أحوج إليها من غير المسلمين .

ولم يكتفوا بالوصول إلى أقصى القارة الهندية ، بل رحلوا إلى بلاد الإسلام الأخرى . وقدموا الشام ومصر والعراق ، وقد رأيت كثيراً منهم في مكة ، ومشي نفر منهم مشياً من مكة إلى المدينة ، ومن مكة إلى اليمن ، يعرّفون بَدْوَ الصحراء بالإسلام الذي انبثق نوره من أرضهم، ولكنهم جهلوه حتى صاروا يحتاجون أن يقتبسوه من هؤلاء الشباب ، القادمين من الهند ، الذين بلغوا في الإخلاص والتجرد ، وعلو الهمة ، والدأب على العمل ، أبعد الغايات .

أما الدعوة الأخرى ، فلا بد فيها من شيء قليل من التفصيل .

وأنا أتكلم هنا عن أسلوبها ، وعن عناصرها ، وعما أحبّه لها وأخشاه عليها .

أما أسلوبها ، فقد جمع مزايا الأساليب الثلاثة الأخيرة ، وزاد عليها ، فهي أولاً دعوة فردية ، تبدأ دائما بالكلمة العارضة ، والحديث القصير، في المجلس والمدرسة والطريق والسيارة كما كان يفعل الأفغاني والجزائري ، ولكن الأفغاني كان يلقي البذرة في الأرض،ويدعها ويمضي إلى أرض غيرها ، لا ينتظر النبتة ولا يرعاها ، وهؤلاء يلقون بذورهم في الأسماع ، ويقفون من بعيد ، يرقبونها ويرعونها ، فان أكلها طائر ، أو طارت بها ريح ، ألقوا غيرها ، وإن أحرقتها الشمس سقوها الماء ، حتى إذا بدت النبتة جعلوها غرستهم ، وأولوها عنايتهم .

ثم تبدأ مرحلة جديدة ، هي مرحلة الاجتماعات والأحاديث المنظمة ، والدروس المستمرة ، تمدها المطبعة بالكتب والمجلات ، فتكون بذلك جامعة لمزايا الدعوة الفردية ، والدعوة العلمية ، والدعوة الصحفية .

هذا من حيث (الشكل) كما تقول في المحكمة ، أما من حيث

(الموضوع) ، فان في هذه الدعوة ثلاثة عناصر متباينات مختلفات ، يحاول أصحابها أن يجمعوها في مزيج واحد ، ويؤلفوا بينها ، وآمل أن يوفقوا في ذلك :

١ ــ عنصر صوفي ، لاصوفية (ابن عربي) ، ولاصوفية(الشعراني)، ولكن صوفية (الغزالي) وهي تظهر في مظهرين ، في هذه (التشكيلات) التي تشبه في بعض الوجوه(تشكيلات) الطرق الصوفية ، وفي الروح التي تبدو في كتب قادتهم وخطبهم ومباحثهم ، ومن قرأ مذكرات صاحب هذه الدعوة وباني صرحها تبين له أنه نشأ نشأة صوفية، وكان متبعاً طريقة من الطرق القويمة خالية من أكثر ما كان ينكر على غيرها .

٢ ــ عنصر سلفي ، مستمد أكثره من (ابن تيمية) و (ابن قيّم الجوزية) وهو أظهر في هذه الدعوة من العنصر الأول ، وهو يتجلى في إنكارهم البدع في العبادات وبعدهم عنها ، وتجردهم عن ضلالات أدعياء الصوفية وأباطيلهم ، وأقوالهم الشنيعة ، كالقول بوحدة الوجود والقطبانية ودولة أهل الديوان، والتوسل المحظور، والعكوف على القبور ، وزعم أن وراء(الشريعة) التي تفهم من نصوص الكتاب والسنة،(حقيقة) تؤخذ من وساوس شياطينهم ، وشطحات مجانينهم ، وهذيان مجاذيبهم ومعتوهيهم ...

٣ ــ وعنصر جديد ، هو ثمرة التقاء الإسلام وعلومه بالثقافة الغربية في عقول علماء الجماعة ، وقد أثمر هذا العنصر مباحث ومحاولات ، كـ (العدالة الاجتماعية في الإسلام) وأمثالها ، كانت ثروة للمكتبة الاسلامية ، وهدى للشباب وكان منها النفع الكبير .

ولا تزال هذه العناصر الثلاثة ، في دور المزج والتأليف ، لم تتحد بعد في مزج جديد ، وأنا أحب لأصحابها أن ينتبهوا إلى أن أيسر خطأ في

مقاديرها يفسد هذا المزيج ، كما يفسد على الكيميائي عمله خطؤه في تحديد مقادير العناصر التي يجرب تجربته فيها .

وأن العنصر الصوفي قد يزيد عن الحد اللازم ، فتدخل الدعوة مثلاً ، هذه الفكرة الخبيثة التي حرص مشايخ الطرق على تثبيتها في الأذهان ، هي حصانة الشيخ ، والاعتقاد بكماله ، ووجوب الانقياد له مهما كان منه ، والاستسلام إليه استسلام الميت (كما يقولون) للغاسل ، فيؤدي ذلك بهم (من حيث لا يشعرون) إلى أن ينظروا إلى كبارهم ، هذا النظر الذي لم يكن يرتضيه الإسلام ولا يستحبه ، وإن كان يقول بالنظام ، وطاعة الأمير بالعقل والفهم ، وفيما ليس فيه عصيان الله .

وقد يزيد العنصر السلفي عن حده ، فيكون من ذلك ترك المذاهب الأربعة ، والاستقلال عنها ، من غير استعداد للاجتهاد ، وجمع لوسائله ، ولست أدري كيف فشت هذه الفكرة في الأوساط الإسلامية ، ولعلها (رد فعل) كما يقال في التعبير الحديث ، لما كان عليه جهلة المقلدين قبل خمسين سنة ، من القول بسد باب الاجتهاد ، والاكتفاء بأقوال الأئمة ، وإهمال النظر في الكتاب والسنة نظر استنباط واجتهاد ، واتباع حكم المذهب ولو فرض أنه جاء بغير دليل سمعي ، وكان الحديث الصحيح على خلافه[1] وهذا باب من الكلام لا تتسع له جملة مستعرضة ولا بد له من مقال قائم برأسه ، أنشره في (المسلمون) إن شاء الله .

ويكون منه أن نعود ظاهريين وأن نحيي ونحن لا نشعر مذهب الظاهرية ، الذي مات لأنه لا يصلح للحياة ، ولأنه يضيّق الشريعة ويذهب بمرونتها ، ويجعلها عاجزة عن إمدادنا بما نحتاج إليه من القوانين .

---

(١) في أول حاشية ابن عابدين أن الحنفي ان رأى الحديث الصحيح على غير ما فهم انه مذهب الحنفية واخذ بالحديث لا يخرج بذلك عن كونه حنفياً وقد شرح هذه المسألة أوسع شرح الشيخ بخيت في رسالة ارشاد أهل الملة بما لا مزيد عليه من البيان .

أو أن نكون في عقيدتنا من المشبهين الذين يجسمون الله ، أستغفره تعالى ، ويجعلون له يداً حقيقية ويدعون أنه في السماء حقيقة ، وأنه مستو على عرشه استواء مادياً ، إلى آخر ما جاء في الآيات المتشابهات ، التي أخذها السلف على ما هي عليه ، وآمنوا بها على مراد الله منها بلا بحث فيها ، والتي أمرّها الخلف على المجاز ، واتبعوا في ذلك سنن العرب في كلامها .

ويكون من زيادة العنصر الثالث ، أن نتكلم في الدين بعقولنا وآرائنا ، مجاوزين النصوص الثابتة ، فنجعل عقولنا مصدراً من مصادر الدين ، ودليلاً من أدلة الشرع ، مع أن عمل العقل في العلوم الشرعية هو فهم النصوص وتطبيقها على الحوادث ، لا الاستقلال بالأحكام .

وأنا موقن بأن هذه الدعوة ، على هذا كله ، هي دعوة العالم كله ، وهذا الذيوع وهذا التوفيق اللذان كتبا لها أعجوبة من الأعاجيب، وأنا أعرف صاحبها ، من سنة ١٩٢٧ ، وقد كنت في مصر حين جمع محب الدين الخطيب طائفة من الشباب أذكر منهم الأساتذة محمود شاكر وعبد المنعم خلاف وعبد السلام هارون بالأساتذة الشيوخ أحمد تيمور ، والسيد الخضر الحسين رحمهما الله وألفوا أول جمعية إسلامية حديثة في البلاد العربية هي (جمعية الشبان المسلمين) ، وكان ممن انتسب اليها وفرح بها ، ونشط للعمل على تحقيق غاياتها شاب في مثل أسناننا وجد أنها ليست كما يريد ويتمنى ، فاستقل عنها من غير فراق لها وجعل يدعو إلى الله وحده يلمّ الشاب والشابين والنفر القليل ، فكان من ذلك بداية هذه الدعوة .

هكذا بدأت الدعوة ، فكيف استطاعت أن تبلغ في أقل من ثلاثين سنة ما بلغت اليه .

إن الأسباب ثلاثة :

الأول : استعداد النفوس إلى الإيمـان ، لا سيما نفوس الشباب الذين نشؤوا في البيوت المؤمنة ، والذين ملوا هذه الحياة المادية ، التي حاول الكتاب والمعلمون أن يحصروهم فيها ، ويمنعوهم من التطلع إلى غيرها ، وأدركوا أن لذائذها محدودة ، وأنها لا تعدل لذائذ الإيمان ، ولا تستطيع أن تغني عن الحياة الروحية .

الثاني : ما سبقها من تمهيد لطريقها ، من عمل الأزهر وجمعيـات الشبان والهداية وغيرها ، وما قامت به مجلتا المنار والفتح .

الثالث : شخصية صاحبها ، وقد طالت هذه المقالة ، وضاقت عـن تفصيل الكلام فيها ، وأنا أحدد هذه الشخصية النادرة ، بهذه الخطوط ، كما تحدد الصورة وتبين معالمها ، بخطوطها الكبرى ، دون تفاصيلهـا ودقائقها .

يمتاز هذا الرجل بسبع صفات يرجع اليها (بعد توفيق الله) نجاحه، أربع منها تتصل بشخصيته ، وثلاث تتعلق بأخلاقه .

أما الأربع فتواضعه ، وبساطته[1] ، وذاكرته ، ولسانه .

وأما الثلاث ، فتجرده ، وزهده ، وصبره .

جاءني لما كنت في مصر سنة ١٩٤٥ صحفي سوري ، لقي رؤسـاء الأحزاب المصرية ، وسألني أن أدبر له لقاءه ، وكان يومئذ أكبر شخصية شعبية في مصر .

فقلت له : هيا بنا .

فشدهـ ، وارتخت شفتاه من دهشته ، وقال :

هكذا ؟ بلا موعد ؟

قلت كما يقول المصريون : وماله ؟

---

(١) البساطة بهذا المعنى لفظ مولد له وجه والبسيط في اللغة الواسع.

قال : إني لم أصل إلى لقاء أصغر الزعماء إلا بعد أن تكررت المواعيد ، وطال الانتظار ، وتعددت مقابلات الناموس (السكرتير) والمرافق والوكيل وهذا أكبر زعيم في البلد أفنمشي اليه فجأة ؟ وهل يرضى أن يقابلنا ؟

قلت : سترى .

وذهبت معه إليه ، كما أذهب إلى رجل عادي من أصدقائي،فاستقبلنا استقبال الصديق ، وكلمنا كلام المؤمن ، ورأى من بساطته وصراحته وعلمه وبيانه ما زاده دهشة وعجبا .

أما ذاكرته فهي نادرة من النوادر ، يجيئه ألوف وألوف من الناس ، وليس فيهم واحد ، لا يخاطبه باسمه ، ويسأله عن أهله وولده ، وعن تجارته أو زراعته أو عمله ، ويشعره أنه حفيٌ به ، متتبع أخباره ، وانه العارف بأحواله ، الواقف على أموره كلها — وكان في الواقع كذلك .

أما لسانه وبيانه ، فأنا أشهد (وأنا رجل يخطب ويتكلم على المنابر من أكثر من ثلاثين سنة وأنا أعرف خطباء العرب وفصحاءهم) بأني لم أر مثله ، وهو صاحب أسلوب جديد في خطاب الجماهير ، وأسلوبه أسلوب المحدث البارع ، الذي لا يقف ولا يتلعثم ولا يتردد ولا يلحن ، والذي يتكلم ساعات فلا يمل حديثه ، ولا يسأمه سامعه ، يصدر فيه عن قلب مؤمن ، وروح فكهة ، وعقل مفكر ، وعلم واسع ، ونادرة حاضرة ، وشخصية قوية هي شخصية القائد الذي يحزم في غير شدة ، ويلين في غير ضعف ، ويسوق الأمر الصارم ، بصيغة الرجاء أو التمني .

أما تجرده عن المطالب الدنيوية ، وعمله لله لا لجاه ولا للمال ولا للمنصب وزهده في الدنيا ، وبقاؤه على حاله من الفقر المتجمل من يوم نشأ إلى أن قضى شهيداً سعيداً (إن شاء الله) ، فذلك أعرف من أن يعرف به ، ويدلل عليه .

وقد بلغ من صبره واحتماله أنه كان يرحل الرحلة تستغرق أياماً طوالاً : يمضي لياليه كلها في القطار ، في الدرجة الثالثة ، ينـام وهو قاعد ، وكيف ينام من كان في الدرجة الثالثة من القطار ؟

ثم يصبح فيستقبل القرية أو البلدة ، فلا يزال يخطب فيها ويتكلم ، ويحل المشكلات ، إلى الليل ، فيعود إلـى ما كان عليه وتتشابه الليلة والبارحة .

وهذا شيء قد يصبر عليه الرجل يوماً أو يومين ، ابتغاء كسب ، أو خوف عقوبة ، أما أن يأتيه طائعاً متبرعاً ، لا يريد به إلا وجه الله ، ويستمر عليه أسبوعاً أو عشرة أيام متتاليات فلا أعرف من يفعله إلا هذا الشيخ ، رحمة الله عليه .

من هو المسلم ؟

كتبت سنة ١٩٣٩

ديننا علم واعتقاد وعمل

فالمسلم من (علم) أن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل ، بالشريعةالباقيةالتي تصلح لكل زمان ومكان، والتي تكفل لمتبعيها سعادة الدنيا والآخرة ، وجعلها رحمة للعـالمين ، وهدى للناس أجمعين ، وأنزل عليه الكتابَ الذي مـا فرَّط فيه من شيء ، القرآنَ كلامَ الله القديم ، وختم بالإسلام الرسالات فلا نبي بعد محمد خاتم النبيِّين .

و (علم) أن دعامة الإسلام وأساسه ، ومصباحه ونبراسه ، كتاب الله وسنَّة نبيِّه ، فما جاء في القرآن أو صحَّ أن النبي صلىالله عليهوسلم قاله فهو من الدين ، وما عدا ذلك من بدع ابتدعها في الدين قوم ، أو زيادات زادها أقوام ليست في القرآن ولم ترد في الحديث الصحيح ولا تقاس عليهما ، أو تستنبط منهما ، ولم يجمع عليها أئمة المسلمين ، فليست من الدين ، ولو قال بها أهل الأرض .

و (علم) أن الإسلام لا يشبه الأديان ولا يقاس عليها ، لأنه دين وشريعة وسياسة وأخلاق ، فهو يبيِّن صلة العبد بربه ، ويضع القوانين لصلات الناس بعضهم ببعض ، ويبني قواعد العلاقات السياسـية بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول ، والإسلام يرافق المسلم إذا غدا أو راح ، أو طلع أو نزل ، لا يفارقه لحظة ولا خطوة .

وليس في الدنيا عمل لايدخل فيه الإسلام ويبيِّن فيه حكم الله ،

فإما أن يكون مباحاً لايثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ، وإما أن يكون مندوباً يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ، وإما أن يكون واجباً يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ، وإما أن يكون مكروهاً يثاب تاركه ولا يعاقب فاعله ، وإما أن يكون حراماً يثاب تاركه ويعاقب فاعله .

وهذه الأحكام الخمسة (الفرض والمندوب والمباح والمكروه والحرام) هي التي تحدد مكان كل عمل من الدين ولا يخلو عمل من واحد منها .

فالمسلم لايقول ابداً (هذا الأمر خارج عن نطاق الدين لادخل له فيه) كما أنه لا يقول (إن الإسلام يجب أن ينفصل عن السياسة) لأن السياسة جزء من أجزاء الدين ، و (براءة) وكلها سياسة ، سورة من القرآن لا يمكن أن تنفصل عنه .

والمسلم من (علم) أن الشريعة الإسلامية أغنى الشرائع ، وأنها أثمن وأجمع وأحكم من القانون الروماني ، الذي اقتبست منه كل قوانين أوربة[1] ، وأنه يجب أن تكون قوانيننا المدنية والجزائية والمالية والإدارية والدستورية مستنبطة من شريعتنا ، مقتبسة من ديننا .

و (علم) أن من أنكر آية من القرآن ، أو حكماً معلوماً من الدين بالضررورة فقد خرج عن الإسلام .

و (علم) أن الاجتهاد في استنباط الفروع أمر مطلوب شرعاً ، يؤجر عليه صاحبه ولو أخطأ فيه ، مكافأة له على بذله الجهد واستفراغه الطاقة ، فإذا أصاب كان له فوق ذلك أجر آخر هو أجر الإصابة .

---

(١) ثبت ثبوتا مؤيدا بالوثائق والمستندات أن القانون المدني الذي وضع بأمر نابليون والذي انبثقت عنه قوانين أوربة كلها قد استند واضعوه الى كتب الفقه الإسلامي أخذوها من مصر أيام الحملة الفرنسية .

وأن الاجتهاد في أصول الدين ممنوع لأنها منصوص عليها ولا مساغ للاجتهاد مع ورود النص •

وأنه لا يضر الناس اختلافهم في الفروع (فكلهم من رسول الله ملتمس) سواء في ذلك الحنفي منهم والشافعي والمالكي والحنبلي ، بل إن اختلافهم رحمة من الله وتوسيع على الأمة ، ولكن يضرّ الناس اختلافهم في أصول الدين من العقائد ونحوها ، ويكون الواحد منهم مصيباً والباقون على ضلال • لأن الحق لا يتعدد ، والمصيب هو من اتبع ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والقرن الأول خير القرون •

و (علم) أن كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولم يعتقد ما يخالف الكتاب والسنة ، ولم يستحل محرّماً ولم يحرم حلالاً ، فهو مسلم تنطبق عليه أحكام المسلمين وتجمعنا به أُخوة الدين ، ولا يجوز تكفير مسلم إلا إذا أنكر أصلاً من الأصول ، أو أتى ما أجمع الأئمة على أنه مكفر •

و (علم) أن الإسلام لا يعارض العلم الصحيح ، ولا الفن النافع ، ولا الحضارة الخيِّرة ، وأنه دين سهل رحب مرن ، ليس بالدين الضيق الجامد المحرج •

والمسلم من (اعتقد) بأن لهذا الكون إلهاً واحداً قديماً باقياً ، سميعاً بصيراً ، متصفاً بصفات الكمال ، منزهاً عن صفات النقصان ، وأنه هو خالق كل شيء وإليه المصير •

ويخلص له العبادة ويراقبه دائماً ، ويعلم أنه مطلع عليه ، وأنه هو وحده النافع الضار ، وبيده الخير وهو على كل شيء قدير •

فلا يدعو معه غيره ، ولا يسأل سواه حاجة من الحاجات التي لايقدر البشر على مثلها ، ولا يستعين الا به ، ولا يخاف حق الخوف

إلا منه ، ولا يسخطه ليرضى الناس ، ولا يبالي إذا رضي عنه بسخط أحد .

و (اعتقد) أن الله خلق أنواعاً من المخلوقات ، منها ما خلقه من مادة كثيفة كالناس والحيوان والكواكب ، ومنها ما خلقه من مادة نورانية كالملائكة ، وهم خلق كثير من خلق الله لا يأكلون ولا يشربون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

ومن مخلوقاته الجن ، وهم خلق يروننا ولا نراهم ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر .

ومنها الشياطين وهم أهل الشر ليس فيهم صالح .

و (اعتقد) أن الله رحمة منه بالناس ، اختار من الناس رجالاً عصمهم من الكبائر ، ونزّههم عن النقائص ، ثم بعث إليهم (جبريل) وهو واحد من الملائكة ، فأبلغهم رسالة الله ، وعلمهم ما يسعدهم في دنياهم وينجيهم في آخرتهم ، وكلفهم إبلاغ هذه الرسالة أقوامهم ، وهؤلاء هم الرسل وأولهم آدم وآخرهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

ولو شاء الله لأنزل كتاباً واحداً ، وجعل الناس أمة واحدة ، ولكن اقتضت حكمته أن يكون التكامل في الرسالة تدريجياً ، كالتكامل في الحضارة والرقي ، فكل رسالة تعدل التي قبلها وتكملها ، حتى جاءت رسالة محمد ، في نهاية الكمال ، لايحتاج بعدها الى شيء لسببين :

أولهما أن طبيعة الرسالة المحمدية طبيعة مرنة قابلة للتطور في أحكامها الفرعية ، تبعاً لتطور العصور ، فهي لذلك تبدو في كل عصر جديدة ، ويتكشف منها جوانب ومعان لم تكن معروفة ، حتى كأنما أنزلت لذلك العصر .

والسبب الثاني طبيعة الحياة البشرية وميلها نحو الوحدة ، منذ فجر الإسلام حتى اليوم ، إذ أصبح الناس من حيث الاتصال كأنهم أبناء أسرة واحدة ، تقال الكلمة في آخر الشرق فتسمع في آخر الغرب ، وسهل تبليغ الرسالة ، ولم تعد حاجة لتعدد الرسل بتعدد الأقوام .

و (اعتقد) أن الوحي معناه نزول المَلك على الرسول ، وهو غير الإلهام الروحاني [1] الذي يحس به الشعراء والكتاب ، وأن الوحي ليس كسبياً وانما هو عطاء من الله لا ينال بالتحصيل ، ولا يوصل إليه بالبحث والعلم والتفكير ، لذلك لا يقال إن النبي عبقري عظيم ، ولا شاعر ولا فيلسوف ، لأن ذلك كله يختلف عن النبوة ، وينحط عن مرتبتها انحطاطاً كبيراً ، ويخالف العقيدة الإسلامية .

و (اعتقد) أن الله أنزل على أربعة من رسله كتباً ، فأنزل التوراة على موسى ، والزبور على داوود ، والإنجيل على عيسى ، والقرآن على محمد صلى الله على الجميع ، فبدّل كل قوم كتابهم وحرّفوه وبقي القرآن كما أنزل ، لأن الله ضمن حفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

و (اعتقد) أن الله سيجمع الناس كلهم في يوم القيامة ، فيعيد الحياة لمن مات ، ويرد عليه الروح ولو فني وصار تراباً ، ولو أحرق جسده وصار رمادا ، ولو أكلته الوحوش أو تخطّفته الطير ، ثم يحاسبهم جميعاً على ما عملوا في الدنيا ، فيكافىء المحسنين فيخلدهم في الجنة ، ويعاقب المسيئين فيدخلهم النار .

وأنه لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وأن من تاب قبل أن يموت محي ذنبه حتى كأنه لم يذنب ، بشرط

---

(١) جاء في الصفحة (٦٢) من كتاب التاريخ المقرر رسميا في مدارس العراق تأليف درويش المقدادي أن (الوحي معناه الإلهام الروحاني) .

أن تكون التوبة مقرونة بترك الذنب ، والعزم على عدم العودة إليه والندم على الماضي ، وهذه هي التوبة الصادقة التي تمحو الذنب ، فإن عاد بعدها إلى الذنب ، ثم تاب منه توبة صادقة غفر له ، ولو كثرت ذنوبه حتى صارت مثل زبد البحر (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) •

أما من تاب من ذنب وهو لا يزال مقيماً عليه ، أو يفكر في أن يعود إليه ، فهذا كالمستهزىء بربه والعياذ بالله •

و (اعتقد) أن كل شيء بقدر الله وأن الله قسم للعبد سعادته وشقاءه ، ورزقه وعمره ، فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك ، ولو بقي في عمرك يوم واحد لا يقتلك أهل الأرض ولو اجتمعوا عليك ، وإذا جاء أجلك أدركك الموت ولو كنت في برج مشيَّد ، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف ، ولا رادَّ لما قضى الله ، ولا دافع لمشيئته ، ولكن الله أمر بالعمل ، وبذل الجهد •

★ ★ ★

والمسلم بعد ذلك ، من يقرُّ ويشهد بلسانه أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيم الصلاة ويؤديها على وجهها في أوقاتها محافظاً على فروضها وسننها ، خاشعاً لله فيها ، ويصوم رمضان إيماناً واحتساباً ، ويؤدي زكاة ماله طيباً بها قلبه ، ويحج البيت إن استطاع •

ثم إنه لا يكذب ولا يغتاب ولا يشي ولا يؤذي أحداً ولا يظلمه ، ويكون عفيف العين واليد والفرج ، ساعياً إلى مكارم الأخلاق ، آخذاً الحكمة من حيث وجدها ، يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، مبتعداً عن الفحشاء والمنكر ، يعاون على البر والتقوى ، ولا يعاون على الإثم

والعدوان ، ينكر المنكر بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ، ويؤدي حقوق المسلمين فيساعد ضعيفهم، ويمد فقيرهم ، ويعود مريضهم ، ويغض بصره عن نسائهم ، ويحفظ لهم أعراضهم ، ويعد كل شيخ في المسلمين أباً له ، وكل شاب أخاً ، وكل صبي ولداً ، وكل فتاة بنتاً ، وكل امرأة أختاً ، ثم إنه يجتنب الخمر ، ويدع الربا ، ويخاف الشبه كيلا تقوده إلى المحرمات ، ولا يحوم حول الحمى حتى لا يقع فيه .

ويريد بذلك وجه الله ، مبتعداً عن حظ النفس ما استطاع الابتعاد ، عالماً أنه بشر فيه غرائز لا يملك الانفكاك عنها ، ولا يؤاخذه الله إلا بما ملك .

هذا هو المسلم الحق ... فاجعلنا اللهم مسلمين حقا !

★ ★ ★

المثل الاعلى للشباب المسلم

خلاصة محاضرة القيت في بيروت سنة ١٩٣٧

كلما أراد الشاعر الفرنسي الأشهر پول ڤاليري أن يحاضر ، بـدأ بتعريف مدلول الكلمات التي يتألف منها عنوان المحاضرة . وهذه هي عادة أجدادنا ، إذا أخذوا في الكلام على علم من العلوم ، أو مطلب من المطالب ، فليس عليّ إذن من بأس ، إذا اتبعتها هذه الليلة ، فبـدأت محاضرتي بتعريف المثل الأعلى ، والكلام على صفات الشباب الأساسية، وتلخيص القول في الإسلام ...

★ ★ ★

إنه ليس فيكم (أيها السادة) من هو راض عن حالته، مطمئن إليها ، وليس فيكم من لا يتصوّر حالة خيراً منها ، فإن كان عالماً فكر فيمن هو أعلم منه ، وإن كان غنياً تصوّر من هو أغنى ، فإذا صار مثل من يتصوره من الأغنياء ، أو يفكر فيه من العلماء ، طمح إلى درجة أعلى ، ومنزلة أسمى ، لا يكاد يبلغها حتى يزهد فيها ، ويطمع فيما وراءها .

وإذا أنتم استعرضتم أعلم العلماء ، وأجمل الفتيات ، وأبهى الرياض، وأبرع الصور ، وأفخم البنى ، لرأيتم الذهن البشري ، يتخيل على أهون سبيل ، عالماً أكبر ، وفتاة أجمل ، وروضة أبهى ، وبنية أفخم ، وصورة أبرع ... ثم يبالغ في التخيل حتى يستقر على مرتبة ، ويثبت في منزلة ، لا يرى فوقها منزلة ، فتكون هي (المثل الأعلى).

فالمثل الأعلى إذن ، هو أسمى ما يتصوره العقل البشري ...والمثل

تتعدد بعدد الناس ، فلكلٍ مثله الأعلى في الحياة ، وعدد الأشياء فلكل شيء صورته الكاملة ، ولكنها تجتمع كلها على افتراقها ، وتتحد على تعددها ، في أشياء ثلاثة نبَّه إليها أفلاطون وأخذ بها الناس في كل عصر ومصر ، وأجمعوا على إجلالها ، واتخاذهامثلهم العليا ، وغاياتهم السامية؛ وهنَّ : الحق والخير والجمال .

هذا هو (المثل الأعلى) .

أما الشباب ... وهل أحتاج إلى تعريف الشباب ؟

الشباب الحياة ، والحياة الشباب ، (روائح الجنة في الشباب) (١)

خَلَقٌ العيش في المشيب ولو كا ن نضيراً وفي الشباب جديده (٢)

الشباب ياسادتي الواحة الفريدة في صحراء الحياة ، وهو الربيع في سنة العمر ، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب .

الشباب يا سادتي ~~الواحة الفريدة في صحراء الحياة، وهو الربيع~~ في

لست أعني هذا الشباب الغض الغريض ، الحلو الناعم ، الذي يجرح خدَّيه لمس النسيم ، ويدمي بنانه مسُّ الحرير ، والذي ترِقُّ عنده الحياة ، حتى تسيل من العيون نظرات ساحرة مغرية ، وتدق جلائل الاعمال فيها حتى يستحيل إلى فكرة ، تطير كالفراشة بين أزهار الجمال، في روضة الحب ، أو نسمة معطرة تهب من حواشي فتاة فتانة ، أو قبلة فيها خمر وعسل ، تجمع لذائذ الدنيا في رشفة مسكرة ..

لست أعني هذا الشباب الفاتن المتأنث الذي يعيش للهوى والاحلام، ويبدأ تاريخ حياته بالحاء (ح) فلا يلبث أن ينتهي بالباء (ب) ...

إنما أعني الشباب الحيَّ العامل ، القوي المتين ، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من العيش ، ونظم نفسه حلقة في سلسلة شعبه ، واتخذ له مطمحاً ، ومثلاً عالياً ، ثم عمل على بلوغه ، وسعى إليه باندفاع

---

(١) أبو العتاهية

(٢) البحتري . والخَلَقُ : العتيق

الصواعق المنقضة ، وقوة العواصف العاتية ، وثبات الطبيعة ، وألقى في سفر حياته الراء بين الحاء والباء ؛ وهل الحياة إلا حرب دائمةونضال مستمر ، وتنازع على البقاء ، وتسابق إلى العلاء .

لا يبقى غير الصالح ، ولا يصلح غير القوي ... هذه هي الحقيقة الباهرة ، هذا هو القانون المقدس الذي لا يلغيه برلمان ، ولا يعبث به إنسان ، ولا يخرج عليه إنس ولا جان ولا حيوان ، لأنه من قوانين الله التي كتبها على صفحة الوجود ، يوم أخرجه من العدم ، وقال له : كن . فكان .

الجراد يأكل البعوض ، والعصفور يفترس الجراد ، والحية تصطاد العصافير ، والقنفذ يقتل الحية ، والثعلب يأكل القنفذ ، والذئب يفترس الثعلب ، والأسد يقتل الذئب ، والإنسان يصطاد الأسد،والبعوض يميت الانسان .. هذه هي السلسلة الخالدة لا تبديل لها ولا تغيير .

إما أن تقتل الأسد ، وإما أن يقتلك البعوض .

فيا شباب ! لا يغلبكم البعوض ، ولكن اغلبوا الأسود !

★ ★ ★

الحق ثقيل ، ولكن الحق أحق أن يقال ، فأرجو ألا يغضب مَن ههنا ممن يحسبون أنفسهم شيوخاً إن خاطبت الشباب ، وقلت : إن المستقبل للشباب [1] .

ولكن من هم الشباب ؟

يصف أندريه موروا الشباب بالرغبة الأكيدة في حياةالعاطفةوالحب، وحياة الحماسة والبطولة ، أي بالمجون والاستهتار ، والميلإلى الإصلاح،

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة وانا شاب ، ففيها حماسة الشباب ــ وفيها شيء من قلة الحكمة عند الشباب .

والإخلاص للمبدأ والزعيم ، والاندماج والفناء في المجموع (في الجمعية أو الحزب أو الأمة) ، وبأنهم أدنى إلــى المثل العليا ، وبأن شعارهــم الإقدام والتعجل والسرعة وبعض الأناة والانتظار[1] .

الشباب بهذه الصفات ، ليس الشبــاب بورقة النفوس وسجــل الميلاد ، فكل من مات قلبه ، وانطفأت شعلة حماسته ، وضاعت مثله العليا ، وأحسّ بأنه قد بلغ مأمله فلم يعدْ له أمل ، فهو شيخ ولو كان في العشرين من سنه . وكل من كان له قلب ، وكانت له آمال ومطامح، وكل متحمس مندفع شابٌ ولو شاب !

فلا تغضبوا يا سادتي الكهول إذا قلت ان المستقبــل للشباب ، ورفعت من شأن الشباب ، فإن فيــكم شباباً ولو ابيضّت لحــاهم ورؤوسهم ، وانحنت ظهورهم ، وتجعدت جباههم . هم شباب العزائم والقلوب ! وهؤلاء الخاملون من الشبــاب هم الشيوخ . لا تعجبوا يا سادتي ، فلقد كان شوقي شيخاً في مطلــع شبابه يوم كان شاعر الأمير ، ثم عاد شوقي شاباً في كهولته يوم صار شاعر الآمال والآلام ، شاعر العروبة والإسلام ...

★ ★ ★

بقي عليّ تعريف الإسلام ، ولكن من العبث يا سادتي أن أعرّف الإسلام ، وأنا أحاضر قوماً هم بحمد الله مسلمون ، ولا يكون مسلماً من لا يعرف ما هو الإسلام ، ولا صلة له بعلومه ، ولا اطّلاع له على أحكامه ، ولا وقوف له على أمره ونهيه ، وعند أمره ونهيه .

---

(١) أندره موروا ، في كتاب (طريق السعادة) وهو مجموعة محاضرات في السعادة والزواج والأسرة .

إن من العبث أن أقول لكم ان ديننا ايمـان وعقائد ، وإسـلام وعبادات ، وإحسان وأخلاق ، وسياسة وشريعة ، وإن له في كل جانب من جوانب الحياة مصباحاً يضيء ، ومناراً يهدي . وانه لا يفارق المسلم أبداً ، ولا يدعه لحظة . إن كان وحده ، منفرداً بنفسه كان معه الإسلام يأمره بأن يحاسب نفسه ، ويتوب من ذنبه ، ويتأمل في بديع صنع الله في نفسه وفي العالم ، ويستدل بالصنعة على الصـانع ، وبالأثر على المؤثر . (وفي أنفسكم) أكبر الدلائل ، وأقوى الحجـج ، (أفلا تبصرون ؟) أو لا يتفكر هؤلاء الجاحدون (أخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟) . (أو لم يتفكروا في أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى) ، (أفلا تتفكرون) .

وإن كان المسلم في المجتمع كان معه الإسلام ، يبيّن له سـبيل الحكمة ، ويدله على صراط الأخلاق المستقيم ، ويأمره بأن يحسـن استعمال هذه القوى التي وهبها له الله ، فلا يتبع بها ما ليس له به علم، (ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) ، ولكن يستعملها في سبيل العلم ، العلم كله حتى الفلك والجيولوجيا وعلم الأجناس ، هذه العلوم من آيات الله . قال تعالى : (ومن آياته خلـق السموات والأرض واختلاف ألسنتـكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) ، (إنما يخشى الله من عبـاده العلماء) .

ينظم الإسلام العلاقة الاجتماعية خير تنظيم ، ويبني الأمة أمتن بناء ، يبدأ بإنشاء الأسرة فيجعل لها رأساً مسؤولا ، له حق الطاعـة لينتظم الأمر ، وتتم المصلحة ، وعليه واجب العـدل والعمل ، وجعل الرجل هو الرأس [1] لطبيعة تكوينه وخلقته ونوع عمله وغايته (الرجال

---

(١) ومن آيات الله في ملكوته ان الراس لايكون إلا مذكراً في اللغة وفي الحياة ، ولكن أكثر الناس غفلوا عن الآيات فأنثوه فقـالوا بأقلامهـم في صحفهم : هذه الرأس ، وقالوا بأفعالهم في بيوتهم : هي الرأس .

قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وجعل على النساء واجباً ، ولكنه أعطاهنّ حقاً مثله (ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف) ، ورفع من شأن التربية ، وجعل للمربين الأولين ، للوالدين ، أرفع مقام ، وجعل طاعتهما مقرونة بالتوحيد الذي هو رأس الدين وبيت قصيده ودعامة بيته . قال عزّ من قائل : (وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ووضع خير القواعد وأحكمها للزواج والطلاق والإرث .

وينظم الإسلام أمور الأمة ، ويقيمها على أساس من الفضيلة والعدل . (قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق) .

ويشرع لها القوانين الثابتة المحكمة في معاملاتها ، والقواعد الأخلاقية السامية في علاقاتها الخاصة .

ويدعو الى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والدليل الواضح والبرهان القاطع ، لا بالإرهاب ولا بالترغيب . (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) ودعا المخالفين الى المحاجّة والمناظرة ، وإقامة الأدلة (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) (أ إله مع الله قل هاتوا برهانكم) . وعاب الإسلام التقليد والجمود واتباع الآباء والأجداد ، وإهمال العقل ، ودفع الناس الى التفكير ، وإقامة البراهين العقلية والأدلة اليقينية ، أي أنه دعا منذ (١٤٠٠) سنة الى الطريقة العلمية التي يفخر بها علماء اليوم ويظنونها من ابتكارهم وأثراً من آثار حضارتهم . قال تعالى يذم أهل الجمود وينعي عليهم (وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟) .

إنكم تعرفون هذا كله أيها السادة لأنكم مسلمون ، وإن من العيب

أن ألقيه عليكم فما جئت لأعرّف الإسلام ولا أردت تعريفه . ولكن أحببت أن أوجه أبصاركم الى مسألتين مهمتين :

أما المسألة الأولى فهي أن ديناً يضع للعقل قواعد التفكير ، ويشرع للعلم طريق البحث ، وينظم حياة الفرد وحياة الأسرة ، ويكون هو القانون المدني والجزائي ، والقانون الدولي ، والأخلاق والفلسفة - إن ديناً هذا شأنه ، لا يصح أن يعدّ مع الأديان التي لا تتجاوز أحكامها عتبات معابدها ، ولا يجوز أن نطلق عليه ما يطلقونه عليها من أحكام .

فاذا قبلنا بمبدأ فصل الدين عن السياسة مثلا ، فلا يصح أن نستنتج منه وجوب فصل الإسلام عن السياسة ، لأن الإسلام ليس ديناً ، ولكنه دين وسياسة . هل تستطيعون يا سادتي أن تحذفوا سورة براءة مثلا من القرآن لأنها سياسة ...؟

وإن قبلنا مبدأ استقلال العلم عن الدين لأن الدين لا يستند الى البحث العلمي ، ولا الى العقل ، فلا يصح أن نسحب هذا الحكم على الإسلام ، لأن الإسلام ليس ديناً وسياسة فقط . ولكنه دين وسياسة ومنطق وعلم ...

هذه يا سادتي حقيقة ظاهرة ظهور الشمس ، ولكن أكثر شبابنا لا يرونها ، خفيت عنهم ، وغربت هذه الشمس من أفق تفكيرهم ، فتخبّطوا في ظلام ليْلٍ أليَلْ ، فلذلك ترونهم يأخذون كل ما يقوله الإفرنج عن دينهم فيطبقونه على الإسلام ، على الاختلاف بينهما ، والتباين بين طبيعتيهما ...

ولعل من هذا الباب تسمية العلماء برجال الدين ، وإنها لتسمية باطلة ، فَشَتْ على الألسنة ، وعمّ بلاؤها . ونسي المسلمون أنهم كلهم رجال الدين ، دين الإسلام ، دين المساواة والسمو والعمل ، ليس فيه طبقات مميزات من طبقات ، وليس أحد أحق به من أحد ، وليس

فيه جماعة هم وكلاء الله ، يحلون ويحرمون ، وهم أصحابه الأدنون وأهلوه الأقربون ، وغيرهم الأبعدون ، ولكن المسلمين كلهم (أبناء النبي وعترته والفارسيين والصينيين) وكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ... لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعلم والقيمة الشخصية : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) ... (يا فاطمة بنت محمد ، لا أغني عنك من الله شيئاً) ...

فلا تقولوا للعلماء رجال الدين ، ولا تحملوهم وحدهم واجبات الدين ، فان رجال الدين هم كافة المسلمين . ليس عندنا إلا العلم والتقوى ، فمن كان عالماً عظّمناه وسألناه ، ومن كان تقياً أحببناه وأجللناه ، ومن أخطأ وحرّف رددناه أو ردعناه كائناً من كان ذلك المخطىء وذلك الناقد . ليس الناقد بأقل من تلك العجوز ، وليس المنقود بأجلّ من عمر !

هذه المسألة الأولى .

أما المسألة الثانية التي أحب أن أوجه إليها أنظاركم ، فهي أن الدين على ما يفهمه العلماء من أهل أوربا هو الذي ينظم علاقة الإنسان بالله ، وبما خلق الله من المخلوقات المغيبات وراء المادة وبالعالم الآخر ، فلا علاقة له بالحياة السياسية ولا الأوضاع الاجتماعية ، ولا بالقوانين والنظم ، ولا يصح أن تبنى عليه الجامعة القومية .

هذا ما يقرره العلماء الذين بحثوا في هذه الجامعة وطبيعتها وقيمتها ، وفي مقدمتهم (ريناف) في محاضرته المشهورة التي ألقاها في الصربون سنة ١٨٨٢ . وهذا صحيح في الأديان ولكنه ليس بصحيح في الإسلام ، لأن الإسلام ذاته قومية ، ورابطة اجتماعية معنوية ، ليست قائمة على لغة ولا على أرض . ولكن على ما يسميه (أرنست ريناك)

بالإرادة المشتركة ويجعله أساس الرابطة الوطنية .

فليس وطن المسلم مكة ولا المدينة ولا البلد الذي ولد فيه ، ولكن وطن المسلم المبادىء الإسلامية ، فحيثما وجدت هذه المبادىء وحيثما كان أهل (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فثمّ وطن المسلم .

وعندي أن هذه الرابطة الإسلامية رابطة (إنما المؤمنون إخوة) معجزة من أعظم معجزات الإسلام لأنه أقر منذ أربعة عشر قرناً المبدأ الذي اهتدى إليه العقل البشري سنة ١٨٨٢ م ، وسار منذ أربعة عشر قرناً في الاتجاه الذي يسير فيه العالم اليوم . ولقد سقط اليوم مبدأ القوميات الذي دعا إليه الرئيس (وِلسُن) بعد الحرب ، ونهضت المبادىء الفكرية الاقتصادية ، فانقسم العالم كما ترون إلى جبهات ثلاث : الديموقراطية والشيوعية والفاشية[1] . وكما أن الشيوعي الفرنسي أخو الشيوعي الروسي ولو تناءت الديار وتباينت اللغات واختلفت الأجناس فكذلك المسلم أخو المسلم ، أينما كان وكيفما كان .

لقد انتهينا من تعريف المثل الأعلى والشباب والإسلام ، فلنشرع في الموضوع :

قلت إن أندريه موروا وصف الشباب بصفتين أساسيتين : هما الحب والبطولة . أما الحب فهو عماد الحياة وركنها وأساسها ، لا معدى عنه ، ولا منجى منه . وأحسب أن الشباب الحاضرين ، بل وكثيراً من الشيوخ يصفرون لي وينزلونني عن المنبر ، إذا أنا قلت لهم : « لا تحبّوا » ، وكيف أقولها ؟ أجننت حتى أقولها ؟ أنا لا أقول : حطّموا القلوب ، ودوسوا العاطفة . وماذا يبقى لنا إذا خسرنا العاطفة؟

لقد خسر إدوار عرش بريطانيا العظمى ، ولكنه ربح العاطفة فلم يخسر شيئاً . لقد أنسته عيناً مدام سمبسون مُلْكَ إنكلترا ، فهل

---

(١) ذهبت الفاشية وستتبعها الأخريان .

كان ينسيه هذا الملك الضخم ، وهـذا التاج المرصع ، عيني سمبسون لو أنه هجرها [1] ؟

العاطفة هي التي تدير دولاب حياتنا ، وتسيّر أمورنا كلها ، أما العقل فلا يصنع وحده شيئاً . ومن يذكر منكم أنه مشى خطوة واحدة برأي العقل وحده ؟

العقل يا سادتي فيلسوف أعمى ، حكيم مقعد ، ينـادي بصوت خافت ضعيف ... أما العاطفة فهي القوة ، هي النشاط ، هي الحياة .

أنا لا أقول : اقتلوا العاطفة ، لأن في موتها موتنا ، ولكن أقول إن العاطفة تضيق حتى لا تشمل إلا شخصاً واحداً ، وتنحط حتى تنزل من قلب هذا الشخص الى ما تحت القلب ، الى ما تحت ... السرّة ! وتسمو حتى تحيط بالمثل الإنسانية العالية ، وتعمّ حتى تشمل الأمـة كلها ، بل الإنسانية جمعاء .

فاسموا بعواطفكم عن مواطن شهواتكم ، واخرجوا بها من ذواتكم، وقِفوها على أمتكم وبلادكم .

أحبوا ، فإن الذي لا يحب لا يكون إنسـانا ، واذكروا واحلموا وتألموا ... ولكن افهموا الحب بمعناه الواسع الذي يشمل كل ما هو حق وخيِّر وجميل ... لا المعنى الضيق العقيم ، الـذي لا يتجاوز حدود جسم امرأة .

أحبوا ، ولكن ابقوا مسلمين .

إن للمسلم قلباً ، قال الله عز وجل : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب [2] أو القى السمع وهو شـهيد » ، ولكن المسلمين يغضّون

---

(١) سلوه الآن لتروا كيف يعض أصبع الندامة ، على أن باع مجد العمر بلذة ساعة ، وترك واقعاً ملموساً لوهم ، وحقيقة قائمة لحلم !

(٢) مهما كان معنى القلب هنا .

عيونهم وقلوبهم وفروجهم (إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) •
أحبوا ولكن ابقوا رجالاً •

إن الرجل إذا أحب لم يبكِ ويتذلل ويأرق الليل ، ولم يلق شفتيه على قدمي المرأة ، كما كان يفعل لا مارتين ، ولكنه يقوم قائماً على مشط رجله ، ثم يقول لها ، بعينيه النافذتين ، وعضلاته الحجرية ، وإرادته الماضية ، ورجولته البادية : « تعالي ! »

أحبوا ولكن ابقوا أفراداً من هذه المجموعة البشرية التي هي الأمة ، لا يقطعكم الحب منها ، ويُعِدكم الى الحياة الفردية الوحشية، فتنكروا كل شيء ، وتنسوا الدنيا ، وتتجاهلوا الحياة إلا إذا أشرقت عليها نظرة من المرأة ، وأضاءت في أرجائها كلمة منها •

ولا تقيمو الدنيا وتقعدوها ، وتغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قبلة وعدت بها ، ولم تصل وقد لوّحت بالوصل ، تنظمون الأشعار في هذه الكارثة ، وتنشؤون فيها الفصول ، تبكون وتستبكون ، ثم تنامون آمنين مطمئنين ، والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد •

الشعر شعور ، فأي شعور وأي حس فيمن يرى أمة كريمة مجيدة بقضّها وقضيضها ، ومفاخرها وتاريخها وحياتها وأمجادها تطرد من ديارها وتخرج من بيتها ــ وهي أمته ، وأفرادها إخوته ، لتعطى مساكنها الى أمة من أسقط الامم : أمة ضربت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله ، وغضب من الناس ومن الحق والفضيلة والتاريخ ، ويرى صدورها مفتحة للرصاص ، وشيوخها مسوقين الى حبال المشانق ، وشبابها في شعاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم ، وأطفالها ونساءها بين لِصَّين : لص ديار ، ولص أعراض ، لص يحارب بالذهب ، ولص

يقاتل بالبارود ، ثم لايحس بهذا كله ، ولا يدري به ، ولا يفكر فيـه ، لماذا ؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألم .

ماله ؟ ما مصابه ؟ إن حبيبته لم تعطه خدها ليقبله .

إن العاطفة اذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة .

★ ★ ★

وما دمنا في حديث الحب فلنوف الحديث حقه .

إن لي تعريفاً قديماً للحب ، هو أنه المُرقِد (البنج) الذي وضعه الله لتمام عملية التناسل التي لابد منها لبقاء النوع البشري ، والتي لايصبر الإنسان على احتمال قذارتها وآلامها لولا هذا المخدر ، فأول الحب إذن ووسطه وآخره الاجتماع الجنسي والسلام .

أما الحب العذري الأفلاطوني العفيف فليس الا إحدى الأكاذيب الجميلة ، التي لايصدق بها عاقل .

من أجل ذلك يشك العقلاء فيعفاف المرأة المحبوبة ، وينظر المسلمون الى الحب نظر الريبة .

إني لألحظ في وجوهكم معنى الاستنكار والاعتراض ، وأرى فيها بوادر الثورة .

لاياسادتي .. أنا لاأنتقد الحب ، ولاأشك فيجماله ، ولكن أسألكم وأرجو أن تجيبوني بإنصاف : من هو الذي يسمح لي فيكم أن أحب زوجته أو أخته ؟

لاتغضبوا ياسادتي .. فما أردت إلا التمثيل فجاء المثل غليظاً نابياً واني ليسرني ان تستهجنوه ، لأن هذا دليل على انكم للحقيقة اشـد استهجاناً .

فلنعلن إذن أن هذا الحب المعروف اليوم ، مما يأباه الإسلام ويتنافى مع المثل الأعلى للشاب المسلم ، ولكن ماذا يصنع الشباب ؟

الجواب : يتزوجون .

نعم يتزوجون .

إن حياة العزب حياة خطرة على نفسه وعلى المجتمع .

إنه صندوق ديناميت يوشك أن ينفجر في كل لحظة فيدمر سعادة أسرة من الأسر ، وينقض دعامة من دعائم الوطن . إن حياة العزب حياة فارغة من كل شيء لأنها فارغة من الزوجة ولو امتلأت بكثير من النساء (غير الزوجات) .

إن أفكار العزب مهما اختلفت مناحيها وتعددت متوجهة الى وجهة واحدة ، تسعى إليها بشدة وعنف كما تسعى السيول من كل جهة الى قعر الوادي ، إنه لا يجتمع عزبان إلا نظما مؤامرة على الأخلاق والعفاف .

وإن قسطاً كبيراً من ثقل التبعة يقع على عاتق الآباء ، فهل فيكم أب مسلم له بنات يكون قدوة طيبة للآباء المسلمين الطيبين ، فيفتش عن شاب صالح جاد فيزوجه بما يستطيع من المهر والنفقات : بخمسين ليرة سورية[1] بثلاثين ، لم لا ؟ أهي تجارة ؟ أتريد زوجاً لبنتك صالحاً تسعد به ويسعد بها ، وينشئان أسرة شريفة مستورة سعيدة أم تريد ذهباً تبيع به ابنتك ؟

هذا دواء هذا المرض العضال .

هذا حل المشكلة . فإذا لم تحلوها اليوم لا تنحل أبداً ، إذا لم تداووا المرض يموت المريض .

---

(١) كانت الخمسون ليرة يومئذ تعدل في الصرف عشر ليرات ذهبية وكان كيلو الخبز بثلاثة قروش !

فيا وجهاء هذا البلد ، الوجاهة بالعمل النافع ، وبالتقوى والإصلاح ، لا بالمال ولا بالفخفخة الفارغة ، ولا بالعظمة الجوفاء ولا بالمراتب العالية ، فاعملوا أو فتنحّوا عن أماكنكم لمن يعمل !

وإن من الحماقة التي ليس وراءها حماقة أن تبنى الأسرة الثابتة على عاطفة متبدلة متحولة .

ومن الحماقة أن يبنى الزواج على الحب .

منذ َ الذي يبني داره على كثيب من الملح في طريق السيل ؟

الحب فراشة حلوة ، فيها أجمل الألوان ولكنها لا تعيش إلا يوماً واحداً .

الحب زهرة فوّاحة ليس لها في الروض مثيل ، ولكنها تذبل عند أول لمسة .

من رأيي في الحب أنه لا يكون إلا إذا كان أمل ، وكان مع الأمل حرمان ، كالكهرباء لا تضيء المصباح إذا التقى فيها القطبان المختلفان. أنت تحب المرأة لأنك لا تقدر عليها ، فتسبغ عليها من خيالك ثوباً تراها فيه أجمل الناس ، فإذا قدرت عليها ، وخلعت هذا الثوب عنها ، عادت امرأة كسائر النساء .

أنظروا الى الزوجين الحبيبين في شهر العسل ، وقد ذهبا يسيحان ينعمان بالخلوة الحلوة ، في أجمل البقاع ، أو أكبر المدن ، تحسبوا أن السعادة قد جمعت لهما من أطرافها ، ولكن اقتربوا منهما تروا أنها لا تمر إلا أيام حتى لا يجدا ما يتحدثان به ، إلا حديث الأيام الأولى ، يوم كان أمل وكان حرمان ، ثم تمضي الليالي ، وتبلى جدّة هذا الحديث ، فلا يبقى بينهما كلام .

وماذا في لغة الحب ، غير (أحبّكِ) و (أحبّكَ) ؟

ردّدوها مئة مرة فإنكم تناموت .

فلنعلن إذاً أن بناء الزواج على الحب وحده لا يرضاه الإسلام ، لأنه لا يرضاه العقل • فهل نعود إذن الى طريقتنا الأولى : تخطب لي عمتي أو خالتي ، وتنتقي لي الزوجة على رأيها ، وأنزل أنا على حكمها، وأعلق مستقبلي بها ، وأمضي العقد وأمشي الى حفلة العرس ، وأنا لا أعرف ما لون عين العروس وما شكل أنفها ؟

هذه طريقة سقيمة عقيمة ، فماذا تصنع إذن ؟

ما هي الطريقة المثلى ؟

هي يا سادتي طريقة الإسلام • إن الإسلام منح الخاطب (بعد أن يتم الرضا عنه ، ويرجح جانب قبوله صهراً) أن يرى وجه المرأة وكفَّيها ، أن يجلس معها (بحضور وليِّها) هذه هي سنة الدين ، ولكن الآباء جاهلون ، يأبون أن يرى الخاطب الصالح وجه الفتاة ، ثم يخرجونها الى الأسواق ، متبرجة متهتكة ، يرى أكثر من وجهها وكفيها الفاسق والخبيث ، وكل من كان في الطريق ، حتى الحمار !

إننا تركنا قواعد الإسلام ، فتركنا الفلاح والنجاح

هذه هي القصة الأولى للشباب ، وهذا هو المثل الأعلى فيها •

تزوج ثم أحب زوجتك ، وأوْلِها قلبك ، وامنحها عاطفتك •

أما الصفة الثانية فهي البطولة ، وحظ الشباب المسلمين فيها أوفى من حظوظ شباب الامم ، وعلى الشباب المسلمين واجب أضخم ، ذلك أن المصلحين كانوا يتلفتون قبل عشرين عاماً فلا يرون حولهم إلا ظلاما لا تسطع في ثناياه بارقة أمل ، ونوما (أو قُلْ موتا) لا ترى في خلاله أمارة حياة ، وخيبة مستمرة في السياسة والعلم والعمل ، ثم انجلت الحرب العامة عن جسم واحد ، حاول الاقوياء الغالبون أن يخالفوا فيه سنّة الله ونواميسه في كونه ، فيجعلوا الرأس يحيا وحده ، واليدين تعيشان وتفكران على استقلال ، والقلب يصبح انساناً برجلين ، فقرروا

أن تكون هذه الحكومات الكثيرات المضحكات في بلد مجموع سكانه أقل من نصف سكان لندن[1] ، فكأنهم جربوا ألا يكون الواحد ربع الاربعة ، بل يكون كل واحد أربعة كاملة !

كان المصلح يرى ذلك ولا يرى الى جانبه مايبعث في النفس املا أو يحيي فيها رجاء ، فكان يتشاءم ويقنط ، ولكن الزمان ياسادتي قد تحول وختمت يد القدرة المجلّد الثاني من تاريخ الأمة الاسلامية ، ذاك الذي سجلت فيه عصر الانحطاط والتأخر ، وافتتحت اليوم المجلد الثالث من التاريخ لتسجل فيه عهد البعث والتقدم . ان المصائب التي اشتدّت وآلمت ، وتتالت وتعاقبت ، قد نبهت وأيقظت ، وحذّرت وأنذرت ، فأفاقت شعوب هذا الشرق الاسلامي مذعورة تفتش عن طريق الحياة ، وتبحث عن سبيل العمل ، وظهرت بوادر يقظة قوية ، ونهضة شاملة ، ولكن (يا سادتي) ينقصنا الايمان بهذه الحقيقة الواقعة فليكن اجتماعنا هذا تبشيراً بها ودعوة اليها . يجب أن نؤمن بهذه النهضة ايماننا بوجود أنفسنا ، ويجب ألا يبقى فينا متشائم .

لقد نهضنا ، ولكن القافلة تجتاز اليوم أشد مرحلة من الطريق ، وأخطر مفازة في هذه البادية . كانت القافلة تسير نائمة يقودها أدلاء جهلوا الطريق ، وحادوا بها عن المحجّة ، وتنكّبوا بها الصراط المستقيم فلما سمعت صوت القدر على لسان اولئك الأعلام : الأفغاني ، ومحمد عبده ،والقاسمي ، والشيخ طاهر ، والألوسي ، وسعد ، ورشيد رضا وشكيب أرسلان ، والرافعي وأمثالهم — أفاق منها من أفاق ، فنهض وفتح عينيه من لم ينهض ، وقال كلٌّ كلمته ، فوقعت المعركة بين الداعين

(١) كان في سورية الطبيعية عقب الحرب العامة سبع دول : دولة دمشق ودولة حلب ودولة العلويين ودولة جبل الدروز ودولة لبنان ودولة فلسطين ودولة شرقي الاردن .

للمصلحين والأدلاء الجاهلين ، وانقسم الناس بينهم اقســاما ، فكانت بلبلة ، وكانت جلبة ، وكان اضطراب ، ولكن القافلة تمشي .. تمشي على الطريق لأنها أفاقت ، ومن افاق واتنبه لايتبع دليلا جاهلا .

ان هذه النبتة على قوتها مختفية بين مئات من الاعشاب الجافة التي بقيت من الموسم الماضي ، انها ستشق طريقها من بينها وتحيا من دونها ، لأن النبتة الجديدة أمّ المستقبل : نصيبها الغد ، وتلك الاعشاب بنت الماضي فستذهب مع الامس الى غـير مارجعة . ان صــوت النهضة الجديدة ، صوت الحق ، ضـائع في الصيحات التي تدوي اليوم في الاسماع صدى للاصوات الماضية لا يلبث ان يخفت ، لأن الصدى ينتهي ، أما الصوت فانه يبدأ .

★ ★ ★

هذه النهضة واضحة ، فآمنوا بها ياشباب ، وانظروا الى الحياة من ناحية الامل المشرق الواسع لا من جهة اليأس الضيق القاتم .

إن شبابنا متشائمون : اقرؤوا قصائد الشعراء من الشباب ، انها مليئة بالآلام ، مغمورة بالكآبة ، غارقة في الدموع . اسمعوا موسيقى الشباب كلها بكاء ، كلها نحيب : (يالوعتي ياشقايا ، ضاع الأمل من هوايا ...) فما لشعرائنا وموسيقيينا الشباب لا يرون في الدنيا لذة ولا سرورا ؟

لِمَ يبصرون ظلام الليل ولا يرون بهاء الشمس ؟

لِمَ يفكرون في وحشة الخريف ولا يفكرون في روعته ؟

لِمَ ينتبهون إلى عَرْي الشتاء ولا ينتبهون إلى خشوعه ؟

إن كلّ ما في الدنيا جميل بهي ولكن في عين الشاب الصحيح القوي .

أما المريض ، أما المسلول المحطوم ، فلا يري إلا الظلام .
فيا شبابنا داووا نفوسكم من سل اليأس .

* * *

لقد استدار الزمان كيوم ظهر الاسلام ، واحتضرت الحضارة وكادت تأتي عليها مادية الغرب ، فتذهب بها كما كاد يذهب بالحضارة الاولى تَفَسُّخ الحكومتين الكبيرتين فارس والروم .

ان العالم اليوم بين حجري الرحا التي تطحن المدنيّة ، وتتركها هباءً منثورا كما تكهّن ولز .

العالم بين مادية الغرب وحياته الحديدية الآلية وروحية الشرق الأقصى وفناء الهنود في ماوراء المادة ، ولا سبيل الى النجاة الا بالنهج السوي نهج الاسلام

فيا شباب المسلمين تجردوا لأداء الواجب ، وإسماع العالم صوت الاسلام .

إن هذا الدور الذي تجتازه اليوم أمم الشرق الإسلامي ، يشبه دور البعث [1] « الرونِسانس » في أوربا ، وعلى الشباب أكبر الوجائب في هذا الدور .

على الشباب واجب علمي هو أن يبعثوا المكتبة العربية القديمة بحلل جديدة ، وأساليب مستحدثة .

إن في هذه الكتب الصفراء علماً جماً ولكنه مطمور تحت أنقاض الأسلوب الماضي . في كتب الفقه مثلاً مايستنبط منه القانون الأساسي

---

(١) انا أول من استعمل كلمة (البعث) ، ولقد أنشأت من نحو ثلاثين سنة مجلة اسمها (البعث) صدر منها خمسة اعداد .

والقانون الجزائي ، والقانون المـدني ، والقانون الأداري ، وقانون أصول المحاكمات ، ولكن هذه الكتب موضوعة على طريقة لأنسيغها اليوم ، ولا نألفها ولا تصلح لنا ولا نصلح لها ، وإن كانت تصلـح كل الصلاح في عهد من ألفوها ، فيجب على الشباب ان ينقطع منهم فئة الى دراسة هذه الكتب وتفهمها ، ومعرفة مافيها ، واستخلاص موادّهـا العلمية ، وعرضها بشكل جديد .

إن الأساليب (ياسادتي) أزياء ، وقد تبـدل الزي اليوم ، فليأخذ الخياط الماهر هذا الثوب القديم ، وليصنع من قماشه ثوباً جديداً ، على ألاّ يضيع منه خيطاً واحداً .

إن من العار أيها السـادة أن ترقى أساليب التأليف في كل العلوم ونبقى نحن ، في علومنا ، على ماكنا عليه .

إن الذين كتبوا هذه الشروح وهذه الحواشي وهذه التقارير عظماء أجلاء ، لأنهم أنتجوا شيئا وعرضوه على أحسن شكل يألفه عصرهم ، وليس عليهم ذنب ، ولكن الذنب علينا ، نحن الذين لا يؤلفون ، ولا يشتغلون ، ولا ينتجون ، وإنما يعيشون عالة على أجدادهم كهذا النبات الطفيلي الضعيف الذي يتمسك بأقدام النخلة الباسقة .

★ ★ ★

وإن على الشباب واجباً اجتماعياً هو أن يدرسوا الإسلام ، ويكشفوا عن رأيه في هذه المعضلة الاجتماعية .

إن العالم سيضيع بين الاشتراكيين والماليين الفرديين ، ولا طريق الى النجاة إلا الطريق الأوسط الذي يهبط عن خيالات الشيوعيين وأحلامهم

التي لاتتحقق أبداً ، ويترفع عن أفق الماليين الذين يستعبدون الناس بأموالهم ، ويسخرون المجموع لمصلحة الفرد .

وإني على يقين أن للإسلام القول الفصل في هذا الباب ، ولكن أحداً من العلماء لم يكلف نفسه عناء البحث عن رأي الاسلام الاجتماعي (١) .

وإن على الشباب المسلمين واجباً اخلاقياً ، هو انقاذ العالم المتردّي في مهاوي الرذيلة التائه في مهامه في الظلام .

ارفعوا منار الاسلام ، وانشروا مكارم الأخلاق التي بُعث نبيكم صلى الله عليه وسلم لإتمامها .

أليس من العجيب يا سادتي أن يُسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المؤمن : هلْ يَسرق ؟ فيجيب باحتمال ذلك ، وإن كان نادراً ، فإذا سئل : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . أليس من العجيب أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم الكذب ثلث النفاق ، وإخلاف الوعد الثلث الثاني ، ثم يكون في المسلمين اليوم من يكذب ويخلف المواعيد .؟

أليس عجيباً أن يأخذ الإفرنج غير المسلمين أخلاقنا ، فتكون لهم عادة وطبعاً ، ويضيع المسلمون أخلاقهم ؟

أليس عجيباً أن يقول الله في كتابه : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، ثم يكون في المؤمنين من هو ذليل في نفسه . مضيع لكرامته ؟

فيا شباب المسلمين تخلّقوا بأخلاق الاسلام وانشروها بين النـاس وانقذوا بها العالم .

★ ★ ★

أتحبون بعد هذا أن ألخص لكم المثل الأعلى للشابّ المسلم ؟

بسم الله الرحمن الرحيم :

والعصر ، (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) بالله وعلموا أنه

---

(١) كان ذلك يوم ألقيت المحاضرة من نحو ربع قرن ، وقد ظهرت اليوم بحوث وكتب جزى الله مؤلّفيها خيراً ، ونفع بها .

الأول والآخر ، وأنه المريد القادر ، وأيقنوا أن كل شيء بإرادته ، لا شريك له في ملكه ، ولا شفيع عنده إلا باذنه ولا يعلم الغيب إلا هو ، فلم يغفلوا عنه ، ولم يعبدوا غيره ، ولم يقدّسوا سواه ، ولم ينتظروا النفع والضر إلا منه ، وعلموا أن له جنداً لا نراهم وملائكة وجنّاً ، وعوالم لا نبصرها ، وآخرة وجنّة وناراً ، وسموات وعرشاً ... وأنه بعث أنبياء وأنزل كتباً (وعملوا الصالحات) فأدّوا حق الله عليهم من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وتقربوا إليه بالنوافل والأعمال الحسنة ، وأدوا حق الناس فلم يتعدوا على أحد في ماله ولا عرضه ولا جسمه ، وأدوا حق أهليهم ووالديهم ومن له فضل عليهم ، وأدوا حق الأمة بالسعي في نجاحها وتقوية روابطها ، وضمان مصالحها ، والعمل على كل ما يرفع شأنها ، ويعلي مقامها بين الأمم من علم أو صناعة أو زراعة ، أو وعظ وإرشاد ، أو تعليم وتهذيب .

(وتواصوا بالحق) أوصوا به نفوسهم ، ووصوا به غيرهم ، وتحروه في أمورهم ، فكان الحق إمامهم ، ودليلهم ، ورفيقهم ، وقائدهم ، ولم يكونوا من أنصار الباطل أبداً ، فلا يقبلون من المبادىء والعلوم والفنون إلا ما هو حق لا باطل فيه .

(وتواصوا بالصبر) على أداء الواجب وعلى التواصي بالحق ، واجتناب الباطل والابتعاد عن الرذائل مع منازعة النفس إليها ، وإقبالها عليها .

هذا هو المثل الأعلى للشابّ المسلم : إيمان كامل لا شرك فيه ، وتصديق بكل ما جاء من عند الله ، وعبادات منزهة عن البدعة ، وعمل صالح ينفع الفرد والمجموع ، ودعوة إلى الحق وتمسك به ، وصبر على تحقيق هذا المنهج ، وأداء هذه الواجبات .



الحقيقة الكبرى

كتبت سنة ١٩٤٣

انتهيت الآن من قراءة (حياة دزرائيلي) الذي ألفه (أندره موروا) وترجمه (حسن محمود) ، والذي أشهد أني وجدت فيه مواقف تركت في نفسي أبلغ الأثر ، وهاجت عاطفتي أكثر مما تهيجها أقوى القصص ؛ وشعرت لما فرغت منه كأني كنت في عالم مسحور ، فيه متاع للعقل ولذة للروح ، فخرجت منه ...

... وجلست أفكر :



فكرت في هذا الرجل الذي جامل وناضل ، وسالم وقاوم ، وعرف الهزيمة والظفر ، ولمس الحب والبغض ، وفرت منه الشهرة وهرب السلطان يوم كان يركض وراءهما بساقين من طموح الشباب وعنفوانه ؛ ثم طاعت له الوزارة حين فترت همته عن طلبها ، وونى جسمه عن حملها ، وصار مثابة للأمراض ، ومأوى للعلل ... لقد بلغ القمّة ودنت له الأماني ، بعد أن أوسعته نأياً وهرباً ، فهل سعد بالرياسة مثلما كان يخيّل إليه من قبل شبابه المحروم ؟

أو لم يكن له مثل هذه السعادة لو أنه خلق رجلاً داني المطامع قليل المطالب ، كل ما يؤمل فيه أن يكون أديباً ناجحاً ، أو طبيباً بارعاً أو محامياً موفقاً ؟

أو لم يكن أبوه (إسحاق) أسعد منه إذ حصر مطامعه كلها في القراءة

ومصاحبة الكتب وتدوين المذكرات ؟

لقد بلغ مالم يبلغه أبوه إسحاق ، فعرف لذة الصعود إلى الوزارة مراراً ، ولكنه عرف كذلك آلام النزول ، وإنها لأشد وأقوى .

إنّ حزناً في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلاد

وهَبْه لم ينزل قط ، وهَبْه عاش حياته كلها العَلَم اللواح ، والبطل الأشهر ، ترتج البلاد لحله وارتحاله ، وتمتثل طائعة لإشارته أو مقاله ، لا تهتف الألسنة إلا له ، والأكف لا تصفق لغيره ، والأنظار لا تعلق إلا به ، فما جدوى ذلك ؟

صار كل شيء بعد أن لم يكن شيئاً ، وبلغ غاية المجد السياسي ؛ وكان موته مأتم الوطن ؛ وخلد اسمه على كل شفة ولسان ؛ فماذا بقي له من ذلك كله ؟

ما الشهرة ، ما المجد ، ما خلود الاسم ؟

أهي حقائق تستحق القتال عليها والسعي لها ، أم هي ضلالات وأوهام ؟

★ ★ ★

أما أنا فأحلف أني لم أرَ ذلك كله إلا سراباً خادعا !

وقد أبصرت السراب مئة مرة في بادية الشام وصحارى الحجاز ، فلم أجده يختلف مرآه من بعيد عن مرأى غدير ماء ، فإذا جئناه لم نجد شيئاً ...

ووجدت ما تزاحم الناس عليه من متع هذه الدنيا مثل السراب تظن من بعيد لذة ، فمن قاربها ووصل إليها لم يُلفِ فيها المتعة التي كان يتصورها !

الفقير يتمنى مثل طعام الغني ، ويألم لفقده ، ويقدر لذته تقديراً لو جعلناه رقماً لكان (مئة) ، ولكن الغني الذي يأكله كل يوم لا يلقى من هذه المئة (واحدا) ، وربما تشهّى أكلة من أكلات الفقير وفضلها عليه .

والمريض يتصور النعم كلها في الصحة ، ويحسب أنه يتذوق من لذتها إذا عاودته مثل ألمه لزوالها ، فإذا رجعت إليه صحته رآها شيئاً عاديا . وكذلك السجين ونعمة الحرية ، والأعمى والنظر ...

والحياة الدنيا كلها ، ماذا يبقى منها إن رفع الايمان ؟ ألعاب أطفال ، أحزانها تنسى ، وأفراحها تفقد ، وكل شيء فيها إلى زوال . لذائذ الطعام كله تقف عند الشبع ، ومسرات الوصال الجنسي لها حد .

قال سليمان بن عبد الملك ، أو غيره ، فما أحقق القائل الآن : « لقد أكلت الطعام حتى ما أبالي أأكلت حلواً أم حامضاً ، وأتيت النساء حتى ما أبالي ، أأتيت امرأة أم جداراً ، ولم يبق لي من اللذات إلا الحديث الحسن » .

يريد أنها بقيت له اللذات الروحية لأنها أوسع وأكبر ، ولكنها هي الأخرى إلى زوال . إني لأعرف من ارتقى سلّم السياسة ، فكان كلما صعد درجة نظر إلى فوق ، فشغلته لذة التأميل حتى يتحقق أمله ويعلو درجة ... ثم بلغ أعلاه ، ولم يبق له (فوق) ينظر إليه ، ولا أعلى يؤمل فيه ، فوقف قانعا ، فكأنما لم يصعد سلمًا قط ، إلا أن يكون كعمر ابن عبد العزيز العامر القلب بالايمان حين قال : « إن لي نفساً توّاقة ، ما أعطِيَتْ شيئاً إلا تاقت لما هو أعلى : تشهّت الإمارة فأعطِيَتها ، فاشتهت الخلافة فبلغتها ، فتاقت إلى الجنة » ، فزهدت في هذه الحياة الفانية وعرفت أنها لا تدوم . أي فرق بينه وبين دزرائيلي الذي بلغ الذروة فأقبل يشكو الوحدة النفسية والمرض ، وضياع الأمل بعد أن لم يبق له ما يؤمل فيه ، وفقد الحب بعد موت (ماري آن) زوجته ، وشقي

بالسلطة شيخاً كما شقي بطلبها شابا ؟! إن عمر لم يَشْكُ شيئاً ولم يكن ليشكوه ولو فقد كل شيء ، لأنه يعمل لله ، وعند الله العوض من كل مفقود .

اعلمو أيها الناس أن كلّ ما تتزاحمون عليه سراب ، أمور تألمون لفقدها ولكن لا تلتذون بوجودها ؛ تَحنّون إلى الماضي لأنكم خسرتموه ولم تكونوا تسرّون به يوم كان حاضراً ، وتأسون على من مات لكم أضعاف فرحكم به وهو حيّ .

وما الحياة ؟ من يقدر على مقابلتها خالياً من توافه الشواغل ؟

من يستطيع الخلوة بنفسه ومواجهة الزمان ؟

من ذا الذي يقوى على احتمال ساعات الانتظار بلا ضيق ؟
من ينفرد بنفسه الأيام الطوال يأنس بها ويناجيها ؟

إنكم تقطعون أعماركم بحديث تافه ، أو كتاب سخيف ، أو عمل لاقيمة له ، لتنجوا من حمل أعباء الحياة المجردة . فلماذا ؟

لماذا ؟
لأن لهذه الحياة غاية . فإذا لم تفهم غايتها صارت عذاباً لناقبل عذاب الآخرة . وما غايتها إلا الاتصال بالله ومعرفته والاستعداد للحياة الثانية. قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

★ ★ ★

هذه هي (الحقيقة الكبرى) ، وهي أقرب الحقائق إلينا ، ولكنا لم نفكر فيها ، فصارت أبعدها عنا .

إننا نشتغل عنها بالترّهات والأباطيل ، فإذا طوّحت بأحدنا الأسفار

إلى بلد ناء فعاش فيه غريباً لا تربطه بما حوله رابطة من ذكرى ، قد تنكرت له الوجوه والمعالم ، فانطوى مضطراً على نفسه يفكّر ؛ أو حطّ عليه مرض ضل فيه سعي الأطباء ؛ أو نزلت على كاهله مصيبة لم تنفع معها حيلة ، تنبّه وانقشعت الغشاوة عن عينيه ، وتبلجت له الحقيقة ، فساءل نفسه : ما هي غاية الحياة ، لماذا خلقنا ، وما أنا في هذا الكون ؟

هنالك يدرك أنه في هذا الكون كذرّة في مهبّ الريح ، ولكنها ذرة مغرورة حمقاء ، تظن أن في وسعها تحويل الرياح التي تحملها عن وجهتها ، ويرى أن عقله الذي حسب أنه يسيّر به الدنيا ، ويحيط بكلّ شيء ، ويتطاول من غروره حتى يسأل عن ذات الله ذي الجلال ، هذا العقل لم يعرف كُنْهَ نفسه ، وليس هو الذي أبدعها ، ولم يدرك بعدُ الأقلّ من المخلوقات حتى يظن أنه سيدرك حقيقة الخالق ، وهو خاضع لقوانين وضعها من بَرَأَهُ من العدم ، وقال له كن (بعد أن لم يكن) فكان !!

هنالك يشعر أن السفينة سائرة من الأزل على طريقها المرسوم ، لايمكن تحويلها يمنة ولا يسرة ، وليس هو ربّانها ، ولا رأيَ له في مسيرها ، وأنه كان محصورا في غرفة منها قد شغله مافيها من الهنات فصعد على سطحها ورأى الدنيا من حولها ، والبحر المحيط بها .

وكذلك نحس أحيانا بالسمو والتخلص من قيود الحياة اليومية ، وتنفتح ابصارنا على هذه الحقيقة التي نسمعها ، ونحن غافلون فنحسبها لغفلتنا أوهاما .

* * *

ليس الموت فناء ولكنه نَقْلَة إلى عالم أوسع وحياة أطول ، كنقلة الجنين بالولادة الى هذه الدنيا . وإن بعد الموت لحياة فيها سعادة وفيها

شقاء، ولها أفراح ولها مآس . والمجنون من يشك في الحياة الاخرى أو يماري فيها ، أو يقول : إنما هي حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

وإن حياتنا هذه لاتقوم على الأسس التي أسسها العقل ، ولا على القواعد التي وضعها الدين .

إن فيها لظلما وعدواناً وخروجاً عن سنن الفضيلة : الكذب فيها منجاة ، والنفاق مفازة ؛ يعاقب فيها البريء ويسلم المجرم . فإذا سلمنا بأن الله عادل ، ولا يكون الإله إلاعادلا (والعادل لايقر في ملكه الظلم) لم يكن بد من حياة أخرى ، يحق فيها الحق ويدفع فيها الظلم . وإذا قدسنا العقل والفضيلة ، امتنع علينا القول بأنه ليس إلا هذه الحياة التي يكفر فيها بالعقل ، وتنتهك الفضلية ؛ ومن قال بذلك كان مجنوناً ورذيلا : إذ مابعد العقل إلا الجنون ، وما بعد الفضيلة إلا ضدها .

ولماذا ينكر الآخرة منكروها ؟ ألأنهم ما شعروا بها ولا عرفوها ، ولم يروا إلا هذه الحياة التي تنتهي بالموت ؟ إذن يحق للمرء ان ينكر طفولته واستجنانه في بطن امه ، لأنه لم يدرك ذلك بعقله !

إن عقله ولد بعده بعشر سنين ، فكيف يسلّم بأنه كان قبل أن يحس بنفسه ويعرفها ، وينكر أنه كائن بعد أن ينقطع هذا الحس ؟

هذا إذا كان الحس ينقطع بالموت ..

ألا إنما هذه الدنيا فترة من حياتنا الطويلة التي تمتد من وجودنا في أصلاب الآباء الى مابعد يوم الجزاء .

وكيف كانت الحياة لتحتمل من غير البوارق الروحية ؟ كيف كنا نصبر عليها لولا الأمل ، لولا الصداقة ، لولا الحب ؟

هذه هي نعم الحياة ، ولكنها تنفد وتقف اذا بلغت حدها ؛ وليس في الدنيا إلا متعة واحدة ليس لها حد تقف عنده ، هي نعمة الإيمان .

ولن تبقى حضارة تعنى بالمادة وحدها وتنسى الروح ، ولن تثمر للناس سعادة انما السعيد في هذه الدنيا هو المؤمن ، الذي عرف حقيقة الدنيا فلم يعطها من نفسه أكثر مما تستحق ، وأدرك غايتها فسعى لها سعيها ، فراقب الله ، وجرى على ماشرع له على ألسنة أنبيائه ، فعاش صحيح الجسم ، سعيداً في بيته ، هانئاً في نفسه ، مخلصاً لأمته ، عاملا لدنياه (من غير ان يرتكب محرماً) كأنه يعيش أبداً ، عاملا لآخرته كأنه يموت غداً ، عالماً أن العبادة ليست في المسجد وحده ، بل الأرض كلهامسجد ، والأعمال النافعة كلها عبادة . ليس في ديننا الفرار من الحياة واعتزالها في بقعة من الأرض حولها جُدُرٌ عالية وأسوار ؛ وليس منا قوم لبسوا الصوف وأظهروا شارة الزهد ليأكلوا الدنيا بالدين ، ولكنْ ماعرفنا عليه أسلافنا الأولين الذين زهدوا في الدنيا حقاً ، وأهونوا أمرها ، وحقّروها ، وهم سادتها وأساتذتها وفاتحوها .



لقد خرجت من قراءة هذا الكتاب ، وأنا أزهد مايكون إنسان بالشهرة والمجد ، وأفهم ما يكون لغاية الحياة وحقيقتها ، وأنها إن لم تكن مزرعة للآخرة لم تكن شيئا ، وأن مسراتها أوهام ، ومتعها سراب وكل مافيها إلى زوال ، إلا ماكان لله فهو الباقي .



صلاة ركعتين

أكثرنا لا يصلّي ، وانما يقوم ويقعد ، ويركع ويسجد ، وان العامل الذي يذهب ليقابل رئيس الشركة ، والمعلم الذي يمضي ليدخل على وزير المعارف ، وكل من يكون منا على موعد من رئيس أو أمير أو ملك يستعد لهذه المقابلة بزيّه وثيابه ويهتم بها بفكره وقلبه ، أكثر مما يستعد للصلاة ويهتم بها .

وهذه حقيقة لانستطيع أن تنكرها (مع الأسف) ، مع أن المصلّي إنما يدخل على الله ، ملك الملوك ، ومن كل خيرعنده ، وكل أمر بيده ، ومن إن أعطى لم يمنع عطاءه أحد ، وإن حرم لم يعط بعده أحد .

وإذا كان من يدخل علىالملك المطلق ، لايفكر في سؤال حاجته وزيراً أو عاملا ، بل يسأل الملك الذي يأمر الوزير والعامل ، فكيف نقوم بين يدي الله ، وعقولنا متعلقة بغيره ، وأفكارنا مشتغلة بسواه ؛ نرجو النفع من البشر ، ونخاف منهم الضرر ، ولا يخطر على بالنا أن نتوجه إلى الله الذي نقوم بين يديه ، نطلب منه هذا الذي ينفعنا ونسأله دفع ما يضرنا ؟

ونحن نتلو بألسنتنا ، مالا تصغو اليه قلوبنا ، ولا تعيه عقولنا ، فلا تكون صلاتنا إلارياضةللأعضاء ، وتحريكاً لِلسّان ، معأنهذهالرياضة كالجسد من الصلاة ، والخشوع هو الروح ، فكيف تصعد صلاتنا إلى الله وهي جسد بلا روح ؟ وهل تطير جثة لاحياة فيها ؟

وأنا لا أصف لكمالصلاة الكاملة ، التيكانت قرّة عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ويكون لها الأثر الدائم في سلوك صاحبها ، وفي أخلاقه وطباعه ، الصـلاة التي

يحسُّ صاحبها القوة بالله فلا يخشى في الحق أحدا ، ويستشعر الضعف امام الله فلا يحاول التعدي على أحد .

لا ولكن أصف لكم أدنى درجات الخشوع في الصلاة ، وهي أن يفكّر المصلّي في معاني ما يتلو ، وأن يتدبر بقلبه ما يتحرك به لسانه .

فإذا سمع المؤذّن يدعوه الى هذه (المقابلة) ، استعد للوقوف أمام الله فطهّر جسده وثوبه ومكانه ، وذكر أن الله لاتخفى عليه خافية ، وأنه يعلم السر وأخفى ، وأنه لاينظر الى الصور وحدها ، ولكن الى النيّات والسرائر ، فلم يكتف بتطهير ظاهره من الأنجاس المادية ، حتى يطهر قلبه من الأرجاس المعنوية : من الشرك والرياء والطمع والحسد ، وهاتيك الأوضار كلها .

ثم يستقبل القبلة ، فيتصور الكعبة أمامه ، لايستقبلها على أنها صنم يعبد ، أو على أنها تنفع أو تضر ، بل لأنها هدف جامع ، ينظم المسلمين في أرجاء الأرض ، في دوائر تقترب وتبتعد ، لاتمنعها الجبال ولا الصحارى ولا البحار ، من أن تلتئم وتستدير حول هذا الهدف ثم تتراص بنظام وإحكام ، كجيش مستعد لبذل الروح والمال إرضاء لله وإعلاء لكلمة الله واقراراً للعدل والخير والفضيلة في هذه الأرض .

ويحاول ان يحضر نفسه بواعث الخشوع ، فيتصور أن قد انقضت هذه الحياة ، وهي حتما الى انقضاء ، وأن قد جاء يوم الحساب ، وهو قادم لا محالة ، فيبصر الصراط أمامه ، والجنة عن يمينه تدعوه بنعيمها المقيم ، والنار عن شماله تلوح له بعذابها الدائم .

ثم يفكر في عظمة الله ، فتهون حيالها الدنيا والآخرة ، والجنة والنار لأنه أكبر منها ، ومن كل مايخطر على العقل البشري من كائنات ، هو أوجدها من العدم بكلمة ، وهو قادر على أن يذهب بها بكلمة ، ويرفع يديه حيال أذنيه كأنه يطرد بهما شواغل الدنيا عن ذهنه ، ويقول من أعماق قلبه : (الله أكبر) .

وبذلك يكون قد وقف أمام الله .

ولو تُرِكَ البشر لعقولهم ، لما استطاعوا أن يحصوا الثناء على الله ، فكان من نعم الله على المسلم أن علّمه كيف يرفع التحية الى ربه في مطلع صلاته ، وكيف يثني عليه .

فهويقول (سبحانك اللهم وبحمدك) ومعنى التسبيح التنزيه ، تنزيهه تعالى عن كل ما يمرُّ في فكرك من الصفات البشريّة المادية (كل ماخطر على بالك ، فالله بخلاف ذلك) .

أو يبدأ ان شاء بالتوجّه إلى الله « وجّهت وجهي » .

لمن ؟ لبشر أو لحجر ؟ لا ، بل « لله الذي فطر السموات والأرض » وكل مافيها من خلائق .

فاذا استوفى التحية يطلب حمايته أولا من عدو البشر الألد ، الذي يتربص به ، يزيّن له الشر ويحبّب اليه المعصية ، ويفضل له هذه الدنيا الزائلة ، ولذاتها الذاهبة ، على الآخرة الدائمة ، ونعيمها المقيم ، ويسأله أن يعيذه منه ، حين يقول « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

ثم يعلن الابتداء باسم ربه « بسم الله الرحمن الرحيم » لا باسم جلالة الملكة ، كما يقول الانكليز ، ولا باسم الشعب ، كما تقول نحن ، ولا باسم صنم ولا وثن ، ولا باسم رابطة قومية أو حزبية أو رابطة منفعة أو مال ، بل بما هو أعلى من ذلك كله وأعظم وأسمى .

بما تمّحي أمامه فروق اللون والجنس واللسان ، وما تسكت أمامه أصوات الشهوة والسيطرة والجاه والغنى ، وما يعود البشر أمامه عبيداً سامعين مطيعين ، متجردين للفضائل والخيرات : باسم الله .

ثم يقرأ الفاتحة ، ولكل كتاب بشري فاتحة : مقدمة تجمل مقاصده ، وتوضح مطالبه ؛ وهذه مقدمة الكتاب الإلهي الباقي ، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي نزّله الله وتعهّد بحفظه .

« الحمد لله » الحمد لله على نعمه التي لاتحصى : نعمة الحياة ، نعمة الصحة ، نعمة الأمن ، نعمة السمع والبصر ، نعمة الأهل والولد ٠

إن الإنسان لايعرف قيمة النعم إلا عند فقدها ؛ إن سدّ أنفك الزكام عرفت قيمة الشم ، وان أغلق عينك الرمد عرفت قيمة البصر ، وان دهمك الخوف عرفت قيمة الأمن ، وإن لويت قدمك فلم تقدر أن تمشي ، عرفت قيمة الرجل ٠ فتصوروا هذه النعم حتى تقولون « الحمد لله » ٠

« رب العالمين » ٠

هل تعرفون معنى الرب ؟

ليس معناها الحاكم ولا الملك ولا الإله ، الرب فيها معنى العناية والتربية ، والحفظ والإنماء ، الرب المربي ، والعالمون جمع عالم ، فعالم الارض ، وعالم النجوم ، وعالم السماء ، وعالم الجن ، وعالم الشياطين، وعالم الملائكة ، والعوالم كلها هو حافظها وموجدها ومربيها ٠

فتصوروا هذه المعاني كلها ، حينما تقرؤون هذه الكلمات الأربع « الحمد لله رب العالمين » ٠

« الرحمن الرحيم » وصف نفسه بالرحمة ، وكررها لتكرر رحمته ولم يقل الجبار المنتقم ، ولا القوي العزيز ، ولكن « الرحمن الرحيم » ٠

أشعرنا رحمته ، التي وسعت كل شيء ٠ أترون رحمة الأم بوحيدها الذي ترضعه على صدرها ؟ إن الله أرحم بعباده منها بولدها ، ان الأم اذا أساء اليها ولدها ، أو خالفها ، أو استعمل مالها في معصيتها ، هجرته وحجزت المال عنه ؛ والكافر يستعمل لسانه الذي أعطاه الله اياه في الكفر بالله ، والله يرحمه ويرزقه ويحسن اليه ٠ والفاجر يستعمل ماله الذي أعطاه الله إيّاه في معصية الله ، والله يرحمه ويرزقه ويحسن اليه ، وان الله أنزل في الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الناس،وتعطف الأم على ولدها ،

والأخ على أخته ، والرجل على امرأته ، وأبقى تسعاً وتسعين ليوم القيامة، ورحمة الله هذه ، من أولى النعم التي تستحق الحمد .

بعد أن يقول العبد في الصلاة « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » ويستشعر رحمة الله يقول « مالك يوم الدين » فيستشعر عظمته ، ليعلم أن الله رحيم فلا ييأس من رحمته ، وأنه جبار فلا يأمن بطشه .

ويوم الدين هو يوم القيامة ، يوم يقف الناس جميعاً ، من قتل في الحرب ، ومن مات على فراشه ، والذي أكله السبع ، والذي غرق في البحر ، والذي احترق وصار جسده فحما ، يجمعهم الله جميعاً ، الاولين والآخرين ، فيقف الملك بجنب الصعلوك ، والغني بجنب الفقير ، وتسقط الفوارق ولا يبقى من فرق الا بالعمل الصالح ، هنالك ينادي المنادي : « لمن الملك اليوم » ؟

للسلاطين ؟ للجبارين ؟ للأغنياء ؟

لا . بل « لله الواحد القهار » .

ذلك هو رب العالمين ، ومالك يوم الدين .

« إياك نعبد وإياك نستعين » أي لا نعبد إلا اياك ، ولا نستعين الا بك .

والعبادة هي كل مافيه اقرار بالربوبية للمعبود ، فالصلاة عبادة ، والسجود عبادة ، والدعاء عبادة ، والطواف بالقبور بنيّة التعظيم وقياساً على طواف الكعبة عبادة . والاستعانة هنا هي الاستعانة بما هو وراء الاسباب، فلا تمنع الاستعانة بالطبيب على وصف الدواء ، ولا الاستعانة بالمحامي على حسن الدفاع ، ولا الاستعانة بأرباب الصناعات ، بل الاستعانة الممنوعة الا بالله وحده ، هي طلب ماوراء الاسباب . كمن يطلب من غير الله أن يشفي مريضه بلا علاج ، أو يرجع فقيده بلا بحث ، أو يطلق سجينه بلا شفاعة ، أو يفرج كربه بغير سبب مادّي .

بعد أن حمدت الله على نعمه ، وعرفت بأنه رب العالمين ، وأنه أرحم الراحمين وأنه هو مالك يوم الدين ، وبعد أن نزهته عن الشريك (الشرك الظاهر والشرك الخفي) وخصصته وحده بالعبادة ، فان الله يعلمك ، كيف تطلب منه ما ينفعك . وقد أجمل لك الخير كله في كلمة واحدة : الصراط المستقيم .

« إهدنا الصراط المستقيم » أي دلنا على الطريق الموصل الى كل خير في الدنيا وفي الآخرة . « صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » .

المغضوب عليهم عرفوا الحق ، ولم يتبعوه ، ومنهم اليهود .

والضالون لم يعرفوه ولم يتبعوه ، ومنهم النصارى .

والذين أنعم الله عليهم عرفوه واتبعوه ، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون .

(آمين) أي اللهم استجب لنا ، وتقبل دعاءنا .

ثم يقرأ السورة متدبراً معناها ، مفكراً فيها . ولنختر لك سورة من أقصر سور القرآن « الماعون » .

في هذه السورة بيان ثلاثة أصناف من الناس .

الصنف الاول : الذين يؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهؤلاء يتصفون أبداً بالكمالات الانسانية ، ويجمعون أطراف الخلق الكريم .

الصنف الثاني : الذين يؤمنون ولكن لا يعملون بما يؤمنون به ، ولا يحافظون عليه ، فهم ينسون الصلاة ، ويمتنعون عن القيام بأيسر أعمال الخير ، وهو إعارة ماعون للجار .

الصنف الثالث : المكذبون بالدين ، الذين فقدوا مزايا الانسانية ، حتى انهم ليقسون على اليتيم ، ولا يبالون بالعطف على المسكين .

« أرأيت الذي يكذب بالدين »[1] . الخطاب من الله الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم يقول له : ألا تعجب من هذا الذي يكذب الحقائق الظاهرة ، وينكر بلسانه ما يصدق به قلبه ، ويؤمن به عقله ، وهل في الحقائق كلها ما هو أثبت من وجود الله ؟ وهل في طرق الخير ما هو أقرب وأظهر ، من هذا الدين ؟

« فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم » أي يقسو عليه ، ولا يرحم ضعفه . وتلك هي نتيجة للتكذيب بالدين ، وملازمة لها ، « ولا يحضُّ على طعام المسكين » ، ولا يرغب فيه ، ولا يفكر في آلام غيره ، ما يهمه في الحياة الا نفسه . وهذا هو النموذج للصنف الثالث .

اما الصنف الاول ، فيفهم من هذه الآيات ، فكما أن المكذب بالدين، يدعُّ اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فالمصدق بالدين ، يرحم الأيتام ، ويهتم باطعام المساكين ، ويكون عاملاً على كل ما فيه الخير للناس .

والقسم الثاني ، ضرب الله مثلا عليه ، المصلين الذين يسهون عن صلاتهم . تهاوناً بها واشتغالا عنها . « فويل » والويل كلمة عذاب « للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » « الذين هم يراؤون » ان صلوا بصلاتهم ، لا يقصدون بها وجه الله ، « ويمنعون الماعون » لأن من صفاتهم أنهم لا يقدمون لأحد خيراً مهما قل . فمن غفل عن صلاته ثم تاب وأدّاها مخلصاً لا مرائيا ، وكان ممن يحب الخير ، لم يكن من هذا الصنف .

* * *

ثم يقول : (الله اكبر) ويركع ، يحني رأسه ليجمع بين الخشوع

---

(١) ماجاء في هذه المقالة من وجوه التفسير ، هو ما فهمته من التلاوة ، ولم انقله عن أحد ، فان وافق المراد فالحمد لله ، وإلا فإني ارجع عنه واستغفر الله .

المادي والمعنوي ، خشوع الجوارح وخشوع القلب .

وقد جعلت (الله اكبر) شعار الصلاة ، يردّدها المصلي عند كل حركة ، لتكون سلاحاً بيدك ، فكلما وسوس اليك الشيطان ، وقال لك : عجّل في صلاتك فان فلاناً ينتظرك وهو كبير في الناس ، قلت : أسكت واخنس ، فاني بين يدي الله و (الله أكبر) .

وان شغل فكرك بتجارة او ربح ، أو لذة أو متعة ، أو رغبة أو رهبة قلت : (الله أكبر) .

وتسبح الله ربك العظيم . ممتلئا قلبك بتنزيهه والتفكير في عظمته ، وتخرج من جسدك ، ومن مطامع دنياك ، ويكون الشرع هو الذي يتكلم على لسانك ، يقول لك مبشراً : (سمع الله لمن حمده) . فتقول أنت مستبشرا فرحاً : (ربنا لك الحمد) .

ثم يكون سجودك ، تعبيراً آخر أقوى وأظهر ، على خضوعك واستسلامك تضع جبينك خضوعا لله على الارض ، فتقول : « سبحان ربي الاعلى » ، فيجمع الله لك لذة العبودية بهذا الخضوع ، ولذة العزة بهذا التسبيح ، وتذوق حلاوة الايمان .

ولذلك جاء : (ان العبد يكون أقرب ما يكون الى الله وهو ساجد)



ثم تعود ، فتقرأ الفاتحة ، وسورة أخرى . ولنأخذ سورة قصيرة من ثلاث جمل صغار ، ولكنها تصلح أن تكون دستوراً للفرد وللجماعة ، لم تترك باباً من أبواب الخير الا فتحته ، ولا خلّة من خلال صلاح الفرد والجماعة الا تعرضت لها . حتى أن من العلماء من قال (وأظن أن القائل هو الشافعي) لو لم ينزل الله من القرآن إلا هذه السورة لكفت الناس

ومن معجزات القرآن ، أنه جمع تلك المعاني كلها في آيات ثلاث صغار • هي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والعصر ، ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوابالحق وتواصوابالصبر» •

وأنا لاأسرد أقوال الناس في العصر هل هو الدهر ، أو هو وقت العصر ، أو هو صلاة العصر ، لأن الله كشف لي معنى آخر ، هو ان العصر ، الزمان • وكل إنسان يخسر بفعل الزمان •

يخسر عمره ، إذ لو كان مقدراً له أن يعيش سبعين سنة ، فانه يخسر سنة منها كلما عاش سنة ، ويخسر شبابه ، ويخسر قوته ، ثم ينتهي بمرور الزمان الى الموت ، فيخسر كل شيء ، حتى الحياة ، ولا يبقى له الا الايمان والعمل الصالح •

فالإيمان ، كما أفهم يتعلق بصحة (المذهب) والعمل الصالح يتعلق بالتطبيق ، والمعنى أن على الانسان الذي يريد اجتناب الخسارة ، ان يبني مذهبه في الحياة على معرفة الحق من الباطل ، ويؤمن بالحق وحده، فيكون صحيح النظر والفكر ، وأن يطبق الحق الذي عرفه وآمن به على حياته •

وهذا دستور شامل لحياة الفرد العقلية والعملية ، ومن عرف الحق وعمل به فقد بلغ أعلى درجات الكمال •

وفي الآية التالية دستور لحياة الجماعة ، فلا يكفي أن يعرف الفرد الحق في نفسه ، بل ينبغي أن يوصي غيره به ، ويدله عليه ، ولا يكفي أن يعمل به وحده بل لابد من التواصي على العمل الجماعي ، والصبر على مشاق هذا العمل •

وهنا تعليقات ثلاث لابد منها :

الأولى : أن القَسَمَ من الناس لايكون إلا بالله ، لايجوز لهم الحلف بغير الله أصلاً ، لأن هذا الحلف يدل على التعظيم المطلق والعبادة ، أما

قَسَمَ الله في القرآن بأشياء مخلوقة : والعصر . والضحى . والليل . والسماء . فهو للدلالة على مزايا فيها ولفت الأنظار اليها .

الثانية : أن أولى الحقائق التي ينبغي أن يؤمن بها الانسان لينجو في الآخرة هي وجود الله ، وأن له وحده الخلق وله الأمر وهو المخصوص بالعبادة ، ثم التصديق برسالة محمد والعمل بها .

الثالثة : أن الصبر على أنواع :

منها الصبر على المصيبة ، والدنيا مملوءة بالمصائب ولا ينجو أحد من نكبة في صحة أو مال أو موت أو فقد قريب ، ولا عزاء عنهـا إلا بالتواصي بالصبر ، وذكر ثواب الله للمصلين ، ولعله إذا اطّلع على ما أعدّ الله له فرح بالمصيبة ، كمن يذهب ماله أو يخرب بيته في زلزال أو حريق . اذاعوضته الحكومةثمنه أضعافا فرح بذهاب المال وخراب الدار .

والصبر على ألم الطاعة ، فمن ترك فراشه الدافيء وقام الى صلاة الصبح في ليالي الشتاء يتألم ، ومن حمل الجوع والعطش في أيام الصيف في رمضان يتألم ، ومن قهر نفسه على اخراج الزكاة يتألم ، ولكنه إن ذكر ثواب الله وصبَّر النفسَ تحوّل هذا الألم لذة .

والصبر عن المعاصي ، وهذا اصعب أنواع الصبر ، وهو الامتناع عن لذة المعصية مع القدرة عليها ، كالموظف الذي يرى زملاءه يرتشون ويسرقون وهو يقدر على ذلك ولكنه يمتنع عنه ويصبر نفسه ، والشاب الذي يرى التبرج والاغراء ويسمـع من اخوانه أحاديث مغامراتهم الغرامية ، ولكنه يمتنع عن مجاراتهم خوفاً من الله ويصبّر نفسه ، ان الله يُظلِّه بظل العرش يوم الموقف الاكبر ، يوم لايجـد الناس ظلة ولا وقاية من أمر الله .

ثم يكبر ويركع ويسجد . فإذا فرغ من هذا كله ، قعد يرفع الى ربه تحية الخروج من الصلاة ، كما رفع في أولها تحية الدخول فيها ،

فأثنى على ربه الذي توجه اليه وحده ، مخلصاً له مريداً ثوابه ، طالباً منه كل خير يريده ، ثم صلى على رسوله محمد الذي كان واسطة هذا الخير • ثم سلـّم على نفسه التي تطهرت بهذه الصلاة وعلى عباد الله الصالحين •

وهذه أعظم مكافأة للمصلي ، أن يكون من الصلاة تحية نفسه مع تحية الله ورسوله ، ثم يجدد البيعة ، ويؤكد العهد بترديد الشهادة لله بالوحدانية ، ولمحمد بالعبودية والرسالة ، ثم يطلب ما يشاء من الحاجات فيبدؤها بسؤال الله الرحمة والسلام والبركات ، على من كانت هذهالنعم عن يديه ، محمد صلى الله عليه وسلم مصلياً الصلاة الابراهيمية ، وهي أفضل صيَغ الصلاة على الرسول على الاطلاق ، وسأل لنفسه وللمسلمين •

ثم يعود بالسلام (السلام عليكم ورحمة الله) • ويعود الى هذه الدنيا ولكن بغير النفس التي تركها بها ، يعود وفي قلبه حلاوة الايمان، ولذة المناجاة ،وهذه المعاني التي أثارهافيها ماتلا منقرآن وذكر ، وهذه الخشية التي أحسّ بها ، وهذه القوة التي استشعرها •



كتاب في (الدين الاسلامي)

كتبت سنة ١٩٣٩

كان الأعرابي الجلف الجافي ، يقعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ساعة من زمان يستمع فيها إليه ، فلا يقوم إلا وقد فهم الإسلام وعرفه ، وصار من المبشّرين به والداعين إليه . وكان يصحب النبيَّ أياماً فلا تنقضي حتى يغدو عالماً ، يبعثه النبي إلى قومه معلّماً ومرشداً ، فيعرّفهم الحدود ، ويبيّن لهم الحلال من الحرام ....

كان هذا يوم لم يكن تدوين ، ولم تصنّف المصنفات ، ولم تجمع الأحاديث ... وها نحن أولاء نملك أكثر من مئة ألف كتاب ورسالة في التفسير والحديث والفقه والأصول والتصوّف والسيرة والخلاف وكل ما يخطر على بال باحث من المسائل المتصلة بالإسلام ، ولكنا لا نجد فيها كتاباًواحدا لخّص الإسلام كله تلخيصاً وافياً ، وعرضه عرضاً واضحاً ، يقرؤه الشاب ، فيفهم فيه الدّين كله كفهم الوافدين على النبيّ الدّينَ، حين دخلوا فيه أفواجاً ...

ولقد أحسَسْتُ بهذا النقص منذ ابتداء عهدي بالطلب ، وعرضت له في رسائل (في سبيل الإصلاح) التي نشرتها في دمشق (إثر عودتي من مصر سنة ١٩٢٩) . بيد أني لم أعرف خطره إلا أمس ، حين درّست الدين في مدارس العراق ، وشرحت للطلاب مزاياه ، وكشفت لهم عن عظمته ، فكانوا يتشوقون إلى زيادة الاطّلاع ، ويرغبون في متابعة الدرس ، فيسألونني عن الكتاب الذي يجدون فيه خلاصة الدين ، كما يجدون خلاصة الطبيعة أو الهندسة في كتاب واحد ، فأفكّر فيه فلا أجده ، ولا أجد إلا علوماً كثيرة من كلام وفقه وحديث وتفسير فيها

آلاف من الكتب ، يعتدها المؤرخون أثمن تراث للعقل البشري وأغناه ، ولكنها أصبحت اليوم بالية الأسلوب ، قديمة الطراز ، كحلية من الذهب ، ماتقص الذهب ولا خاس ، ولكن أنكر الشكل وتغيرت الأذواق ، والصائغ الماهر يحول الحلية من حال إلى حال ... وكنت أخاف أن ينصرف الطلاب عن دراسة الإسلام ، وتموت في نفوسهم الرغبة فيه ، إذا أنا دللتهم عليها وأردتهم على قراءتها . وليت شعري أأقول للطالب الذي لم تدع له دروسه الكثيرة إلا بقية من وقت ، آثر أن يشغلها بدراسة الدين عن أن ينفقها في حق نفسه وراحتها ، أأقول له إنك لاتفهم الإسلام حتى تقرأ (النسفية) و (السنوسية) وأشباهها وتدخل في كل باب من أبواب الفلسفة الفارغة ... والجدل العقيم ... وتدور مع المذاهب الباطلة والرد عليها ، والآراء الخاطئة ودفعها ، وتحفظ كفر أقوام انقرضوا وانقطع دابرهم ، كل ذلك لتفهم التوحيد الذي جاء به النبي صلى الله عليه واضحاً سهلاً لا فلسفة فيه ولا جدال ... وتقرأ (الطحطاوي) والشرنبلاني أو (الباجوري) أو غيرهما من كتب الفروع ، وتملأ الرأس منك فروضاً مستحيلة ، واحتمالات بعيدة ، تتخلل الأحكام ، وتجيء مع قوانين الشريعة ، كل ذلك لتعرف كيف تصلّي وتصوم ، وقد كان البدوي يتعلم الصلاة والصيام في ساعة واحدة ويؤديهما من بعدهما على وجه الكمال ... وتقرأ (شروح المنار) أو (جمع الجوامع) وتكسر دماغك في كلام هو (والله العظيم) أشبه بالطلاسم والأحاجي منه بالعلم وأسلوبه المبين ، لتفهم أصول الفقه ، والأصول في هذا الدين ثابتة ثبوت الجبال ، واضحة وضوح الشمس ، مستقيمة كخيوط النور لا عوج فيها ولا التواء ، ولا غموض ولا إبهام ... وتقرأ (النخبة) أو (مقدمة ابن الصلاح) لتفهم مصطلح الحديث ، وتقرأ بعد ذلك شيئاً كثيراً ... ثم لا تنجو بعده

من أن يتّهمك الصوفيّة بأنك وهّابي ، والسلفيون بأنك قبوري [1] ،
ولن تعدم من يتبرع بتكفيرك من أجل بحث في كرامات الأولياء أو كلام
في السفور ، أو رأي في ابن عربي ... فأين الشاب المشغول بدروسه
المتهيّئ لفحصه في هذا الخضم الذي يغرق فيه لو خاضه ؟ أو لا يعذر
الشبان إذا لم يقدروا على درس الدين في كتبه ، ولم يجدوا من يفهم
عنهم أو يفهمون عنه من علمائه ، فآثروا السلامة ، وابتغوا من العلوم
والدراسات ماله كتب مفهومة ، وخلاصات واضحة ؟

أحسَسْت بهذا النقص البيّن ، فكتبت في وصفه وخطبت مراراً
وسألت من توسّمت فيه من العلماء سدّه وإكماله ، فوجدت من (علمائنا)
من لا يحسن شيئاً إلا إقراء الكتب التي كان قرأها على
مشايخه من قبل ، وشرحها كما شرحت له ، فإن خرجت به عن الحواشي
والشروح ، عاد عامياً لا يكاد يصلح لشيء . ووجدت أكثرهم بعيداً عن
الأدب ليس من أهل البيان ، ومنهم من لا يزال يظن (جهلاً) أن الإسلام
كره الشعر وحرمه ويحتج بحديث : لأن يمتلئ جوف أحدكم ... ولقد
ثبت أن الذين يروونه جزء من الحديث رواية « ويلٌ للمصلّين [2] » . ومن
ابتعد عن الأدب ، ولم يتمرّس بأساليب البلغاء ، لم يأت منه خير لأن
علمه يقتصر عليه ، فلا يقدر على بثه بقلم ولا بلسان ... ووجدت أكثر
(علمائنا) يعيش في دنيا أهل القرن التاسع ، ويفكر بعقولهم . ومنهم

---

(١) كذا يقولون والقياس الأفراد عند النسبة ــ هذا وليس الغرض إهمال هذه الكتب ، فإنها المصادر التي لابدّ منها لمن يحبّ التخصص في علوم الشرع ولكن الكلام على طلاب المدارس .

(٢) أنظر كتاب (الإجابة) الذي نشره اخي سعيد الأفغاني وحققه وعلق عليه (المكتبة الهاشمية بدمشق) .

من شغله منصب يحرص عليه ، أو مال يبالغ في جمعه وادّخاره ؛ ومنهم من أخلد إلى الراحة ، وابتغى الجاه والغنى من شرّ الطرق وأقصرها ، فمخرق على العامة وأظهر الورع فيهم والتواجد . فإن قلت له : صباح الخير ، أو سألته عن مسألة ... أجابك بـ « لا إله إلا الله » أو بالحوقلة والاستغفار يقلّب سبحته في يده ، ويغمض عينيه، ويصمت حيناً خاشعاً مراقبا ، ثم يصرخ في وجهك صرخة من أفلت من (العصفورية) أو (العباسية) . ورأيت من هؤلاء من العجائب ما لو قصصته لخفت أن أكذب فيه لغرابته فأيست منهم أو كدت ، ودفعني هذا اليأس إلى محاولة الكتابة في هذا الموضوع ، على قصر يدي فيه ، وقلة بضاعتي ، وأعددت (في نفسي) أكثر مباحثه ، ثم رأيت أن أفتح هذا الباب في الرسالة (بإذن الأستاذ الزيات) لكل من أراد أن يكتب فيه وارتضى الأستاذ ماكتب ، ورجوت أن يقبل على الكتابة العلماء والباحثون ، ينشىء كلٌ منهم فصلاً من الكتاب ينشر اليوم في الرسالة . ثم إذا اجتمعت الفصول ونقّحها أصحابها وأعادوا النظر فيها أودعت صفحات كتاب يبقى إن شاء الله وينتفع به الناس ... ولعل الذي يمنع تحقيق هذا الرجاء أن أكثر من يكتب من الشباب ويملك الأسلوب المشرق المبين لا اطّلاع له على كتب الدين ، ولا إلمام له بها . وأكثر العلماء (كما قدمت القول) غير مشتغلين بالكتابة . وعلاج ذلك أن يشترك في البحث عالم مطلع ، وأديب كاتب ، فيمشي الشاب الذي يحسن الكتابة إلى عالم يدلّه على المراجع ، ويبيّن له الأحكام ، وينشىء هو الفصل بعد ذلك ، فيجتمع له فوائد ، منها أن البحث قد كتب وتم ، ومنها أنه اطّلع على نواح من العلم جديدة ، ومنها أنه ألِفَ هذه الكتب القديمة وعرف أسلوبها ...

ولنأتِ الآن إلى الموضوعات التي ينبغي أن يشتمل عليها الكتاب، ماهي وما حدودها . ولست أحب أن احددها وحدي بل أبيّن المراد

إجمالاً والمراد أن يلخص الدين الإسلامي في كتاب يضم بين دفتيه الإسلام الذي جاء به النبي محمد خالياً من الحشو والزيادات والبدع والخلافات ، يقرؤه الشاب المسلم الذي لا يعرف الدين، فلا يحتاج بعده إلى شيء، ويقرؤه العامي فيفهم منه دينه ، ويقرؤه الغربي (مترجماً) فيحصل له عن الإسلام فكرة واضحة صحيحة .

وإذا كان المسلم الكامل هو الذي أخذ الإسلام علماً وعملاً واعتقاداً، وإذا كان حديث جبريل المعروف قد قسم الدين إلى إيمان وإسلام وإحسان ، وشرح الأول بأنه التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وشرح الثاني بأنه النطق بالشهادة ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، وفسّر الإحسان بأنه عبادتك الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فإن من المستطاع تحديد موضوعات كتاب « الدين الاسلامي » بأنها :

الإيمان وما يتّصل به ـ الإيمان بالله (التوحيد) ـ الإيمان بالملائكة والجن والشياطين ـ الإيمان بالكتب ـ القرآن ، وما يتصل به من نزول، وجمع وإعجاز ـ الرسالة والرسل ـ حياة النبي محمد ورسالته ـ اليوم الآخر ـ القضاء والقدر ـ الصلاة : حكمتها وفائدتها وكيفيتها وبيان المتفق عليه من أحكامها ـ الصوم ـ الزكاة ـ الحج ـ الأخلاق الشخصية في الإسلام ـ الاخلاق الاجتماعية في الإسلام ـ الإسلام من الناحية التشريعية ـ الإسلام من الناحية السياسية ـ فكرة عامة عن العلوم الإسلامية ـ المذاهب الأربعة والكلام عليها الخ ...

هـذه هي المباحث المهمـة ، وأهم منها أن تكتب بأسلوب لا هـو بالأسلوب العلمي الجامد ، ولا هو بالأسلوب القصصي الخيالي ،وأن

تكون تعليمية قبل أن تكون علمية ، وأن ترتفع عن كل خلاف أحدثه المتأخرون ، وتعود إلى المنبع الصافي الذي استقى منه المصدر الأول خير القرون .

هذا وفي الموضوع مجال للايضاح والنقد والتعديل ، ولعل صفحات الرسالة لاتخلو من ذلك .

★ ★ ★

القائــد

نشرت سنة ١٩٣٦

سأل سائل في (الفتح) ، عن صفات القائد الذي يستطيع أن يسير بالمسلمين في طريق السعادة والقوة ، فأحببت أن أكون فيمن يجيب على هذا السؤال .

ونظرتُ فوجدت أن من السهل عليّ أن أحشد ما أعرفه من الصفات السامية ، في صورة (مثالية) للقائد المنشود ، الذي يجمع في رأسه العلم كله ، وفي قلبه الخير كله ، ويكون إعادة لذلك الحلم الذي حلم به شاعر مرة ، فقال :

وليس على الله بمستنكر　　　أن يجمع العالم في واحد !

ولكن ذلك الحلم لن يتحقق أبدا ، وهذا (الواحد) لا أحسب أن الله يأذن بخلقه ، لأن وجوده مخالف لسنة الله في كونه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(والفتح) ليست مجلة أدبية تعنى بالصور الشعريــة ، والقصص الخيالية ، ولكنها صحيفة إصلاحية عمليّة لها غاية تسير اليها .

لذلك يجب أن نعلم قبل كل شيء ، ما هو ميدان عمل هذا القائد وما هو مدى ما يُنتظر منه .

أما إذا كان ينتظر منه أن يدير حركة مسلمي بلد من البلدان ، في قضية من القضايا ، كأن يكون في مصر قائد ، يدل المسلمين فيهـا على طريق مساعدة فلسطين في محنتها ، أو المغرب في بلائه ، فهذا متيسر بل هو حاصل .

وأما إذا كان ينتظر منه أن يقود الحركة الفكرية والخلقية والاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي كله ، فهذا مستحيل ، لأن ذلك مما لا يقوم به فرد إلا أن يكون نبياً وقد ختم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الأنبياء (١) .

ثم ان الفكر البشري والعادات والتقاليد ، لا تتحوّل في يوم أو يومين ، ولا يقدر أن يبدلها فرد من الافراد ، وانما تعمل في تكوينها وتبديلها عوامل خطيرة ، جليلة وحقيرة ، ظاهرة وخفية ، من برامج التعليم ، ومناهج الدراسة ، إلى خطة الصحافة ، إلى أساليب الأدباء والشعراء ومبادئهم وغاياتهم ، إلى الحالة الاقتصادية وما ينشأ عنها من يسر أو عسر ، إلى الطبيعة الجغرافية والعوامل الإقليمية ، مما لا يمكن استقصاؤه .

ومن نظر إلى العالم الإسلامي اليوم نظر الباحث المدقِق ، وجد أن المسلمين يعيشون في دور إنتقال تتغير فيه العادات والتقاليد والأفكار ، وقد يكون هذا التغيُّر عنيفاً يراه الناس ويحسّون به ، وقد يكون بطيئا كحركة عقرب الساعة لايبصره ولا يدريه إلا المدققون ، وقد يكون هذا التغير صالحاً ، كهذه الحركة الاسلامية في مصر وقيام الشبان المتعلمين بها ، وقد يكون هذا التغيُّر سيئاً كفشو الخلاعة والإلحاد ، واضاعة كثير من المبادىء الدينية والخلقية ، واتّباع الأوربيين حتى في المؤذي السخيف من أوضاعهم .. فمن هو القائد الذي قاد الأمة الإسلامية الى هذا الطور الجديد ؟

انك لاتستطيع أن تجد رجلاواحدا ، تصفه بأنه هو القائد ، فالشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى كمال ، وجمال باشا ، وسعد زغلول ، والشيخ طاهر الجزائري ، كل هؤلاء وعشرات من أمثالهم من الصالحين المصلحين والفاسدين

(١) ولو كره كذّاب قاديان وأتباعه الضلاّل .

المفسدين كانوا من قادة الأمة الإسلامية في هذا الدور الى خير أو الى شر ، حتى ان العمل الذي قام به مصطفى كمال ــ أوأتاتورك كما سمّى نفسه ــ لم يكن عمله وحده ، ولولا أنه وجد حوله من ساعده عليه ، ولولا أنه جعل مناهج الدراسة مبنية علىهذا الأساس الشانىء للإسلام لتكوّن له جيلا جديداً كما يهوى ، ماستطاع أن يمضي فيه الى الآن .

فمن العبث إذن أن نبحث عن شخص نقول له : أنت قائد المسلمين كلهم ! وإنما المعقول المجدي الذي لاعبث فيه ، هو أن يعمل كل واحد من المسلمين ، في المنزلة التي وضعه الله فيها ، فإذا جعله الله عالما ، لم يكتف بتدريس هذه الكتب التي قرأها على مشايخه ، وفهم عبارتها ، وإنما يعمد الى مسألة فيدرسها درساًعلميا ، مستندا الى الكتاب والسنة مطلعا على روح العصر وحاجاته ،غيرمتقيد إلا بغرض الشارع وأهداف الشريعة ، فيبين ذلك ويرشد الأمة اليه .

واذا جعله الله معلما حرص على تقويم أخلاق طلابه ، وتلقينهم روح العلم الصحيح ، ونشّأهم على الإسلام ، ولم يكتف بأن يعيد ما في الكتاب ، وهو جاهل به ، يستر جهله بإرضاءالتلاميذ ، وزيادةدرجاتهم ، وإن كان مدرساً في مسجد قام بوظيفته على وجهها ولم يسرق المرتب بلا عمل .

وإن كان أديباً جعل أدبه أداة من أدوات النجاح لهذه الأمة ، وعاملا من عوامل تقدّمها ، ولم يكن أدبه جمالا مجرداً ، لا يبالي أدَعا فيه الى الرذيلة ، أم عمل فيه على الإلحاد ، وإن كان صحفياً جعل له مبدأ وغاية ، ولم ينحط الى مجاراة الجماهير والتزلف اليهم بما يرغبون فيه من ألوان الدعارة وأنواع الصور ، وأشكال الأدب التافه الرخيص .

وان كانموظفا حرصجهده على تأدية الواجب عليه أولا ، وتسخير وظيفته ماستطاع في خدمة الناس .

وان كان هناك من يحمل قسطاً من القيادة ، فهم رجـال الأدب والعلماء .

والعلماء اليوم أشد تقصيرا عن هذه المهمة ، ولو شئت لألّفت كتابا (في أخلاق العلماء) مثل كتاب العلامة الشيخ محمد سليمان رحمه الله ولكنه أسود الصفحات ، قد انقلبت فيه كل مزية نقيصة .

ولقدكنت أتحدّث إلى الناس منذ أيام ، فيحفلةالمولد التي أقيمت في ردهة المجمع العلمي العربي في دمشق ، فكـان من حديثي أن قسمت المتعلمين الى قسمين ، المتعلمين في المدارس النظاميـة والمتعلمين على المشايخ ، ولاحظت أن بين الفريقين هوّة سحيقة ، وفرقاً بعيداً [1] ، في أساليب التفكير والحياة ، ونظرت في عمل كل من الفريقـين ، فرأيت ورأى معي الناس أن المقصّرين الذين لايعملون هم العلماء ، وسردت لهم حوادث ، وأدليت بحجج .

فهل من القراء من يدلني على أني مخطيء وأن العلماء يساهمون في الحركة العقلية والاجتماعية والأدبية والسياسية بمثل مايساهم به غيرهم ؟

ولماذا لاندير السؤال اذن على وجه آخر ، فنقول : أي الطبقات يصلح للقيادة ؟ وما هو مدى قيامهم بما يصلحون له ؟ وما هو سبيل الإصلاح ؟

---

(١) قدالتقى الآن الخطان المتوازيان ، ونشات طبقة جديدة من طلبة العلم الديني الذين حصّلوا علم المدارس ونالوا شهاداتهـا ، وتلاميـذ المدارس الذين طلبوا علوم الدين والموا بها ، وكان اول المشايخ الذين نالوا الشهادات مصطفى الزرقا ثم معروف الدواليبي وصبحي الصباغ وطليعة التلاميذ الذين طلبوا العلم علي الطنطاوي ثم مظهر العظمة ومحمد الخطيب ومحمد المبارك ثم تتـابع الناس من الطرفين وكانت هذه الطبقـة التي جمعت مزايا الفريقين .

فيكون البحث في العلماء وحدهم ، أو في الصحافة مستقلة ، أو في المدارس ، أو في حركة النشر ، أو في التمثيل والسينما ، أو في الأنظمة والقوانين ، أو في الملابس والأزياء ، أو في حياة الأسرة وما يتصل بها ، أو في هذه الأمور كلها ، يدرس كل كاتب ناحية منهـا ، وينشر ثمرة درسه في (الفتح) ، ويناقشه من يرى غير رأيه ، ونخرج من ذلك كله بأحسن النتائج ان شاء الله وأتمنها ؟



خطب الجمعة

كتبت سنة ١٩٥٩

كان وفد من العلماء يزور واحداً من كبار أولي الأمر من عهد قريب ، يشكو اليه فساد الأخلاق ، وانتشار المعاصي ، وهذه المنكرات البادية ، فقال لهم :

ـ أنا أعجب من أمركم . عندكم هذه المنابر ، التي تستطيعون أن تصلحوا بها كل فاسد وتقوّموا كل معوج ثم تشكون إليّ ما تجدون . .

وهي كلمة أجراها الله على لسانه لتقوم بها الحجّة علينا مرتين :

مرة لأنها كلمة حق ، لاينازع في صحتها منازع .

ومرة لأنها جاءت موعظة منه هـو لمن يتصدّون لوعظ الناس .

ولو كان عُشُرُ هذه المنابر في أيدي جماعة من الجماعات العاملة المنظمة ، لصنعت بها العجائب . فما بالنا ، وهي في أيدينا ، لانصنع بها شيئاً ؟

وما أذهب في الاستدلال ، الى عرض أوجه الاحتمال ، وعندي الواقع الذي ليس فيه جدال ، هو منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه المنابر .

كان للرسول صلوات الله عليه منبر واحد : درجات من الخشب ، ليس فيها براعة النقش ، ولا فيها روعة الفن ، وليس عليها قبّة ، ولا لها باب ، دعا منها ، فلبّت الدنيا ، واستجاب العالم ، وترك بها على الأرض أعظم أثر عرفه تاريخ الأرض .

وعندنا اليوم مئة ألف منبر مبثوثة مابين آخر اندونيسيا وآخـر

المغرب ، كلها مزخرف منقوش ، استنفد جهد أهل العمارة ، وعبقرية أهل الفن ، وفيها المكبرات والاذاعات ، تحمل الصوت منها الى آفاق الأرض ، فيسمع خطباؤها الملايين ، ولا نرى لها مع ذلك أثراً في إصلاح ، ولا عملا في نهضة .

فما هو السر في تلك القوة ، وفي هذا الضعف ؟

تعالوا نفكر في ذلك جميعا ؟

نعرض أحوال هذه الخطب ، ونفتش عن حالها ، ولا يغضب مني أحد فما أريد الفضيحة ولا التشهير ، إن أريد إلا الإصلاح . وأنا بعدُ واحد من الخطباء لست غريباً عنهم ولا مبرأً من عيوبهم . وما يقال فيهم يقال مثله فيّ أنا . ومن أجراك مجرى نفسه ما ظلمك .

ولو سألت من شئت من المصلّين عن هذه الخطب لسمعت منه طرفاً من عيوبها .

فمن عيوبها هذا التطويل ، وهذا الاسهاب ، حتى لتزيد الخطبة الواحدة أحيانا على نصف ساعة ، مع أن السنّة تقصير الخطبة ،وتطويل الصلاة ، وألا تزيد الخطبة عن سورة من أوساط المفصّل ، أي على صفحتين اثنتين فقط .

وهذه خطب الرسول المأثورة ، وخطب الصحابة ، منها ماهو صفحة واحدة ، أو أقل من ذلك .

وياليت دائرة الافتاء ، أو الأوقاف ، تلزم الخطباء بألاّ تزيد أطول خطبة يلقونها عن ربع ساعة .

وأنا أخطب في مسجد جامعة دمشق فلا تمر ثلث ساعة ، أو خمس وعشرون دقيقة ، على أذان الظهر ، حتى تكون قد انتهت الخطبة والصلاة ، ذلك لأننا تركنا هذه البدع التي تكون قبل الخطبة ، فلا تقرأ ما يسمّى (الصمدية) ولا يجهر المؤذن بهذه الصلوات ، بل نسمع

أذان الظهر فنصلي السنة ، ويصعد الخطيب المنبر فوراً.

وكذلك كان يفعل رسول الله وأصحابه ، ولا خير فيما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن عيوبها ، أنه ليس للخطبة موضوع واحد معين ، بل تجد الخطيب يخوض في الخطبة الواحدة في كل شيء .

ينتقل من موضوع الى موضوع ، فلا يوفّي موضوعاً منها حقّه من البحث ، فاذا جاء الجمعة الثانية عاد الى مثل ما كان منه في الجمعة الاولى ، فتكون الخطب كلها متشابهة متماثلة ، وكلها لا ثمرة له ، ولا يخرج السامع له بنتيجة عملية .

ولو أن الخطيب اقتصر على موضوع واحد جلّ أو دقّ ، كبر أو صغر ، فتكلم فيه ولم يجاوزه الى غيره ، لكان لخطبته معنى ، ولأخذ السامع منها عبرة ، وحصل منها فائدة .

ومن عيوبها ان الخطيب (أعني بعض من يخطب) يحاول أن يصلح الدنيا كلها بخطبة واحدة ، فلا يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ولا يكلمهم على مقتضى أحوالهم ، ولا يسير بهم في طريق الصلاح خطوة خطوة ، بل يريد أن يبلغوا الكمال بقفزة واحدة ، مع أن الطفرة في رأي علمائنا محال .

ومن عيوبها ، أنها صارت (كليشات) معينة ، ألفاظ تردد وتعاد ، لاسيما في الخطبة الثانية ، مع أن الخطبة الثانية لاتختلف في أصل السنة عن الأولى ، وما يلتزمه الخطباء فيها من الصلاة الابراهيمية ، والترضي عن الخلفاء والتابعين بأسمائهم ، لم يلتزمه أحد من السلف .

وخطبة الجمعة عند الحنفية لايشترط لصحتها إلا أن تكون دينية ، وان يكون فيها تذكير بالشرع وهذه (الكليشات) كلها ليست من شروط الخطبة .

والدعاء الذي يكون في آخر الخطبة ليس شرطاً ، ولا كان السلف يواظبون عليه .

والدعاء مطلوب وهو مخ العبادة وروحها ، ولكن الدعاء المطلوب هو الذي يكون عن قلب حاضر ، ومراقبة لله ، وثقة بالاجابة ، فان كان دعاء بالمأثور كان أحسن .

أما أن يكون الغرض منه اظهار سعة الحفظ ، وبلاغة اللفظ ، فلا .

والدعاء للسلاطين بأسمائهم بدعة وقد نص الحنفية على أنه مكروه ان ذكر السلطان بالتعظيم ، فان قال عنه ماليس فيه كما كان بعض الخطباء في مصر يقولون عن فاروق ... فكذب وافتراء .

وآية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » ، التي يلتزمها الخطباء في آخر الخطبة ، ويظنها العامة من شرائط الخطبة ، ليست شرطاً فيها . فان تلاها ، أو تلا غيرها ، أو لم يتل في ختام الخطبة شيئا ، لم يكن عليه شيء .

وكونهما خطبتين والقعود بينهما سنة ، فإن جعلها خطبة واحدة ، ولو جملاً معدودات ، فقالها ونزل لاشيء عليه عند الحنفية .

ولما ولي عثمان الخلافة صعد المنبر ليخطب أول جمعة فأرتج [1] عليه ولم يستطع الكلام .

فقال : إن من كان قبلي كان يعد لهذا المقام كلاماً ، وأنا إن أعش فستأتيكم الخطب على وجهها ان شاء الله .

ونزل ، وكانت هذه هي الخطبة ولم يعترض عليها أحد من الصحابة .

ومن عيوبها هذا التكلف في الالقاء ، وهذا التشدق في اللفظ . وهذه اللهجة الغريبة

وخير الإلقاء ما كان طبيعيا لا تكلف فيه ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد كره المتشدقين وذمهم .

---

(١) اي انسد عليه باب الكلام ، والارتاج الاغلاق ومنه رتاج الباب .

ومن أعظم عيوب الخطبة في أيامنا أن الخطيب ينسى أنه يقوم مقام رسول الله ، ويتكلم بلسان الشرع ، وأن عليه أن يبيّن حكم الله فقط لا آراءه هو ، وخطرات ذهنه ، ويحرص على رضا الله وحده ، لا على رضا الناس ، فلا يتزلّف الى أحد ، ولا يجعل الخطبة وسيلة الى الدنيا ، وسبباً للقبول عند أهلها •

ومن عيوبها أن من الخطباء من يأتي بأحكام غير محققة ، ولا مسلمة عند أهل العلم ، يفتي بها على المنبر ، ويأمر الناس بها ، ولو اقتصر على المسائل المتفق عليها فأمر بها العامة ، وترك الخلافيات لمجالس العلماء لكان أحسن •

ومنهم (وهذا كثير) من يأتي بالأحاديث الموضوعة ، أو الضعيفة المتروكة ، مع أنه لايجوز لأحد أن يسند حديثاً الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتوثق من صحته ، بأن يصححه أحد المحدثين الموثوق بهم ، كأصحاب الكتب الستة على اختلاف شروطهم في تصحيح الاحاديث أو يعتمده فقهاء مذهب من المذاهب الأربعة ، ويتّفقوا على الأخذ به ، ومن أخذ كل حديث يجده في كتاب ، أو يسمعه من فم انسان ، فنسبه على المنبر الى الرسول ، من غير أن يعرف درجته من الصحة ، ومن غير أن يبحث عن مخرجه وراويه ، أو شكّ أن يكون داخلاً تحت حديث: من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار •

فلينتبه الخطباء الى هذا ، فانه من أهم المهمات •

وياليت خطيب كل مسجد يعد لخطب الشهر برنامجا ، يعلقه على باب المسجد ، أو يبيّن للناس على الأقل أن خطبة الجمعة القادمة موضوعها كذا ، ومدتها كذا ، ليكون المصلّي على بيّنة من أمره ، ويجعل الخطبة الثانية مطلقة يتكلم فيها عما يجد بعد اعلان موضوع الخطبة الأولى ، أو يجعلها موعظة عملية •

وان يكون منهج الخطيب أن يعمل لاصلاح الافراد أولا ، ثم بتكلم عن اصلاح الاسر والبيوت ، ثم يبحث في الإصلاح العام ، وأن يبدأ بما بدأ به الشرع فيصحح التوحيد أولا ، ثم يأمر باجتناب المحرمات ، ويعدّدها ويجعل لكل منها خطبة ، من آفات اللسان كالكذب والغيبة والنميمة ، الى السرقة والزنى والغش وعقوق الوالدين وشهادة الزور وأمثالها ، ثم يأمر بالفرائض ، ويجعل لكل منها خطبة يبيّن فيها أحكامها ، لا بيان الفقيه الذي يعدّد الشروط والأركان ، والسنن والمكروهات ، بل بيان المرشد الذي يبين الأعمال ، ويدل على طريق الإخلاص فيها ، فيتكلم عن الصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف وما الى ذلك .

وعلى السامعين أن يعلموا أن سماع الخطبة ليس للبركة فقط ، بل للاتعاظ بها ، والعمل بما يتعلمه منها ، والعاقل منهم من استفاد من صحة القول ولو شك في حال القائل ، والحكمة ضالّة المؤمن يأخذها من حيث وجدها .

وهذه خواطر في الموضوع ، لم اقصد فيها لمّ جوانبه ، وجمع أطرافه ، واستيفاء القول فيه . لأن الكلام فيه طويل ، والمجال قليل ، والقصد التنبيه .



الايمـــان

كتبت سنة ١٩٣٩

معناه اللغوي

إذا قال لك قائل ، إن جزء الشيء يساوي مجموعة ، أنكرت ذلك عليه وكذّبته فيه ، لأنك (تؤمن) بأن الجزء أصغر من الكل ، وتقطع بذلك قطعاً ، ولا ترى عنه معدلاً •

وإذا وجدت من يبذل دمه في سبيل وطنه ، ويفديه بنفسه وماله ، ويحرص على خدمته ، قلت ، انه من ذوي (الإيمان) الوطني •

والإيمان بهذا المعنى ، هو العقيدة الثابتة في النفس ، أو العاطفة القوية الراسخة التي لا تتبدل ولا تتزعزع ، ولا يحتاج إلى التدليل عليها ، لأنها من (البديهيّات) بالنسبة لصاحبها المؤمن بها •

فالإيمان (في اللغة) التصديق ، وفعله آمن ، وأصلهـا (أأمن) بهمزتين ليّنت الثانية •

انواع الإيمان :

يتّضح لك مما مثلنا أن للإيمان نوعين : فإيمانك بأن الرغيف أكبر من نصفه ، وأن الواحد ثلث الثلاثة (إيمان عقلي) ، لا أثر لك فيه ولا عمل ، وإنما هو من الفطرة ، التي فطر الله الناس عليها •

أما (الإيمان الوطني) فهو (إيمان قلبي) ، لا دخل للعقل فيه ، وهو فردي شخصي يختلف عن (الإيمان العقلي) الذي يتّصف بكونه عامّاً شاملاً العقلاء جميعاً •

وهذا التقسيم جديد ، استنبطته من الأمثلة المختلفة للإيمان ، ورأيت فيه نفعاً ، لأنه يثبت جنس الإيمان ، ولأنه بعد ذلك يساعد على تحديد البحث .

أما الإيمان بأصول الدين . فهو من نوع الإيمان القلبي ، ولكن للعقل دخلاً فيه من حيث إنه يقبل مبدأه ، ويقرّ نتائجه ، ولا يناقضه وإن كان لا يفهمه تماماً .

وبيان هذه المسألة المهمة أن العقل (يؤمن) بادي الرأي بوجود الله، وبأنه عادل ، ولا يناقض نتائج الإيمان بالقدر إجمالاً ، ولكنه لا يستطيع أن يفهمها ولا أن يعلّلها .

ومنشأ ذلك أن العقل مقيد في أحكامه بالحواس والخيال والاختبارات السابقة ، لا يستطيع أن يتخلّى عنها ، أو يخرج عليها . فهو يحكم على عدل الله بما يعرف من حدود (العدل البشري) وما لديه من الاختبارات ، فيقع في الخطأ ، لاختلاف فكرة العدل البشرية النسبية ، عن فكرة العدل الآلهية المطلقة . فالعقل إذن لا يستطيع أن ينقض نتائج الإيمان ولكنه لا يؤمن تماماً ، وإنما الذي يؤمن هو القلب .

الإيمان في الدين الإسلامي :

عرفنا معنى الإيمان في اللغة . أما معناه في الدين فهو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر . فمن صدّق بها تصديقاً جازماً ، فهو المؤمن حقاً .

وقد جعل الله هذا التصديق أصل الدين وأساسه ، وأقام الأدلة على هذه المسائل ، وخاطب بها العقل ، لكن الذي أفهمه أن العقل يقبل مبدأ الإيمان إجمالاً ، ثم يدع دقائقه للقلب ، أي أنه كالملك في الدولة يوقّع على المرسوم ، ولكنه يدع لغيره من الموظفين فهمه وتطبيقه ومراعاته دائماً .

فالعقل يؤمن بأن الله موجود ، وأن القرآن كتابه الذي أنزله ، وأن محمداً نبيّه الذي لاينطق عن الهوى • ثم يقف ويدع للقلب (الإيمان) بكل ما جاء في الكتاب ، وما نطــق به الرسول ، والاطمئنان إليــه ، والتصديق به وقبوله بلا شك ولا ريبة •

وليس في أصول الإسلام ما يرفضه العقل ، أو يتعذّر عليه قبوله لمخالفته لبديهيّاته الثابتة ، أو أحكامه الصحيحة ، وهــذه ميزة الدين الإسلامي عن كلّ دين •

العلاقة بين الإيمان والإسلام :

الإسلام هو (إظهار) الإيمان ، والتعبيرعنه (عملياً) بالنطقبالشهادة عليه ، والقيام بالعبادات التي تنشأ عنه • وهو الأساس الذي يبني عليه تقسيم الناس إلى متّبع ومخالف ، وما يتفرع عن هذا التقسيم منأحكام مدنيّة وحقوقية ، لأن الناس لهم (الظواهر) ولا يستطيعون أن يشقّوا عن قلوب الناس ، ويعرفوا سرائرهم •

وهذا معنى ما جاء في الحديث القائل (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأني رسول الله • فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله [1]) •

فإن نطق بالشهادة ، وأدّى الفرائض ولكنه غير (مصدّق) بها ، ولا (معتقد) وجوبها ، ولا يفهم إلا جسمها دون روحها ، وشكلها دون معناها ، فهو (غير مؤمن) وهو ما كان عليه بعض الأعراب الذين قالالله عزّ وجل فيهم « قالت الأعراب آمنا ، قل لـم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » •

وإن (أظهر) الطاعة عن تصديق وجزم ، وأدّى الصلاة معتقــداً

---

(١) قال السيوطي : حديث متواتر ، وهو (كما قال المناوي) أصل من أصول الإسلام .

وجوبها مراقباً الله فيها ، فهو المؤمن المسلم .

نقل في اللسان عن ثعلب اللغوي قال : المؤمن بالقلب والمسلم باللسان (أي وبالجوارح) .

وقال الزجّاج : صفة المؤمن أن يكون راجياً ثوابه ، خاشياً عقابه .

وقال الزمخشري في الكشّاف في المسلم الكامل : (هو من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدّقه بعمله ، فمن أخلّ بالاعتقاد ، وإن شهد وعمل فهو منافق . ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر . ومن أخلّ بالعمل أي بالعبادة من صلاة وصيام وحج فهو فاسق) .

الإيمان ضروري ومفيد :

بَدَا لَكَ مما تقدم ذكره أن الإيمان ضروري لا يستطيع إنسان أن يعيش بدونه ، فإن لم يؤمن بأصول الدين ، آمن ببعض المبادىء العقلية ، والمبادىء الاجتماعية ، والأخلاقية ، وإن لم يؤمن بشيء منها أحبّ وعرف الحب ، والحب والإيمان من طبيعة واحدة في الأصل ــ فليس في الدنيا إذن ، إنسان إلا وهو (مؤمن) ، لأن (الإيمان) شيء مستقر في طبيعة البشر ، ومن آمن بهذه الحقائق الصغيرة ، أو الأباطيل التي يتوهمها حقائق ، كما يتوهم المحبّ العاشق ، لم يستطع الكفر بالحقيقة الكبرى ، وهي وجود الله .

وسنرى بعدُ أن وجود الله بديهيّة عقلية ، وأن التأليه والتطلّع إلى المجهول ، والبحث عن الخالد الباقي ، من الفطرة الإنسانية .

ثم إن مصلحة الإنسان أن يكون مؤمناً بالله ، لأن الحياة مملوءة بالآلام ، فيّاضة بالمكاره ، فإذا لم يكن للمرء وَزَر من إيمانه ، يلجأ إليه ، كلما حاقت به الشدائد ، أو انتابته الأمراض ، كانت حياته جحيماً محرقاً لا يحتمل ، وربما أدّت به إلى الانتحار كما يفعل الجاهلون .

فلا سعادة إذن إلا بالإيمان ، ولا أُنسَ بالحياة إلا معـه ، ومن مصلحة المجتمع أن يكون الناس مؤمنين ، لأن القوانين والقوى التي تؤيدها ، والعقوبات التي تحميها ، كل ذلك لا يؤدّي إلى إنشاء مجتمع خيّر صالح إذا نقصه الإيمان .

وكيف لعمري يصلح الرجل ويستقيم ، وهو لا يتجنّب السرقة إلا خوفاً من الشرطي ، وهرباً من العقاب ، فإذا أمن الشرطي ونجا من العقاب سرق وقتل وفعل الأفاعيل . فإذا كان (مؤمناً) بالله يخشى عقوبته ، (مؤمناً) بمبادىء الأخلاق التي أمر بها الله ، ووعد بالثواب عليها استقام دائماً ، لأن الله مطّلع عليه مراقب له دائماً .

وشيء آخر هو أن الدافع إلى كل ما يفعله الإنسان المنفعة أو اللذّة ، فالمؤمن يعمل الصالحات ولَو لم يَرَهُ أحد ، ولو لم يعلم به أو يشكره ، لاعتقاده أن الله يثيبه ويعطيه ، فلماذا يعمل الصالحات غير المؤمن إذا لم يكن من يراه أو يشكره ، أو يذيع فضله ، أو يجزيه بعمله خيراً ؟

الإيمان الكامل :

والمؤمن الكامل الإيمان هو الذي يتصوّر في كل لحظة أنه بِسَمْع الله وبصره ، وأن الله مطّلع عليه ، ناظر إليه ، فإذا لم يمنعه من المعصية خوف الله ، منعه الحياء منه .

ولذلك جاء في الحديث (إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلّة ، فإذا أقلع (أي تاب توبة صحيحة) رجع إليه) ، فـلا يستطيـع الزاني أن يزني وهـو مؤمن إيمانا حقّاً ، ومتصوّر أن الله ناظر إليه .

بل هو لا يستطيع أن يزني ، إذا كان أبوه وأستاذه يراه ، ويشرف عليه ، فالإيمان إذا كان على هذه الصورة يمنع صاحبه من كل فاحشة ، ويصرفه عن كل ذنب .

الصالحات بلا إيمان :

فإذا عمل الرجل من الصالحات وهو غير مؤمن لم يكن له ثواب في الآخرة . وقد يبدو ذلك غريباً لأول وهلة ولكنه نهاية العدل من الله .

وهل في العدل أكبر من أن تعطي المحسن المصلح كل ما يطلب ، فإذا كان يقصد ثواب الآخرة ، وكان (مؤمناً) بها أعطاه الله ما يطلب ، وإن لم يطلب إلا الشهرة في الناس ، وخلودَ الذكر فيهم ، أعطي الشهرة والخلود ، ولم يكن له في الآخرة شيء « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .



الوعاظ والخطباء

كتبت سنة ١٩٤١

تواردت الخواطر والأقلام هذه الأيام ، على نقد أساليب الوعّاظ في الدعوة إلى الله ، فساء ذلك بعض الواعظين عندنا ، ولو فكروا في مغزاه وما يلزم منه لسرّهم ، ولعلموا أنه لولا الاعتراف بخطر الوعظ وأهله ، ومنزلتهم من الأمة ، وعلوّ قدرهم عند العامة ، ما كتب في (الرسالة) عنهم ، ولا اشتغل الكتّاب بنقدهم .

ثم إن أولى ما ينبغي أن يتحلّى به الواعظ أن يبدأ بنفسه فيعظها ، وأن يخلص قوله لله وعمله ، وأن يفرغ من شهوات نفسه ، فلا تملكه شهوة الشهرة والجاه ، ولا شهوة الغنى ولا شهوة النساء ، وأن يكون في فعله أوعظ منه في قوله .

فلا يأمر الناس بالزهد ثم يخالفهم إلى ما زهّدهم فيه فيزاحم المتكالبين عليه .

ولا يتظاهر بالدين ابتغاء الدنيا وتوصّلاً إليها ، فيجمع من حوله العاملين على الكسب الحلال ، والجادّين في جمع المال من حلّه ، ليأخذ من أموالهم ما يتعالى به عليهم ، وليذوق لذائذ العيش من عطاياهم ، وليسلبهم فوق ذلك حريتهم وعقولهم وكرامة أنفسهم عليهم ، فيصرّفهم في مآربه ، ويسيّرهم حيثما شاء ، ويذلهم بين يديه ليستكبر عليهم ، ويجعل الدين وسيلة إلى ذلك ، فيجعل طاعة نفسه من طاعة الله ، بل ربما جعل نصيبها من هذا الشرك أكبر ، والعياذ بالله من ذلك . ولقد حدثني من أقطع بصدقه أنه سمع مرة واعظاً من هؤلاء (يقصّ) على تلاميذه

قصةُ مريد سمع شيخه يقول : يا ألله ، ثم يمشي (زعم القاصُّ) على وجه الماء الجاري ، فسأله أن يتبعه ، فقال له الشيخ : قل يا شيخي فلان (يعني الشيخ نفسه) ثم اتبعني فإنك تمشي مثلي .

ففعل المريد ذلك ، وتابعه أياماً ، ثم خطر له (يقول الواعظ) أن يقول : (يا ألله) ، مكان قوله : (ياشيخي) .

فقالها فغرق في الماء ، ومات ...

فهل يشكُّ مسلم في أن هذا الوعظ مخالف للإسلام مباين له ؟

وهل يغضب الواعظ العالم الصادق أن ينتقد الواعظ الجاهل المُمَخْرِق الكذاب ؟

أو ليس من دأب الواعظ الصادق أن يتقبل النصيحة ويشكر عليها ويعمل بها ؟ وأن يتخلص من شرور نفسه قبل أن يتصدّر للوعظ والإرشاد، حتى يكون الإسلام هو الذي يتكلّم على لسانه ، وحتى يتوهّم السامعون أن مَلَكاً هو الذي يعظهم ، أو جسداً إنسانياً ضمّ روح ملك من الملائكة قد ارتفع عن شهوات الأرض ليتّصل بكمالات السماء ، وأنه لا يزهّدهم في دنياهم ليحوزها من دونهم ؛ فإن أنِسُوا منه غير ذلك زهدوا فيه هو وفي وعظه .

كان في مسجد من مساجد دمشق خطيب جهير الصوت ، طلق اللسان ، معتزل مستور ، يعتقد الناس إخلاصه ودينه وتخطّيه أهواء نفسه ماشياً قدُماً على صراطه المستقيم ، صعد المنبر جمعة من الجمع ، فاستهلّ خطبته بآية من القرآن فيها وعيد للكافرين شديد ، ومضى من بعدها يبرق ويرعد ، ويسوق الجمل آخذاً بعضها برقاب بعض ، وكلها من مادة (كَفَرَ يَكْفُر ...) حتى إذا ظن أنه أقنع وأشبع ، وملأ نفوس السامعين سخطاً وغضباً ، عمد الى التصريح بعد التلويح ، فإذا الذي انصبّت عليه هذه الحمم ، ونالته رجوم الشياطين ، (رجل تجرّأ

على دين الله ، فتكلم في الداعين اليه ، والدالّين عليه ، ومن رضي عنهم الله وعقلاء خلقه : خطباء المساجد) .

فلما قضيت الصلاة استقرى النـاس الخبر ، فإذا هو صاحب جريدة ، كتب مقالاً معتدلاً في الدعوة الى إصلاح الخطب المنبرية ، فبعث الخطيب بمقالة يرد بها عليه فلم ينشرها وإنما أشار إليها ، فكان جزاؤه أن تكون الخطبة كلها في ذمّه وتكفيره . فانصرف الناس من يومئذ عما كانوا يعتقدون في الخطيب ولم يعد يبلغ وعظه ذلك المبلـغ من نفوسهم ، وجعلوا يرون فيه خطيباً له (نفس) ، وهيهات ينفـع واعظ أو خطيب له (نفس) ...

فتعالوا أنبئوني من الذي جعل المنبر ملكاً لهذا الخطيب ، يتصرّف فيه تصرّفه بثوبه ودابّته ، ويجعله سلّماً له الى شهرته وشهوته ، وهذا المنبر إرث رسول الله ، والخطيب خليفتهفي الدعوة الى دين الله واطّراح النفس والهوى ؟

ألم يَرْوِ الرواة أن علياً أمير المؤمنين رضي الله عنـه كان يتبع مشركاً (في المَعركة) ليقتله ، فلما أيِسَ المشرك من الحياة تلفت الى عليّ فبصق على وجهه ، فكفّ عنه علي ، فقيـل له ، فقال رضي الله عنه : كنت أنوي قتله لله وحده ، فلما بصق عليّ خفت أن يكون قـد داخلني غيظ منه ، فخشيت أن يكون قتله انتصـاراً لنفسي ، فلذلك كففت عنه .

أليس في هذا الخبر (وإن لم يأت عن الثقـات) عبرة وأسـوة للواعظين ؟

وكيف أستطيع الاتّعاظ بالخطيب الذي جاء في خطبته مرة بحديث موضوع ، فلمـا انتهت الصلاة وتفرق الناس أقبل عليه شـاب من

المشتغلين بالحديث [1] والمنقطعين اليه ، فذكره بأن ذلك الحديث موضوع لا أصل له ، فما كان منه إلا أن رجع من الجمعة المقبلة ، فجعل خطبته في هذا الشاب وأصحابه (الوهابيين أعداء الرسول ...) وأثار عليهم العامة حتى نالهم شرٌ وأذى . فأين مكان الإخلاص من نفس هذا الخطيب ؟

إن أول شرط للواعظ أو الخطيب أن يكون مخلصاً في وعظه لله .

والشرط الثاني أن يكون عالماً بالعربية ، عارفاً بالتفسير والحديث روايته ودرايته ، والفقه أصوله وفروعه ، وإلاّ كان وبالاً على الدين وأهله .

ولقد أدركت والله من العامة من كان يكوّر العمامة ، ويطيل اللحية ، ثم يقعد للتدريس في مسجد دمشق الجامع ، فيقول ما شاء له الجهل والهوى ، ويجعله ديناً ، والمفتي والقاضي والعلماء يمرّون عليه أو يعلمون به فلا ينكرون عليه ، ولو اعتدى هذا الرجل على جبّة أحدهم لأقام عليه الدنيا .

أفكان الدين أهون على أحدهم من جبّته ؟

وأدركت عاميًا آخر ذكيًا خدع طائفة من أذكياء البلد وعلمائه فاعتقدوا به ، وتأدّبوا بين يديه ، وأخذوا عنه تفسير الآثار .

وأعجب من هذا رجل يدّعي النبوّة يقيم الآن [2] في غوطة دمشق ، وقد آمن به أكثر فلاّحي قرية (حرستا) . ولقد خبّرني من شهد صلاته بأصحابه أنهم يقهقهون ويكركرون كلما جاءت آية نعيم ، ويتصايحون مستبشرين ويهنىء بعضهم بعضاً ، وأنهم يبكون منتحبين

---

(١) صار هذا الشاب اليوم بدابه على الدرس ، واشتغاله به مرجعاً من المراجع في رواية الحديث في بلاد الشام .

(٢) أي حين كتابة هذه المقالة .

مولولين كلما سمعوا في الصلاة آية عذاب ؛ وربما (أخذ بعضهم الحال) فقفز في الصلاة أو صاح أو التبط بالأرض .

ولهذا المتنبّي أو (المتمهدي) ضريبة دائمة على أصحابه يؤدّونها اليه باسم الزكاة ، فيشتري بها العقارات والحقول [1] ...

والشرط الثالث حسن الأسلوب في الوعظ ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وابتغاء طريق اللين واللطف . وللواعظين أسوة في ذلك بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهم من سيرته قدوة صالحة ، فأين هم عنها ؟

وما لأكثر من عرفنا منهم لا يعرفون إلا أسلوب العنف الذي يبعد الناس عن الدين ، ويغلظ قلوبهم عليه ، وينفرّهم منه ، فلا يرون في مجالسهم شاباً من تلاميذ المدارس مثلاً إلا جعلوا الموضوع في تفسيق من يحلق لحيته ، ومن يتشبّه بالنساء ، وأمثال ذلك ، حتى تأكل هذا الشاب الأنظار ، فيغرق في عرقه خجلاً ؛ ثم لا يعود الى المسجد أبداً ؛ ولو أنهم حاسنوه وجاملوه لكان من المتقين . حضر درس الشيخ (بدر الدين) رحمه الله تعالى شاب حليق حاسر من شبّان (الموضة) ، وكان الشيخ (على عادته) مطرقاً . فقال له أحد الثقلاء من الحاضرين : (سيدي ، ما حكم الشبّان الذين يتشبهون بالنساء ويتزيّون بزيّ الكفار) . فأدرك الشيخ بذكائه النادر أن في المجلس غريباً ، فرفع رأسه فلمح الشاب ، فدعاه فأجلسه بجواره وأكرمه ، وقال للسائل مؤنّباً بأسلوبه الناعم : (يابا ... هذا يتبارك به) .

يعني أن شاباً مثله يطلب العلمَ ويؤمّ مجالسه ، ويستهدي الطريق الى الله ، أهل لأن يتبرّك به أمثال ذلك الثقيل ، الذين (قطعوا الطريق) الى الله بغلظتهم وغباوة قلوبهم .

والشرط الرابع ، هو أن يعلم الواعظون أنه ليس في الإسلام طبقة

---

(١) ثم انكشف أمره عن فضائح له مع عشرات النساء فأودع الحبس.

هي أولى بالله من طبقة ، وليس بين العبد وربّه وسـيط ، فإذا علموا ذلك اقتصدوا في تكفير الناس لأتفه الأسباب ، وراجعوا الآثار الواردة ليعلموا حقيقة الكفر والإيمان ، فلا يرمون بالكفر كل من خالفهم في رأي ، أو ناقشهم في مسألة قد يكون لها وجوه ، ولا يصدرون مثل الكتاب الذي أصدره منذ بضع سنين عالم معروف في دمشق ، كان أصدر قبله بأكثر من عشر سنين كتاباً آخر ، كفَّر فيهما كل من يقول بحركة الأرض ، وكفَّر الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا ، وردَّ أشنع الرد على ابن حزم والشيخ محمد بخيت المطيعي ، رحم الله الجميع . وأخذ بقوله بعض خطباء المساجد فكفروا على المنـابر من يقول إن الأرض دائرة حول الشمس . ولا نسمع أحداً يجعـل قيامك للضيف يدخل عليك كالسجود له سواء حكمهما ، لأن كلا منهما (على دعواه) من أركان الصلاة استويا في ذلك . ونسي أن القعود أيضاً من أركان الصلاة ، أفيحرم قعودك بين يدي صديقك أو أستاذك ؟؟

والخطابة يوم الجمعة من أكبر أبواب الوعظ ، فإذا صلحت صلـح بصلاحها فساد الأمة ، وإن فسدت أفسدت . فمتى يتم تنظيم الخطابة ، بحيث يختار لها الكفؤ العالم ويعدل عن طريق الوراثة فيها ، فلا تنتقل بعد الخطيب الى ابنه الصغير الذي لا يُدرى ما يكون منشؤه ومرباه ، ويقام له وكيل رسمي ؛ بل يعلن عن الخطابة الخالية ، ويجعل بين الطالبين سباق وامتحان ، ثم ينتقى أقدرهم عليهـا وأصلحهم لها . ولو كانت وراثة لورّثها أبو بكر ابنه ولدفعها عمر الى ولده . فمن أين جئتم بهذه القاعدة الواهية ؟

فإذا تم الاختيار على ما ترتضي المصلحة الإسلامية ، أخذ الخطيب بنوع رقابة أو إشراف يمسكه أن يحيد فيختار من الموضوعات ما يؤذي المسلمين ، أو يكون فيه منفعة للخطيب شخصية ، ويجعله ينتقي أقرب

الموضوعات لأحداث الأسبوع ، فيبيّن فيها حكم الله ، ويأمر فيهـا بالمعروف وينهى عن المنكر ، بشرط أن يقوم بهذه الرقابة جماعة العلماء أنفسهم ، وألاّ تمنع إلا ما يخالف الإسلام ومصلحة المسلمين ، وألاّ تمسّ حرية الخطيب فيما عدا ذلك ، واذا تم الحصول على هذه الثمرات من غير رقابة أصلاً فذلك هو الأولى ، وهو ما عليه المسـلمون من قديم الزمان .



هذا وإن الموضوع خطير ، ومجال القول فيه ذو سعة ، والواعظون العالمون الصادقون أحق الناس بالكتابة فيه ، فإن صاحب الدار أدرى بما فيها ، وأحسن شيء أن يعطى القوس باريها ، وإننـا نسأل الله أن يجعلنا من أهل الإخلاص .



كتاب (الدين الاسلامي)

كتبت سنة ١٩٣٩

أما والله لولا اعتقادي بأن شباب المسلمين هم أحوج اليوم الى هذا الكتاب منهم الى الخبز الذي يأكلونه ، والهواء الذي ينشقونه ، ماعدت إليه بعد إذ تكلّمت فيه ، ولا ألححت عليه (هذا) الإلحاح بعد أن وجدت من علمائنا (ذلك) الإعراض .

وإني لأومن بما أقول ، لا أبالـغ ولا أغلو ، وان بالهواء والخبز لحياة الشاب في هذه الدنيا ، ولكن بهذا الكتاب حياته في الأخرى . وما الدنيا في الآخرة إلاّ هباء ، ولا يؤثر الفانية على الباقية إلاّ جاهل أو غافل .

ولو أن علماءناداخلوا الشباب وخالطوهم ، وأخذوا منهم وأعطوهم ، لوجدوا الكثرة منهم تجهل المعلوم من مبـادىء الإسلام ، وتنـكر المعروف من أحكامه ، ولوجدوا فيهـم من لا يعرف إذا أراد الصلاة ، كيف يصلّي ، وفيهم من لا يفرّق بين كلام الله والثابت من حـديث رسوله ، وشروح الأئمة المعتبرين ، وبين كلام المشعبذين والدجّالين ، ويضع ذلك كله في سطر واحد ، فيقرؤه جملة ، أو يطمسه جملة ، ثم لا يعمل بشيء منه ولا يراه لازماً له في حياته ، ولا مرافقه في غدواته وروحاته ، ولا يدخله في عداد الأمور الجديّة التي يوليها عنايته ويجعل فيها همّه ...

وإذا تكلم أحدهم في الدين ، صلته بالحياة أو مساسِه بالسياسة ،

أعاد ما حفظ من أقوال الأوربيين ، والنافخين في مزاميرهم من الشرقيين.

ولقد غدا من المفهوم المشهور ، الذي لا يحتاج الى إيضاح ، أن هؤلاء الشباب لا يمكن أن يقرؤوا كتب الفقه والتفسير والحديث ولو طبعتها لهم على ورق أبيض ، فأخرجتها عمّا ينبزونها به من أنها (كتب صفراء) ولا يمكن أن يدخلوا المساجدَ فيستمعوا فيها درس العلم ، أو يحضروا مجالس الوعظ لأنهم نُفّروا منها وأُبعدوا عنها ، ولا يمكن أن يتعلّموا علوم الدين في مدارسهم (النظامية) الرسمية ، لأن القائمين عليها ، في مصر والعراق والشام ، لم يقتنعوا الى اليوم بأن للدين علوماً محترمة تستحق أن تضيع في درسها سبع ساعات في الأسبوع ، ولم يروا في علوم الدين ماهو أهل ليعنى به كعنايتهم بالرسم والغناء •

ونسوا ، أوهم لم يعلموا ، أن من الأوربيين من يهتم بهذه العلوم ، ويرفع من قدرها ، ويُعلي مكانها ، وأن رجلاً جرمانياً اسمه (برِتزِل) قدِم علينا الشام منذ سنوات ، فعرّفنا بنفسه ، وأرانا بطاقته ، واذا هو قد كتب عليها (فلان : متخصّص بقراءة القرآن) يفخر بذلك ويعتزّ به ، وسأل عن الذي طبع كتاب (النشر في القراءات العشر) فلما لقيه أكبره وعظّمه ، وعلمنا بعد أنه ملمّ بعلم القراءات ، عارف برواياتها ، قارىء للقرآن ، ناشر لكتب في هذا العلم عدّة ، ومن شبابنا من لا يعرف ما الإدغام وما الإخفاء ، وما المخارج وما الأداء ، ويرى اشتغاله بذلك ذلّة له ، لأنه لا يشتغل به (على ما أفهموه •••) إلاّ رجعي غير متمدن ، وشيخ جامد ••• وأمثال (برتزل) أكثر من أن يحيط بهم حصر •



تتابعت الحملات على الإسلام ، تأتيه من كل صوب ، وتهاجمه من

كل ناحية ، من ناحية الأخلاق بنشر الفسوق والخمور ، وتهوين أمر العرض ، ونشر أدب الشهوة ، وصور العراة ، ومن ناحية العبـادات بصرف الناس عنها ، والتزهيد فيها ، ومن ناحية العقائد بإدخال الشكوك عليها ، ووضع الشبَه من حولها ، ومن ناحية العلم ، بإبعاد الناشئة عن علوم الإسلام بصرفهم عن كتبه ، وتحقير علمائه في أنظارهم ، فماذا فعل علماؤنا حيال ذلك كله ؟

لا أشكّ في جلال العمل الذي قام به الشباب في مصر والشـام ، ولا أبخسهم قيمتهم ، ولا أهمل ذكر جهادهم ، وأعلم أن لهم بما عملوا لذكراً في الناس ومجداً ، وثواباً عند الله وأجراً .

ولكن كلامي هنا عن (كبار الضلماء) . ماذا عملوا في ردّ هـذه الحملات ؟

أو أقلّ من أن يؤلّفوا للشابّ المسلم كتاباً ، يعرف به دينه ، إذا ألهمه الله الرجوع إلى الدين ، وخلّصه من كيد الشياطين ؟

★ ★ ★

لقد فهمت من الرسائل الكثيرة ، التي جاءتني تبحث في فكرة تأليف الكتاب ، أن الذي يمنع العلماء من تأليف هذا الكتاب ، أن عنـدهم علوماً متميزة ، وفنوناً متباينة ، فهم لايدرون أيجعلون الكتاب فقهاً أو حديثاً ، أو أصول فقه ، أو مصطلح حديث ؟

وهذه إن لم تكن هي (العلّة) فإن عندي (دواءها) الذي يشفيها بإذن الله :

يقسّم الكتاب الى ثلاثة أبواب كبار : باب العلم ، وباب العمل ، وباب الاعتقاد .

ففي (باب الاعتقاد) يبيّن للشاب كل ما يجب عليه الإيمان به بأسلوب (عصري) بيّن ، بعيد عمّا أحدث من الخلاف ، يعرض فيه عرضاً لأهمّ الشبه التي تتردد كثيراً فيجاب عنها جواباً حاسماً باتّاً ، ويكون (مقصد) هذا الباب تكليف الشاب بالإيمان بما لا يكفي أقلّ منه للنجاة في الآخرة • وهو الذي جاء في الكتاب والحديث المتواتر الذي يفيد العلم ، أما مالم يثبت بالتواتر كنزول المسيح ، وظهور الدجّال ، ولا يكفر منكره ، فلا يبحث فيه في هذا الكتاب •

وفي (باب العلم) يلخّص له الأصول والمصطلح مع طرف من علوم القرآن ، ويكون على فصول :

الفصل الأول : في الأدلّة مجملة : الكتاب والسنّة والإجماع والقياس ، وبيان منزلة العقل من الشرع وأن الحسن ما رآه الشرع حسناً ، وأن العقل شارح لا شارع •

الفصل الثاني : في القرآن : نزوله وجمعه ومكيّه ومدنيّه ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه (مع بيان أن النسخ الذي هو إبطال الحكم السابق وإلغاؤه بالمرّة قليل جداً) وحكمة النسخ وإعجاز القرآن من جهة عجز فصحاء العرب (الفعلي) عن محاكاته ، ومن جهة ألفاظه وأسلوبه ، وعلاقته بالشعر والنثر العربيّين ، ومن جهة إخباره بالمغيّبات ، وإشارته لبعض نواميس الكون التي لم يكن يعرفها على عهد محمد بشر على ظهر الأرض ، ومن جهة إحاطته بكل شيء ، وان فيه الإيمان والعلم والقانون والأخلاق مع أنه ليس كتاب تاريخ ولا علم ، وما أراد القرآن التقصّي وإنما ضرب الأخبار أمثلة ، وأمر بالنظر في نواميس الكون لإدراك عظمة الخالق ـ والتفسير والمفسرين وطبقاتهم ، والتلاوة والأحرف السبعة والقراءات السبع وأنها ليست هي الأحرف السبعة وإنما هي على حرف واحد ، وعربيّة القرآن وترجمته وأن ترجمته

غير ممكنة لمكان المتشابه منه ، ولأن الترجمة لا تمكن في بليغ الشعر فضلاً عن القرآن لأنها تفقده أحد عنصريه وهو (موسيقية) الألفاظ — ثم تشرح آيات من القرآن .

الفصل الثالث : في الحديث ، المتن والسند ، ورجال الحديث ، وأقسامه المتواتر والمشهور والصحيح وما دون الصحيح ، والمرفوع والموقوف والمرسل ، وعن تدوينه وكتبه وما يوثق به منها ، وتصحح الراوية عنه مع شرح نماذج منه .

الفصل الرابع : في الاجتهاد ، معناه وشروطه ، وكبار المجتهدين ، وأسباب الاختلاف بينهم ، وكون الاختلاف في تأويل آية أو فهم حديث، لا في الأصول ، وحكم التنقل بين المذاهب .

الفصل الخامس : في الإجماع وفي شرح القواعد الفقهية العامة : كالمواد التي في صدر مجلة الأحكام الشرعية التي يفهمها الناس على غير وجهها ، فيحسبون أن قولهم : (لا يُنكر تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان) معناه تبديل كل حكم ، مع أن الحكم الثابت بالقرآن والسنة الصحيحة القطعية لا يمكن تبديله ، وفي المجلة أيضاً أنه (لا مساغ للاجتهاد مع ورود النص) .

الفصل السادس : في ميزة الإسلام ونظره الى السياسة والقوانين والإدارة والأخلاق .

و (مقصد) هذا الباب أن يعلم الشاب قارىء الكتاب كل ماينبغي للمسلم أن يكون عالماً به باختصار ووضوح وبعد عن المصطلحات العلمية على الأسلوب الذي يدعونه اليوم تبسيط العلم أو تعميمه

(الباب الثالث) في الأعمال ويشتمل على فصول :

الفصل الأول : حقوق الله على العبد ، ويكون تلخيصاً لباب العبادات من الفقه بشرط أن تذكر كيفية العبادة وفائدتها من غير تفصيل

لسننها وواجباتها وفرائضها ومكروهاتها ومبطلاتها ، وأن تقرن بماورد في الترغيب فيها والترهيب من تركها .

الفصل الثاني : حقوق النفس ، كنحو تحريم الانتحار والإقدام على التهلكة وإضعاف الجسم ، وفضيلة السموّ بالنفس عن الأخلاق المنحطّة والأدواء الباطنة .

الفصل الثالث : حقوق الأسرة ، كنحو حقّ الوالدين والأولاد والزوجة والأخ وفقراء الأسرة .

الفصل الرابع : حقوق المسلمين من نحو عيادة المريض منهم ومساعدة الضعيف ونصحيتهم وحرمة غيبتهم والنميمة بينهم .

الفصل الخامس : حقوق غير المسلمين ، من نحو إحسان معاملة الذمّي وحفظ ماله ونفسه وضمان حريّته التي هي له مادام على الوفاء بعهد الذمة ، والوفاء لذي العهد من المحاربين ، واحترام المبادىء الإسلامية الإنسانية في الحرب .

الفصل السادس : ما يسمى حقوق الوطن ، من نحو احترام المصلحة العامة والاستعداد للجهاد في سبيل الله والذود عن الحمى ، والتهيّؤ للتضحية ، وتعلّم الإيثار ونحو ذلك .

الفصل السابع : درجة الورع والصلاح ، وبيان الصورة الكاملة للمسلم ، وأنه يعمل للدنيا ولا يجعلها في قلبه ، ويعمل للآخرة ويستعد لها دواماً ، وتضرب الأمثلة من أخبار الصالحين من طبقه الفضيل والسفيانين وابن المبارك وابن حنبل ممن كان ورعاً وعالماً وعاملاً للدنيا في وقت واحد .

★ ★ ★

فمن اطّلع من علمائنا على هذا المقال ، وكان قادراً على كتابة فصل

من هذه الفصول فلم يكتبه ، ولم يمنعه منه مانــع ، فليعلم أنه يعين بسكوته أعداء الإسلام على ماهم فيه ، وأنلنا لموقفاًمعه بين يدي أحكم الحاكمين فنقول : يا ربنا ، سَلْهُ لِمَ قدر على إرشادنا فلم يرشدنا وهو يروي قول نبيّك محمد (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمْرِ النعم) .

فليهيىء لهذا السؤال جوابه .... وهيهات !



بمناسبة ليلة القدر

كتبت سنة ١٩٥٦

لما كنّا صغاراً ، كانوا يحدثوننا عن ليلة القدر ، التي تسجد فيها الأشجار والبيوت والجبال ، ويملأ الدنيا فيها نور سماوي ، لا يشبه نور المصباح ، ولا ضياء الشمس ، وتفتح فيها أبواب السماء للدعاء ، فلا يدعو داعٍ ، ولا يسأل الله شيئاً ، إلا استجيبت دعوته ، وأعطي سؤله في الحال ، وأنها لا تدوم إلا لحظة ، ولكن هذه اللحظة تكفل لرائيها سعادة الأبد ، وأن الجماعة من الناس تكون في المجلس الواحد ، فيرى ليلة القدر من أراد الله له الخير منها ، ولا يرى الباقون شيئاً .

وكانوا يقصّون علينا القصص الطوال عمّن رآها ، وعمّا دعا به فيها ، وأنها قد تكون في ليلة سبع وعشرين من رمضان ، فكنا نكثر تلك الليلة من الصلاة ، وننام على طُهر ، ونأمل أن نقوم من الليل فننظر فإذا الدنيا كلها سهل واحد منبسط ، لا شجر ولا جبال ولا بنيان ، وقد لبست حلّة من هذا النور السماوي ، ثم تنقضي فتقف الشجر ويقوم البناء وتنهض الجبال ، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه من قبل ، وبلغ من وضوح هذه الصورة ورسوخها في خيالي ، أنها لا تزال ماثلة في نفسي إلى اليوم ، كأني رأيتها فعلاً .

ولكن الأيام قد مرّت ، وتعاقبت السنون ، وأنا لم أرها ، وعلمت بعدُ أن ليلة القدر هي ليلة نزول القرآن ، وأنها خير من ألف شهر ، لأن الأيام لا تقاس بطولها ، ولكن بآثارها .

فربّ ألف شهر تمرّ خالية من كل خير ، وربّ ليلة تأتي فيها

الخيرات كلها ، وتفيض فيها النعم على الوجود ، وتبقى على وجه الدهر آثارها ، وتخلد مآثرها ، ولم تعرف الدنيا نعمة أجل ، ولا خيراً أعظم من نزول القرآن ، وان هذه الليلة المباركة تدور في الليالي[1] ، ورويت الأحاديث الواردة فيها ، ولكن هذه الصورة التي عرفتها في طفولتي ، لم يذهب من نفسي رواؤها ولبثت أتمنّى أن أبصرها يوماً .

فلما طال العهد ولم أجدها ، وانغمست في خضمّ الحياة ، وأصبت والحمد لله كثيراً من النعيم ، وقليلاً من البؤس ، نظرت فإذا أنا على ما أتقلّب فيه من النعيم أحسّ بوحشة في نفسي ، وفراغ ، وتطلّع إلى شيء لا أجده ولا أعرف ما هو ، وأرى لذاذات الحياة كلها ناقصة محدودة ، لكل لذة منها نهاية ، إذا بلغتها انقطعت عني ، وبقي التشوّق إلى مثلها في نفسي ، آكل أطيب الطعام فأشبع ، فلا يبقى للذّة الأكل وجود ، ويصير مجرد التفكير في طيباته أو النظر إليها ألماً ، وأمارس اللذة الأخرى ، فأشبع منها وتمرّ عليّ أو يقات أحسّ فيها بالشبع الجنسي ، فلا تغريني أجمل صور الحسن بالتفكير في تلك اللذة ، وأشعر كأن النفس تطلب شيئاً وراء هذا كله ، وراء هذا العالم المادي ، شيئاً روحياً ، ولكن عالم الروح مغيّب عنا لا نعرفه ولا ندري به ، والله لحكمة أرادها لم يُرِدْ لنا أن نعرفه ، وتركنا نجهل حقيقة أرواحنا ، التي بها نكون أحياء ، وبها نفترق عن الجثث ولم يخبرنا عنها إلا بأنها « من أمر ربّي » . فكيف أصل إلى تلك الحياة ؟

إن النفس لاتزال تحنّ إليها ، إن فيها فراغاً لاتسدّه اللذاذات المادية ، إنها تسد فراغ النفس لحظة واحدة ، لحظة واحدة تنسى فيها

---

(١) سألت الصديق الشيخ ناصر الدين الألباني وهو الثقة في رواية الحديث ، فقال بأن أصحّ ماجاء فيها أنها في ليلة سبع وعشرين من رمضان أو في العشر الأواخر منه بلا تعيين .

النفس مطالبها الروحية ، فإذا انقضت عادت إليها ، وقد وصف هذا الشعور ابن الرومي في أبيات ثلاثة ليس في شعر الغزل كله مثلها ، ولم يصل شاعر إلى أعمق من معناها :

أعانقها والنفس بعدُ مشوقة ... إليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزول صبابتي ... فيشتدُ ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى أن يرى الروحين تمتزجان

يحس بالفراغ النفسي وهو مع حبيبته، في الحال التي هي أقصى ما يتمناه عشّاق الأجساد ، ويطلب شيئاً أبعد وأعمق، هو امتزاج الأرواح، وقد لمّح إلى مثل هذا المعنى الأستاذ الأثري في قصيدة له ، وصف فيها الحسن بأنه الذي تشتهي أن تأكله عضاً ، وقد نسيت البيت ـ وما الرغبة في الأكل إلا تحقيقاً لأمنية ابن الرومي ، كأن الإنسان إذ يئس من الاندماج الروحي قنع بالاندماج المادي .

وقد قرأت في كثير من القصص ، أخبار جماعة أوتوا المال الوفير ، وكان تحت أيديهم من النساء الكثير ، وكانوا يستطيعون أن ينالوا كل لذة مادية ، ، ومع ذلك أقدموا على الانتحار هرباً من الفراغ الفظيع الذي كانوا يحسّونه ، وفهمت من هنا هذه الآية العجيبة ، والقرآن لا تنقضي عجائبه : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسم » وأي عقوبة أكبر من أن ينسى الإنسان نفسه ؟

ولبثت أفتّش عن لذائذ العالم الروحي ، فكنت أجد لمحات منه ، أحسُ معها كأني كنت سجيناً في مطبق[1] راكد الهواء ، فاسد الرائحة ، فهبت عليَّ نسمة خاطفة منعشة ، أو كأني وراء ستار مسدل ، فحرّكه الهواء لحظة فلمحت من خلاله بهاء المنظر الفاتن الذي يحجبه عني، أو كأني في ظلمة فبرق البرق ، فأبصرت في لمعانه الدنيا التي يخفيها عني الظلام .

كنت أجد هذه اللمحات ، عندما أسمع الأغنية الحالمة ، تتقلّب في

---

(١) المطبق : السجن

حضن الليل الساكن ، أو أقرأ القصة العبقرية التي تطرق أبواب المجهول، حتى إذا انتهت الأغنية ، أو ختمت القصة ، أحسست كأني كنت في حلم واستيقظت منه ، أو كأني سقطت من عالم السماء الأرحب الأنور ، إلى حفرة في الأرض ضيّقة مظلمة ، فعلمت أن هذا العالم المادي ليس كل شيء ، بل ان وراءه عالماً أجلّ وأجمل ، وأني في هذه اللحظات أستروح رائحته ، أو أطيف بأفقه ، ثم دنوت أكثر من هذا العالم ، رأيت لحظات لذة لاتقاس بها اللذائذ كلها ، هي اللحظات التي أشعر فيها بالاتّصال بالله، وأجد فيها شيئاً من حلاوة الإيمان .

من ذلك أني لما خطبت تلك الخطبة المعروفة ، في إذاعة دمشق ، أيام الحكم العسكري ، وأنكرت فيها الحفلة التي أقامتها في دمشق مدرسة أهلية للبنات ، جعلتْ فيها من بنات الأسر المسلمة في دمشق راقصات يرقصن أمام الرجال الأجانب ، تحامل عليّ الرؤساء ممن حضر تلك الحفلة ، أو كانت بنته ممن رقص فيها ، وآذوني في منصبي ورزقي ، وأثاروا عليّ أصحاب الجرائد ، وكبر عليّ الأمر ، وآلم نفسي أن يتحكم فيّ رجال مثلي ، وينقصوا رزقي ، وقعدت مفكراً وإذا بابنتي تفتح الراد ، وإذا القارىء ، أقسم بالله ، يقرأ قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » ، وإذا أنا أحسّ بشيء لا أقدر ، ولا يقدر أدباء الأرض على وصفه ، بشيء من الاطمئنان والرضا واللذة العجيبة ، كأن ما كنت فيه كان ألماً مبرحاً فسكن فجأة وأعقبه خدر لذيذ ، وكأن الغضب الذي كان يشتعل في نفسي جمرةٌ صَبَبْت عليها كأس ماء ، وكأني ما سمعت هذه الآية قط ، وكأنما نزل بها الوحي الساعة .

وقلت : يارب ، إني كنت آلم أن يتحكم فيّ بشر مثلي ، أما وقد كان منك أنت ، وكنت أنت الذي قسمته لي ، فقد رضيت .

وكنت مرة أمشي وراء مدرسة التجهيز في الليل ، وأنا أبعد ما أكون

عن التفكير في نفسي أو في الله ، فإذا أنا أقرأ لوحة في مطعم المدرسة تبدو من النافذة فيها : « وما بكم من نعمة فمن الله » وإذا أنا من حيث لا أحس أعرض في ذهني نعم الله عليّ ، وأتصورها ، فيمتلىء قلبي مسرة بها ، وحمداً لله عليها ، وأحسست أن قد قربتني هذه اللحظة من الله ، أكثر مما تقربني عبادة عشر سنين .

وكنت مرة في مصر ، وكنت شاباً قوياً [1] ، بعيداً عن أهلي ، والمغويات من كل جانب ، والتكشف في كل مكان ، وغلبت عليّ غريزتي حتى لقد هممت أن أقارف الإثم ، وكنت أسير في الطريق ، فتوجهت بقلبي إلى الله ، وقلت : يارب ، الطلب في نفسي ، وسبيل المعصية مفتحة أمامي ، وليس لي من قوة ، إلا بك ، يا الله ، ووجدتني أردد ، بإخلاص وابتهال : يا الله ، يا الله . وأحلف أن لقد أحسست بالمغويات تضمحل من حولي ، كأنها صورة في سينما ، تمحي شيئاً بعد شيء ، وأحسست بالشهوة تملص من نفسي ، كأنها تسل من أعصابي سلاً ، وشعرت بالرضا والاطمئنان وبلذة نفسية دونها لذة الوصال الجسدي ، أستغفر الله ، بل لا سبيل إلى المفاضلة بينهما ، فتلك نشوة عارمة تهز أطراف الأعصاب ، وهذه لذة مستمرة عميقة تصل إلى قرارة القلب .

وما ادعي التقى والصلاح ، ولا أحب أن أجمع على نفسي بين الغفلة عن الله وبين الكذب على الناس ، وأنا من أهل المعصية وقسوة القلب ، ورأس مالي كله هذه اللحظات .

هذه اللحظات علمتني أن الحقيقة ليست الحياة المادية ، وأن اللذات العميقة هي لذات الروح ، هذه التي كان يقول عنها الصالحون : (لو عرف الملوك ما عندنا لقاتلونا عليه بالسيف) وان ليلة القدر ليست التي تسجد فيها الشجر وتخضع الجبال ، ولكن التي يسجد فيها القلب ،

---

(١) كان ذلك من خمس عشرة سنة .

وتخشع النفس .

وان المرء قد يرى ليلة القدر ، في كل زمان وكل مكان ، في رمضان وغير رمضان ، يراها وهو في غرفته بجنب الراد ، وفي الطريق الخالي وراء التجهيز في دمشق ، وفي الشارع المائج بالفتنة في وضح النهار في القاهرة .

إنها لحظات ، ولكن هذه اللحظات هي التي نقلت أناساً من حال إلى حال .

لقد سمع سورة طه ، ولا يزال يسمعها كثيرون لا يحصيهم العد ، ولكن لما أدركت لحظة العناية عُمَرَ ، جعلته آيات من هذه السورة ، يتحول من ذلك الرجل الجاهل الكافر الغليظ الذي جاء ليقتل سيّد الخلق صلى الله عليه وسلم ، ويقترف أكبر الجرائم البشرية ، إلى عمر العبقري العظيم ، الذي كان يدير وحده إحدى عشرة دولة من دول اليوم ، وكان القاضي فيها والإمام ، ووزير المالية ووزير الداخلية والمحتسب ، وكان قائد ثلاث جبهات ، وكان يحمل مع ذلك الدقيق على ظهره ويطبخ للمرأة الفقيرة ويطعم أولادها ، وكان يعيش على الخبز والزيت ، وكان يبكي خشية أن يكون قصّر في أمر المسلمين .

ولقد سمع آية : « ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » ولا يزال يسمعها كثيرون لا يحصيهم العد ، ولكن لما أدركت لحظة العناية مالك بن دينار جعلته هذه الآية يتحول مما كان عليه إلى ما صار اليه .

ولقد قرأ سورة التكاثر ، ولا يزال يقرؤها كثيرون لا يحصيهم العد ، ولكن لما ادركت لحظة العناية (ليو بُولد) جعلته هذه السورة (محمد أسد) المسلم الذي أحسن للمكتبة الإسلامية بكتابه (الإسلام على مفترق الطرق) .

بل انها إذا جاءت لحظة العناية ، سمع المرء الموعظة في كل شيء ، ورآها في كل شيء ،كما سمع ذاك الرجل بيّاع الصعتر ينادي : (ياصعتر برّي) ، فظنها (إسعَ ترَ برّي) ، وكما رأى الآخر ، بعد ما خاب مرّات في طلب العلم ، النملة تصعد فتسقط فتعاود الصعود ، حتى وصلت بعد عشرين سقطة ، فوعظته النملة وصيّرته من العلماء .

إن لحظة العناية هي لمن تصيبه (ليلة القدر) ، وهي منحة من الله يمنحها من يشاء ، ولكن على الصيّاد أن يبسط شبكته ، وعلى الماتح أن يدلي دلوه ، وعلى طالب الرزق أن يسعى ، والذي يريد الماء يَرِد الينابيع والأنهار ، لا يقصد الصحارى والقفار ، والذي يبغي الزاد يؤمُّ الأسواق لا يطلب شعفات الجبال ، كذلك يطلب (لحظات التجلّي) من يريدها في مظانّها .

يطلبها بصحبة الصالحين ، وسماع أخبارهم ، وقراءة كتبهم ، والمشي على آثارهم .

ويطلبها في المساجد الحافلة بالمصلّين والذاكرين والمشتغلين بالعلم ، وفي المقابر الماثلة عبرة للمعتبرين .

ويطلبها بصلاة الليل في بطون الظلام والناس نيام ، وبالمناجاة في الأسحار ، حين تتحرك مواكب الملائكة ، ويتجلّى الله على الخلق ، ينادي : ألا من سائل فأعطيه ، ألا من مستغفر فأغفر له .

إن موجات الأصوات موجودة في كل مكان ، ولكنك لا تسمعها إلا بالجهاز اللاقط ، بالرادّ ، وليلة القدر ، موجودة في كل مكان ، ولكنك لا تراها إلا بالقلب المخلص لله ، المتوجّه اليه .

تراها إذا رأيت نفسك أولاً ، ثم رأيت الكون ،ثم رأيت الله[1] فيهما، وإذن تكشف لك آفاق بعيدة لايبلغها أبناء المادة ، ولا يحمل الفنانَ اليها جناحُ الفنّ ، ولا يوصل إليها إلا الايمان ، وتشعر باللذة الحقيقية التي

(١) اي صنعه وخلقه الدال عليه ، لا ان المخلوق هو عين الخالق كما يقول الاتحاديون الضالون .

لا تزال النفس تحسُّ بالشوق إليها ، وتشكو الفراغ منها ، وهي في أوج النشوة الجنسية .

هذه اللذة التي شكا فقدهـا ابن الرومي وهو في غمرة الوصـال الجسدي ، والتي انتحر الأغنياء لما عدموها وهم في ذروة الغنى والجاه والسلطان ، وهي غاية كل إنسان .

ولا أقول ، اطلبوها من كل طريق ، فإن من الطرق اليها (اليوجا) الهندية المجوسية ، وأختها في الصفة وفي الأصل (وحدة الوجود) ، ولكن من طريق الشرع ، طريق الكتاب والسنّة ، طريق السلف ، طريق المراقبة وأن تحسّ دائماً أن اللهمعك ، لا معيّةً ذات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل معيّة السمع والبصر ، هو معك يسمعك ويراك ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد ، فان أحسن إليك أحد كافأته لإن الإحسان جرى على يديه ، ولكنك رأيت أن الله هو المحسن الحقيقي ، وإن أساء إليك أحد ، رأيته واسطة وما كان فهو من الله ، ولعله كان لخير يريده بك ، فتكون راضياً في الحالين فترى الآلام لذائذ ، وتحس في غمـرة القلق بَرْد الأمان .

لما كنت في رحلة المشرق ، وامتدّت بي تسعة أشهر تباعاً ، كنت أفكر في بناتي ، هل عراهنّ شيء ؟ هل أصابتهن مصيبة ؟ ثم أقول لنفسي : يانفس ويحك ، هل كنت تخافين لو كان معهن أخ يحنو عليهن ، أو جدٌ يحفظهن ، فكيف تخافين والحافظ هو الله ، ولو كنت أنا معهن هل أملك لهن شيئاً إن قدر الله الضرّ عليهن ؟

فلا ألبث أن اشعر بالاطمئنان .

ودهمني مرة همٌ مقيم مقعد ، وجعلت أفكّر في طـريق الخلاص ، وأضرب الأخماس بالأسداس ، ولا أزال مع ذلك مشفقاً مما يأتي بـه الغد ، ثم قلت ، ما أجهلني إذ أحسب أني أنا المدبّر لأمري ، وأحملهمّ

غدي على ظهري ، ومن كان يدبّر أمري لمّا كنت طفلاً رضيعاً ، ملقى على الأرض كالوسادة ، لا أعي ولا أنطق ولا أستطيع أن أحمي نفسي من العقرب إن دبّت إليّ ، والنار إن شبّت إلى جنبي ، أو البعوضة إن طنّت حولي ، ومن رعاني قبل ذلك جنيناً ، وبعد ذلك صبيّاً ؟ أفيتخلّى الله الآن عني ؟

ورأيت كأن الهمّ ثقل كان على كتفي وألقي عني ، ونمت مطمئناً .

وباب الاطمئنان ، والطريق إلى بلوغ حلاوة الإيمان ، هو الدعاء ، أدعُ الله دائماً ، واسأله ما جلّ ودقّ من حاجاتك ، فإن الدعاء في ذاته عبادة ، وليس المدار فيه على اللفظ البليغ ، والعبارات الجامعة ، وما يدعو به الخطباء على المنابر ، يريدون إعجاب الناس بحفظهم وبيانهم ، أكثر مما يريدون الإجابة ، فإن هؤلاء كمن يتكلّم كلاماً طويلا في الهاتف (التليفون) وشريط الهاتف مقطوع ، بل المدار على حضور القلب ، واضطرار الداعي ، وتحقق الإخلاص ، وربّ كلمة عامية خافتة ، مع الإخلاص والاضطرار ، أقرب إلى الإجابة من كل الأدعية المأثورة تلقى من طرف اللسان .

فإن أنت أدمت صحبة الصالحين ، ومراقبة الله ، ولازمت الدعاء ، وجدت ليلة القدر في كل يوم ، ولو لم تفد من هذا السلوك إلا راحة النفس ، ولذة الروح ، لكفى ، فكيف وأنت واجد مع ذلك سعادة الأخرى ، ورضا الله .



وبعد فهذه خواطر بمناسبة ليلة القدر ، لا أريد أن أفسّر ليلة القدر بأنها ماذكرت ، ولكن أردت أن أضيف إلى معانيها معنىً جديداً .

وأكرر القول مرة ثانية ، اني لست من الأتقياء البررة الصالحين ، وأن هذه الحوادث التي ذكرتها هي رأس مالي كله ، ضربت بها المثال ،تأكيداً للمقال ، وأنا أحوج إلى الاتّعاظ بمـــا وعظت به ، وأنا أســـأل الله ألا يجعلني من الذين يأمرون بالبر وينسون أنفسهم .



كلمة في الاجتهاد والتقليد

كتبت سنة ١٩٥٢

من نحو ست سنوات، ندبتني وزارة العدل في سورية، إلى إعداد مشروع لقانون الأحوال الشخصية، وكان العمل في محاكم الشام الشرعية (ولا يزال) بالراجح من مذهب أبي حنيفة، إلا ما نص على غيره في قانون العائلة، الذي أصدره العثمانيون قبل الحرب الأولى، وعدلوا فيه طائفة من الأحكام تشبه في الجملة ما اشتملت عليه القوانين التي صدرت في مصر قبل سنة ١٩٣٠، وبقي العمل بهذا القانون إلى الآن [1].

فكان المرجع القانوني للقضاة في الأحكام الموضوعية قانون العائلة، فإن لم ينص فيه على حكم رجع إلى كتاب الأحكام الشرعية لقدري باشا رحمه الله، وإلى كتب الفتوى في المذهب، كحاشية ابن عابدين، وتنقيح الحامدية، وجامع الفصولين، وأمثالها من كتب المتأخرين.

فلما شرعت بإعداد المشروع، جعلت كتاب قدري باشا هو الاصل، ووضعت أمامي قانون العائلة، والقوانين المصرية، وكتب المذهب، والمذاهب الثلاثة الاخرى، وغيرها من الكتب الفقهية ككتب الشوكاني، وابن حزم، وابن تيمية، وابن القيم، ونظرت فعرضت لي مشكلة: هل ينبغي الوقوف في الترجيح عند مارجّحه الفقهاء المتأخرون وعلى رأسهم الإمام ابن عابدين جزاه الله خيرا؟

ثم جاوزت ذلك فسألت نفسي: هل يجب ان نقتصر على المذهب الحنفي؟

---

(١) أي إلى عهد كتابة هذا الفصل.

ثم سألت : هل من الواجب علينا التقيّد بالمذاهب الأربعة الرسمية؟ وإذا أردنا أن نأخذ من غيرها ، هل نصنع كما صنعت مصر ، فنعين أولا الحكم الذي نراه أوفق للمصلحة ثم نفتّش عن قائل به[1] ، سواء علينا أكان هذا القائل معروفاً أم كان مجهولا ، وكان هذا القول مروياً بالسند المتّصل أم كان مذكورا عرضاً ، أو منقولا على لسان المخالف للردّ عليه .

أم ننظر في الدليل ، فإن قام دليله أخذناه ، وإلا نبذناه ؟

وجرّتني هذه الافكار إلى تحديد موقفي (كما يقولون اليوم) من مسألة الاجتهاد والتقليد .

وكنت قد نشأت نشأة غريبة ، فواليت الدراسة في المدارس النظامية الابتدائية والثانوية والعالية ، وكنت مع ذلك أتردّد صباحا ومساء على المشايخ ، وأجلس في حلقاتهم وآخذ عنهم العربية والفقه على الاسلوب القديم .

وكنت قريباً من جوّهم إذ كان والدي من أعيان علماء الشام وكانت إليه أمانة الفتوى في دمشق .

فكان أول ماستقرّ في ذهني أن الاجتهاد سدّ بابه من قرن كذا (نسيت الآن من أي قرن سدّوه) ، وأن القائلين بفتحه مبتدعة ووهّابية لايعتدّ بهم ، ولايلتفت اليهم ، وأن للفقهاء طبقات في التقليد ، عدّها ابن عابدين في أول الحاشية ، وأن علماءنا الأحياء من الطبقة الدنيا منها ، وأنهم ليسوا أهلا للتخريج أو الترجيح فضلا عن الاجتهاد .

ولكني فكرت بهذا المبدأ بحكم دراستي النظامية ، ونقدته بعقلي الآخر ، الذي كوّنته المدارس وعلومها ، فوضح لي أن هذا المبدأ

---

(١) أنظر كلمة الاستاذ المراغي رحمة الله عليه في ضبط الجلسة الاولى للجنة الأحوال الشخصية ، وهوفي ادارة التشريع في وزارة العدل المصرية.

صحيح ، إن كان المراد بالاجتهاد ، أن نلغي كل ماوصل اليه فقهاء المذاهب الاربعة ، ونؤسّس مذهبا خامسا من جديد ، نضع له أصولاً جديدة ونبني عليها الفروع الجديدة ، فنكون كمن يهمل كل ماوصلت إليه صناعة الطيران ويعيد محاولة العبّاس بن فرناس ليصنع طيارة يطير بها .

أما إن كان المراد منع الاجتهاد إطلاقا فليس بصحيح .لأنها قد تجِدُّ أحداث لم تكن على عهد ابن عابدين ، ولا بدّ من بيان حكم الله فيها ، والكلام فيها ضرب من الاجتهاد ، ثم إن سدّ باب الاجتهاد بالكليّة حظرٌ على الله أن يخلق كأبي حنيفة ، وهذا محال .

فلما بلغتني مقالة من يقول بمنع التقليد ، ووجوب الاجتهاد على جميع المكلفين ، أعجبتني هذه المقالة لجِدّتها ولأنها حرّرتني من تلك التي كنت اشك فيها وأشكو منها ، ولكني لما انعمت فيها النظر ، وجدتها أكثر إمعانا في الخطأ من تلك وأبعد عن الصواب .

فحاولت أن أبعد عن ذهني أقوال الطرفين ، وأن أجد السبيل الى الحق بينهما .

فرجعت إلى أدلّة الشرع فلم أجد نصاً في المسألة ، ووجدت أن الصحابة كان يفتي منهم أقل من ثلاثين ويرجع الباقون اليهم ، ويأخذون بأقوالهم ، ولكن من غير التزام لمذهب واحد منهم بعينه ، أو تسمية لمقلّد ومجتهد ، أو ذكر لاجتهاد وتقليد .

فلما لم أقع على نقل في المسألة يوقف عنده رجعت الى العقل ، فوجدت أن لكل علم من العلوم منقطعين اليه مشتغلين به ، وغرباء عنه زاهدين فيه جاهلين بأحكامه .

فإذا كانت لك قضية في المحكمة ولم تكن من أهل القانون اضطررت الى الرجوع الى المحامين و (تقليد) احدهم فيما يؤدي به اليه (اجتهاده)

وإن عزمت على بناء دار رجعت الى المهندسين .

وإن مرض ولدك راجعت الاطباء ، فإن رأى الطبيب الذي درس في فرنسا شفاء الولد في علاج ، ورأى الطبيب الذي تخرج في امريكا مضرّته في هذا العلاج ، ولم يكن بدٌّ من (تقليد) أحدهما ، ولم يكن لك طريق الى ترجيح واحد من القولين فماذا تصنع ؟

تستفتي قلبك . وتميل إلى ما يميل إليه !

وهذا هو حال المقلّد العاميّ في أمور دينه .

فلا بدّ إذن من التقليد في علم الدين وفي علوم الدنيا ، لانه يستحيل أن يكون كل إنسان عارفاً بكل علم ، له فيه رأي وبحث واجتهاد .

لكن إذا كنت تفهم شيئاً من أحوال هذا المرض ، كأن سبقت لولدك الإصابة به ، وجرب العلاج وعرف أثره ، فإنه لا يمنعك من الترجيح ، ومن الرد على أحد الطبيبين ، أنك لست طبيباً ولا عالماً بالطب ، ولست عارفاً بأحوال الامراض كلها .

وكذلك من بحث في مسألة من مسائل الفقه ، ونظر في أدلة من تكلم فيها ، وكان له معرفة بعلم الاصول ، ومقدرة على فهم كلام العرب ، لايمنعه من أن يكون مجتهداً فيها ، أنه لامعرفة له بغيرها ، ولا يسعه تقليد من يقول بعكس ماأوصله اليه اجتهاده .

فإن كنت أديباً متمكناً من العربية ، وراجعت في مطوّلات كتب الفقه ، باب القراءة خلف الامام ، ونظرت في ادلة كل فريق ، ورجعت إلى كتب الحديث ، فعرفت درجة كل حديث منها ، ومبلغه من الصحة ، وكان لك إلمام بالأصول ، ورأيت أن الحق مع المالكية في الانصات عند جهر الامام ، والقراءة عند إسراره ، كنت مجتهدا في هذه المسألة ، ولم يجز لك أن تقلّد فيها أبا حنيفة ، وإن كنت حنفياً ، بعد هذا الاجتهاد[1] .

---

(1) قرّر هذا ابن عابدين في اول الحاشية .

وفكرت بعد ذلك في التلفيق ـ هل يجوز ؟

فرأيت أنه لابدّ من التفريق بين التلفيق عن هوى ، أو عن نظر واجتهاد ، وبين أن يكون من العامّي ، أو من العالم .

أما التلفيق عن هوى ، أو من العالم بأنه تلفيق فلا يجوز .

وأما التلفيق عن بحث ونظر ، أو من العامّي فجائز ، لأن العاميّ لامذهب له ، ومذهبه مذهب مفتيه .

هذا كله للفرد الواحد ، ليقيم أمر دينه ، ويبرىء ذمته .

أما في التشريع للناس ، فلا بدّ مع النظر في صحة الدليل ، من معرفة حاجة الناس ، وجعل العرف (إن كان عاماً) ومصلحة الناس من جملة الأدلّة[1] ، وهذا ماجرى عليه علماؤنا حين جعلوا من الادلّة رفع الحرج ، وعموم البلوى ، والعرف ، وبنوا على ذلك فروعا كثيرة معروفة ، وقواعد ، منها أن للإمام أن يأمر بالمباح فيصير واجباً (ذكر ذلك في الحاشية والاشباه) ، وأن يأمر الحكام باتّباع أحد القولين .

ولقد وجدت خلال اشتغالي بوضع مشروع القانون ، أن في المذهب أحكاماً ثابتة بالنص القطعي ، كمنع الوصية للوارث ، ولا أزال أعجب كيف خالفتها مصر ، ولا أجد لها وجهاً برغم المباحث والمناقشات الطويلة التي كانت بيني وبين الاستاذ العلاّمة الشيخ فرج السنهوري في داره العامرة في مصر ، وفي مكتبه في وزارة العدل .

وأحكاماً فيها نص ، ولكن النصّ فيها كالفقرة الحكيمة المبنية على (حيثيات) . أخذ قومٌ بالحكم وحده (وهم الذين كانوا يسمون بأصحاب الحديث) وقوم كانوا ابعد نظرا ، وأدق فهما ، نظروا الى (الحيثيات) والاسباب ، فلم يجعلوا الصاع من التمر في مسألة المُصرّاة هو القاعدة ، بل ثمن اللبن الذي أخذه المشتري من الضرع ،

---

(١) راجع الرسالة القيمة (نشر العرف في احكام العرف لابن عابدين) .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما حدد الصاع إلا لانه كان عدلاً له .

وأحكاماً مبينة على استقراء ، كتحديد اكثر الحمل بسنتين عندنا ، ولا يمنع مانع من تبديل هذه الاحكام ، إن ثبت بالاستقراء التام ، غير ماثبت لدى الاولين بالاستقراء الناقص .

وأحكاما مبنية على نص ، بوصف من الاوصاف ، لكن النص لاينطبق عليها بوصف غيره ، كابن المحروم لايرث من جدّه مع وجود الاعمام ، ولكن يعطى مثل نصيب ابيه (في حدود الثلث) بوصف ذلك وصية واجبة .

وقد كان في نفسي من ذلك شيء : كيف يحرم الله هذا الحفيد ونعطيه نحن ؟

وترددت قبل وضع هذا الحكم في مشروعي ، وجادلت الاستاذ السنهوري فيه جدالا طويلا ، ثم شرح الله صدري ، حين ذكرت ان المسلمين الاولين كان يكفيهم الندب لاعطاء هذا الحفيد ، فلما قصّر الناس في أداء المندوبات ، كان من المصلحة امر الحاكم الناس به . وكان في ذلك تحقيق الاعطاء الذي أراده الشرع حين ندب اليه .

وأحكاماً مبنية على نص يقابله نص آخر ، وليس من مانع من الرجوع الى النص الآخر ، كمسألة طلاق الثلاث بفم واحد .

وأحكاماً مبنيةعلى اجتهادين : اعتبار مدلول اللفظ أو قصد المتكلم، كمسألة الحلف بالطلاق أو استعماله للحثّ على فعل او المنع منه ، ولا وجه لإيجاب احد الاجتهادين حتماً ، ومنع الآخر حتماً .

وأحكاماً لم ينص عليها ، نستطيع أن نقرها سداً للذريعة ، كمنع المتزوج من الزواج مرة ثانية إلا بعد إثبات مقدرته على الاتفاق عليهما معاً ، وذلك خير من الاذن له بالزواج ثم الطلاق عليه لعدم الاتفاق ، أو تحقيقاً للمصلحة ، كمراعاة الكفاءة في السن بين الزوجين ، وعدم

الإذن بالزواج ان كان الفارق بينهما فاحشاً أربعين أو خمسين سنة مثلاً أو ايجابا لمندوب كأن نلزم من يطلّق زوجته طلاقاً تعسفياً يؤدي بها الى العوز والفاقة بتعويض فوق المؤجل يقدّره القاضي [1] .

★ ★ ★

هذه خواطر ماأردت بها الإحاطة بالموضوع ، ولكن فتح باب البحث فيه .



أهل الفتوى الأولون

قال ابن القيّم في أعلام الموقّعين (١ : ٩) :

الذين حفظت عنهم الفتوى من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة ونيّف وثلاثون نفساً مابين رجل وامرأة .

وكان المكثرون منهم سبعة : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعائشة أم المؤمنين ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عبّاس ، وعبد الله بن عمر .

وقال ابو محمد بن حزم : ويمكن ان يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم . قال : وقد جمع ابو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن امير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في عشرين كتابا . وأبو بكر محمد المذكور أحد ائمة الإسلام في العلم والحديث .



---

(١) هذه الاحكام كلها قررت الآن وصارت قانونا .

علم التوحيد

نشرت سنة ١٩٥٣

لقد علّمت في الكلية الشرعية في دمشق ، والكلية الشرعية في بيروت والكلية الشرعية في بغداد ، منذ أكثر من خمس عشرة سنة ، وكلها قد انشىء على غرار معاهد الازهر وكلياته وكلها يتبع مناهج قريبة من مناهجه .

فكنت أعجب من القائمين عليها كيف يهملون (علم التوحيد) ، ويسمون باسمه ، ويقيمون مقامه (شيئاً) هو أبعد عن التوحيد ، من الارض عن السماء ، مع أن التوحيد من الدين ، بمقام الروح من الجسد وأنه أول أغراض الرسل جميعا ، وأعظم مقاصد القرآن ، ولأجله بُعِثَ الأنبياء وشرعت الديانات .

والذي يقرأ اليوم على أنه توحيد ، مما اشتملت عليه العقيدة النسفيّة وأمثالها (ولا استثني من ذلك رسالة الشيخ محمد عبده) لايكاد يقوي عقيدة ، ولا يثبت ايمانا ، ولا يبعث في النفس خشية الله ، ودوام مراقبته ، ولا يدفع الى اخلاص في عبادة ، ولا يذيق صاحبه حلاوة الايمان .

يخاطب العقل بالمنطق ، وكان من حقه أن يخاطب القلب بالشعور ، وربما انتهى الى جدل عقيم لايلد فائدة ، ولا ينتج نفعا .

وأعجب ما فيه رواية شبه أقوام انقرضوا ، وتلقين الطالب ضلالاتهم (وكفريّاتهم) التي لم يبق اليوم أحد على ظهر الارض يعرفها أو يقول بها

ولقد كان المسلمون الاولون ، وهم أئمة الدين ، وصفوة المؤمنين ، لايعرفون من علم التوحيد ، إلا الآيات التي أنزلها الله في القـرآن ، أقبلوا عليها تلاوة خاشعة ، وعلماً وفهماً ، فأعطاهم الله بها إيمانا ثابتا ، ظهر في كل حركة من حركاتهم ، وسكنة من سكناتهم ، وكانوا يعلمون أن للايمان شعباً تجمع مطالب الخير والحق كلها ، فكـانوا متمسكين بِشُعَبِه جميعاً ، من تنزيه الله عن الشريك ، وإخلاص العبادة والدعاء له ، وابتغاء الخير منه ، والاستعانة (فيما وراء الاسباب) به وحده ، إلى مايبدو أنه ايسر أعمال الخير وهو إماطة الاذى عن الطريق

وكانوا لايأتون المحرّمات ، لأنه (لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن ، وكيف يزني وهـو (مؤمن) بأن الله مطّلع عليه ، وناظر اليه ؟ هل يستطيع أن يزني من يعلم أن اباه أو استاذه ، قائم في شبّاك ينظر اليه ؟

وكانوا أهل نظافة وطهارة في ثيابهم ، وأجسـادهم ، ومساكنهم ، وألسنتهم لايدنّسونها بالخَنَا ، وأعمالهم لايوسّخونها بالغش والرياء والفسوق والعصيان ، لان (النظافة من الايمان) .

وكان في عصرهم مخالفون لهم من كل نِحلة ومذهب ، فما ضرّهم في ايمانهم ومناظرتهم لخصومهم انهم لم يدرسوا علم الكلام ، ولم يعرفوا منطق أرسطو ، ولم يقرؤوا النسفيّة ولا ما يشبه النسفيـة ، ومـا احتاجوا ان يسلكوا في جدال هؤلاء المخالفين والرد عليهم غير مسلك القرآن .

ومرّ على ذلك القرن الاول ، وهو خير القرون ، وشيء من الثاني، ثم نجمت في الامة طائفة المتكلمين من المعتزلة ، وقد أجمعت كلمة العلماء في عصر نشأتهم على إنكار بدعتهم ، وتقبيح نحلتهم على ماكان لهم من إخلاص في نيّة الذبّ عن الاسلام ، وثبات في مواقف الدفاع ، وبصر

بصناعة الجدل ، وما كان لهم من سعة علم ، وحدّة نظر ، وروعة بيان •

واتفق أن إماما من أئمتهم ، ولسانا من ألسنهم ، ترك الاعتزال ورجع الى الجماعة ، ولكنه حمل معه تفكيره وأسلوبه وطريقته ، وهو أبو الحسن الاشعري ، فلم تتحوّل هذه الطريقة حتى تصير سلفيّة قرآنية ولكن تحولت طريقة السلف به فصارت منطقية عقلية ، واختفى بذلك التوحيد الذي كان مصدره ومرده ، الى آيات القرآن لايعرف غيرها ، ولا يعتمد الاعليها ، ونشأ علم الكلام ، الذي يعتمد على منطق أرسطو •

والغريب أن هذا العلم الذي نسمّيه خطأ بـ (علم التوحيد) وندرسه في مدارس الدين ونشغل به الطلاب ، ونأخذه على أنه طاعة من الطاعات ، وقربة من القربات ، قد كرهه علماء الملّة وأئمة الاسلام ، ولما وصل المصري الذي ارسله ابن العاص الى عمر بن الخطاب ووجده يتكلم في شيء يشبه علم الكلام اليوم ، بسؤاله عن معنى الاستواء وأمثال ذلك من المتشابه ، ضربه ونفاه وأمر الناس بمقاطعته ، مع أن ماضربه لاجله هوماتمتلىء به كتب علم الكلام الذي نسمّيه علم التوحيد•

ومالك لما سئل عن ذلك عدّ السؤال بدعة ، وجوابه مشهور معروف•

ونهى أبو حنيفة ابنه عن مناظرة رجل كان يناظره في القدر وأمره ألا يعود • ومنع أصحابه من الصلاة خلف رجل كان يتكلم في خلق القرآن وآخر كان يرد عليه ، فقيل له الاول ينكر قدم القرآن ، فما بال الآخر ؟ قال : ينازع في الدين ، والنزاع في الدين بدعة ، وروي عنه النهي عن الصلاة خلف أصحاب الكلام •

وقال الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة وأقبل على كلام أهل البدعة ، ونقل عنه انه قال : (لأن يلقى العبد الله بكل ذنب خلا الشرك خير" له من أن يلقاه بعلم الكلام • وقال :

إذا سمعتم الرجل يقول الإسم هو المسمّى أو غير المسمّى ، فاشهدوا أنّه من أهل الكلام) .

وقال احمد بن حنبل : علماء الكلام زنادقة وقال : لايصلح صاحب الكلام أبداً .

★ ★ ★

وقد يقول قائل ، ان هذا كله فيمن جاء بما يخالف نصوص القرآن وظواهره ، من المعتزلة وأشباههم . فما يقول هذا القائل فيما روي عن جماعة نعدّهم اليوم من أكابر علماء أهل السنة والجماعة ، مارسوا علم الكلام حتى صاروا الأئمة فيه ، وصرنا نأخذ عنهم اكثر مانملأ به كتبنا التي ندرسها في معاهدنا وكليّاتنا ، ثم ندموا واستغفروا ، وتابوا وأنابوا ، اولهم الاشعري ذكر في كتاب (الإبانة) وهو آخر كتاب ألّفه ، أنه رجع في عقائده الى مذهب السلف[1] ، ورجع الغزالي الى مذهب السلف ، ذكر ذلك في كتابه (الجام العوام) وأعرض عن تلك الطرق جملة حتى مات والبخاري على صدره [2] والرازي قال :

ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية . فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت اقرب الطرق طريق القرآن . اقرأ في الآيات « الرحمن على العرش استوى » و «اليه يصعد الكلم الطيب » واقرأ في النفي « ليس كمثله شيء » ، « ولا يحيطون بشيء من علمه » الى ان قال : ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل تجربتي .

وهو القائل :

نهاية إقدام العقول عقـال — وغاية سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

---

(١) التعليم والإرشاد للحلبي ص ١٧٠ طبع مصر ١٩٠٦ . وهي رواية لم تثبت .

(٢) شرح الفقه الاكبر لملاّ علي القاري ص ٥ طبع مصر ١٣٢٣ .

والشهرستاني يقول في الفلاسفة والمتكلمين :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كف حائر ... على ذَقَن أو قارعاً سن نادم

وأبو المعالي الجويني قال : يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به • وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذين نهوني عنه • والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني •

إلى أن قال ـ وهأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور •

وقال الخسروشاهي وهو من أجل تلاميذ الفخر الرازي لبعض الفضلاء : ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون • قال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ؟ قال : نعم • قال : أحمد الله على هذه النعمة • فإني والله ما أدري ما أعتقد • وبكى حتى اخضلّت لحيته •

وقال الخونجي عند موته : ما عرفت شيئا مما حصّلته سوى أن الممكن مفتقر إلى المرجح • ثم قال : الافتقار وصف سلبي • أموت وما عرفت شيئا •

وقال آخر : أضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجّح عندي شيء منها • فأين بعد هؤلاء ؟ وهؤلاء هم أعلام الكلام في الإسلام •

★ ★ ★

هذا هو علم الكلام الذي نشتغل به اليوم ، نشتغل بالصفات وهل هي عين الماهيـة أو شيء زائد عنها ، والأعراض وهـل تبقى زمانين ،

والطفرة والاستطاعة وخلق القرآن وأشياء أخر قرأتها من قديم ونسيتها ولله الحمد .

وليس بعض من يسمون أنفسهم بالسلفيين على خير من هذه الحال، فهم يشتغلون بالمتشابه الذي ضرب عليه إمام السلف الصالح عمر بن الخطاب ، ولا دأب لهم إلا الكلام في اليد والوجه والاستواء ينكرون التأويل وهو من سنن العرب في كلامها[1] ، والقرآن أنزل بلسان العرب ، ولا يعرفون كيف يخرجون مما أدخلوا نفوسهم فيه من هذه المضايق ، فيقع الجهلة منهم بالتجسيم وهم لا يدرون ، ويأتون على ادّعائهم السلفية بما لم يعرفه السلف من مثل قولهم : الله بائن من خلقه . وإلزامهم صغار الطلبة والمبتدئين بحفظ ذلك واعتقاده .

فهل هذا هو التوحيد الذي بعث الله به محمداً ؟ هل هذا هو الطريق الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله ؟ أمبتدعون نحن أم متّبعون ؟ ومصلحون نحن أم مفسدون ؟

إنني أرجو من أستاذنا وصديقنا العلاّمة الأديب المصلح السيد الخضر ، شيخ الإسلام علماً ومنصباً أن يأمر بتعديل المناهج[2] ، وإلغاء هذه الكتب جملة واحدة . وأن يجعل علم التوحيد مقصورا على إفهام الطلاب آيات التوحيد في القرآن ، على إفهامها ولم أقل على تفسيرها ، لئلا يدخل من باب التفسير شيء مما في تفسير الفخر وأمثاله وأن يتولى ذلك مدرّس حاضر القلب ، قوي الإيمان ، من المسلمين الصادقين ، والعلماء العاملين ، يعلم بفعاله أكثر مما يعلم بمقاله ، ويصلح بصلاح

---

(١) وما أدري ما يقول منكرو التأويل في مثل قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) (ومكروا ومكر الله) ؟

(٢) كلفتني وزارة الاوقاف من شهور بوضع مناهج الثانويات الشرعية في الشام ، فوضعتها كلها ومنها منهج جديد لعلم التوحيد جرى العمل عليه من مطلع هذه السنة المدرسية .

نفسه أكثر مما يصلح بنجاح درسه .

وأن يكون المنهج منهج الرسول في تلقين التوحيد لمن كان يفِد عليه من الكفار ، يقيمون اليوم أو الأيام ، ويسمعون الحديث أو الأحاديث ، فينصرفون وهم مؤمنون ، وهم عارفون بالإسلام ، وهم دعاة إلى الله ، وما تعلموا منطق أرسطو ، ولا ناقشوا في رؤية الله في الآخرة ، ولا لقّنوا أنه بائن من خلقه !

وأن يتفرّغ بعد ذلك بعض كبار الطلبة لدراسة علم الكلام الذي ينبغي أن يوضع من جديد ، العلم الذي يرد على الخصوم الأحياء من الشيوعيين والقوميين الملحدين والقاديانية والأحمدية والبهائية والتيجانية ، يدرس مقالاتهم المعادية للإسلام ، ويبين ضعفها وفسادها ، ولا يشتغل إلا بالشبه الذائعة المنتشرة وإلا كان عوناً للعدو علينا ، ومذيعاً لضلالاتهم فينا ، وينبغي أن تعين الطوائف التي يجب الرد عليها في مطلع كل سنة مدرسية . وأن يترك الرد على الجهمية والمعطلة والمشبهة وما لا أذكره الآن من ألقاب المخالفين ، إلى الأبد !

وبذلك نكون قد دعونا إلى الإيمان ، ودافعنا عن الإسلام .



تعميم الثقافة الاسلامية

كتبت سنة ١٩٤٥

أحسب أن هذا الفصل لن يجوز إلى مصر ، ويكون في أيدي القراء، إلا بُعَيْد اليوم الذي يتخذه المسلمون عيداً ، ويذكرون فيه هجرة سيّدهم وسيّد العالم محمد صلّى الله عليه وسلم ، ويذيعون فيه سيرته وشمائله ، وتروج فيه سوق المباحث الإسلامية ، وتجري بها أقلام الكتّاب ، وتمتلىء بها صحف المجلاّت •

ولن أعود فيه إلى حديث كتاب الدين الإسلامي الذي طالما تكلمت فيه في الرسالة وأفَضْت ، وبدأت وأعدت ، فكنت كنَافخ في غير ضَرَم، وصارخ في واد •

وإن الصارخ في الوادي ليسمع رَجْع الصوت ، ونافخ الرماد ينشر الغبار ، ومقالاتي لم تحرك من هؤلاء (العلماء •••) ساكناً ، ولم ترجع لها الأيام صدى ، مع أن المقبرة ••• تردّ الصدى على من يصرخ بين القبور !

ولكنني متكلم اليوم في تعميم الثقافة الإسلامية ، تعميماً يعرف به الناس (أعني المسلمين) دينهم ، ولا يكون مسلماً حقاً من لم يعرف دينه ، ومن يكتفي من الصلة به بأن أبويه كانا مسلمين ، وأن اسمه محمد أو علي لا جورج ولا طنثوس ••• ولا يكونه أبداً إلا إذا عرف حقيقة الإسلام وألمّ بعلومه ، وعلم الحلال من الحرام ، ولا يكون ذلك إلا في المدارس والمساجد ، فالمدارس للناشئة والمساجد للعامّة ، وكلاهما اليوم في قصور عن هذه الغاية بيّن :

أما المساجد فليس تخلو من أثارة علم ، هي بقيةٌ من ذلك الفيض العظيم ، كالذي يبقى في الوادي من ماء السيل ، ليس فيه عوضٌ منه ولكن فيه دليلٌ عليه .

ولقد غبر دهر كانت فيه المساجد ، بمثابة جامعات اليوم ، تدرّس فيها كل معضلة ، ويقرأ كل علم حتى الطب . لا أمثّل على ذلك بمساجد الكوفة والبصرة قديماً ، وبغداد والفسطاط ، فذلك شيء مستعلن خبره متواتر مشهور ، ولكن أمثل بما كان يرى من حلقات العلم ، من قريب ، في مسجد دمشق ومساجد القاهرة وبغداد ، وما يُرى اليوم في النجف من حِلَقٍ كثيرة يدرّس فيها مذهب القوم ، وتقرأ فيها العلوم على الطريقة التي يرتضيها لأنفسهم علماء تلك الديار ومتعلّموها .

فلم يبق من ذلك (حاشا النجف والأزهر) إلا حلقات قليلة ، ومجالسُ وعظ ، كثيراً ما يتولاها غير أربابها ، ويتصدّر فيها من لم يكن يطمع في الجلوس في حواشيها ، يلقي فيها ما يجتمع على إنكاره الدين والعقل والذوق ، من التحريف والتخريف والباطل الموضوع والسخيف الواهي ، ولقد كان تدريس (القبّة) في جامع دمشق لأكبر علمائها ، وآخر من تولاّه البدر الحَسَني رضي الله عنه ، فصار اليوم لكل ذي عمامة مكوّرة ولحية مدوّرة ، وصوت يصكُّ الآذان !

وكذلك اختفت من المساجد حِلَقُ العلم الحق ، وتوافرت فيها مجالس الوعظ الباطل ، والقصص الموضوع ، ولدينا عدد عديد من العلماء الذين نصبتهم الحكومة مدرسين للعامة ، فلبثوا في بيوتهم ما يراهم من أحد ، اللهم إلا (أمين الصندوق) أول يوم من الشهر والحاكمون ذوو السلطان في كل عيد مهنّئين ، وكل سفر مودّعين ، وكل قدوم مسلّمين ، وعندماتشغر (وظيفة) ليقاتلوا عليها،ويحاربوا دونها...

★ ★ ★

أما المدارس فحديثها أطول ، والبلاء بها أشدّ ، وهي على ضروب :

فَضرب منها لأناس ليسوا منا ، ولا لسانهم بلساننا ، ولا دينهم من ديننا ، قدموا علينا أرضنا ، وأخذوا أبناءنا ، ليخرجوهم أعداء لنا ، ويجعلوا منهم أداة من أدوات (التمدين) التي رأينا أشكالاً منها مؤذية وألواناً ... منها العازارية والفرنسيسكان والفرير واللاييك والأميركان .

وواضح لا يحتاج إلى إيضاح أن هذه المدارس لا تدرّس الفقه ولا الحديث ، ولا تعنى بعلوم اللسان . وأنها أنشئت لغير هذا . وما كتمت منهجها ولا أخفته ، ولا خدعت الناس عنه ، ومع ذلك نجد تجاراً مسلمين ، بل وعلماء يدعون أنهم الهادون المهديون ، الصالحون المصلحون ، قد أرسلوا إليها أبناءهم وبناتهم ... وقد ظهر بعد أن أغلقت[1] هذه المدارس (والحمد لله) أن أكثر تلاميذها ، بل جمهورهم من المسلمين !

وضَرب منها لأناس من عامّة هذا الشعب ، ضاقت بهم سبل العيش ، فلم يجدوا لهم طريقاً إلى الكسب ، فاستأجروا بيوتاً أووضعوا أيدَيهم على غرف مظلمة في مساجدمهجورة ، فسموهامدارس،وسَمّروا أخشاباً بأخشاب فَدَعَوها مقاعد ، وأجلسوا عليها أُغَيلِمَةً جعلوهم تلاميذ ، وتمت الرواية لما صاروا هم المعلّمين ... وهذه المدارس (المسرحية) لاتصنع في نشر الثقافة الإسلامية شيئاً لأنها لا علم فيها أصلاً وهي آخذة بالزوال ...

وضَرب منها مدارس أهلية كبيرة ، كثيرة التلاميذ والمدرسين ضخمة البناء يديرها أفراد أو جمعيات ، ومنها مايقوم عليه نساء ... منها الإسلامي وهو قليل محدث كالكلية الشرعية في دمشق وغير الإسلامي وهو كثير قديم ، وما هو ضائع المنهج ، ضالٌ عن الطريق لم يتخذ بعدُ

---

(١) أغلقت ثم عادت .

له وجهة يوليها ، وما فيها جميعاً (إلا ذلك المحدث القليل) ما يصنع في نشر الثقافة الإسلامية شيئاً ...

وضَرب منها وهو أعظم ضروبها كثرةَ مدارس ، وعمقَ أثر ، قد أنشيء بأموال الأمة لتعليم أبنائها ، وتخريجهم وإعدادهم إعداداً ، يكونون معه أدلاّء لها في طريق نهضتها ، وقادة لها إلى ماتحاول من مجد وعز وكمال ، ولا يتم ذلك إلا بوقفهم على تاريخهم [1] وتعليمهم علوم دينهم ولسانهم ، وإفهامهم أن هذه الأمة مقدور عليها أنه لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها ، وما كان صلاح أولها إلا بالإيمان الصحيح والخُلُق المتين ، فإذا أضعناهما أضعنا المعراج الذي نعرج عليه إلى ما نريد من ذرى المعالي ... وسرنا في طريق الحياة بساقين جذماوين ، نزحف زحف المُقْعَد الزَّمِن ، وتتدحرج تدحرج الكرة ، فنتمرَّغ في الوحل ، ونحن نحسب أنّا نرقى في سلاليم المجد والعلاء .

وإذا أنت فتّشت عن هذين الجوهرين الكريمين : العربية والإسلام، في المدارس الرسمية لم تَلْقَ منهما إلا ما تلقى من حبّات الذهب في تلّ الرمل ، ومن حرّ اللآلىء في أصداف البحر .

ووجدت الدروس في هذه المدارس على نوعين : نوع واحد منهما له المحل الأعلى ، والقدر الأكبر ، وعليه مدار جهد المعلم والطالب ، وفيه يكون الامتحان وما يعقب الامتحان من الارتقاء أو الرسوب ، وقديدخل في هذه الدروس الغناء واللعب (أي الرياضة البدنية) والتصوير ولكنه لايدخل فيها الدين ، ولا تجد في قطر من هذه الأقطار العربية المسلمة ، امتحاناً من الامتحانات العامة (الابتدائية أو الكفائية أو الثانوية) يكون فيه لدرس الدين خَطَر ، أو أثر في نجاح الطالب أو فشله .

---

(١) كذلك ، أما أوقفه على الشيء بأنها لغة رديئة .

على أن تسمية هذه العلوم بدرس الدين أول الوهن ، وليس الدين علماً واحداً ولكنه علوم جمّة ، ومعارف شاملة ، عاش عليها العقل البشري قروناطوالا ، منها الفقه فروعه وأصوله والتفسير والحديث والكلام وعلوم أخرى عدّ منها (طاشكبري زاده) في كتابه الجليل (مفتاح السعادة) ستة عشر وثلاثمئة علم ...

لكل علم منها أبواب وفصول ، وفي كلّ كتب لايلحقها الحصر ، وفي كشف الظنون (للحاج خليفة) وصف لستة عشر ألف كتاب هي التي رآها المؤلف ووقف عليها بنفسه في عصر من عصور الانحطاط ...

ولقدسبق أنقلت ، إنك إذا نظرت إلى ماثبت من كتبنا على التحريق والتخريق والتغريق والتمزيق ، وما خلص إلينامما أصاب المكتبة الإسلامية من النكبات الكبار ، والأحداث الجسام ، وحسبك منها مصيبتاهولاكو وفرديناند ، لرأيت شيئاً يهولك ويعجزك عَدّه كما أعجز المطابع إلى اليوم طبع بعضه ، وهي لا تني في الشرق والغرب تعمل دائبة عليه ، وما علمنا لأمة من أمم الأرض كلها مثل هذا الذخر العلمي أو قريباً منه ، ولا مثل نصفه ولا ربعه ... أفليس من أعجب العجب أن هذا التراث لايساوي في رأي القائمين على هذه المدارس علماً واحداً من علومها كالجبر مثلاً أو الفيزياء أو ... الرياضة البدنية ، ولا يجودون عليه بسبع ساعات في الأسبوع أو ثمان ... ولا يجعلونه مدار خيبة في البكالوريا أو نجاح ، وأعجب منه أن تاريخنا الذي يتّصل أشدّ الاتصال بالتفسير والحديث والرواية وعلم الرجال يتولى تدريسه فيهامن لا بَصَرَ له بهذه العلوم ، ولا علم له بمصادرها الأصيلة ، ولاوقوف له عليها ، ولا قدرة له على فهمها ، ومن لم يحصله إلا على أيدي الخصوم الذين يكيدون له ويدسون عليه الدسائس ، فهو يحملها في فكره كما يحمل البعوض جرثومة الملاريا ، ليلقيها في أدمغة الطلاب الأصحاء فيفسدهم بها ، حتى

رأينا جماعة من غير ملّتنا وديننا درّسوا (في عهد الإفرنسيين !) تاريخنا، أفسمعت بأعجب من تدريس الخواجة ميشيل والخواجة جورج سيرة أبي بكر وعمر ؟

وأبلغ منه في العجب أن الفرنسيين وصل بهم الأمر ... أن بعثوا بأبنائنا يأخذون لغتنا ، عن المسيو (مارسيه) في باريز ، كأن باريز بادية البصرة وكأن مارسيه من فصحـاء بني عقيل ... أو كأنه الأصمعي أو الخليل !

لا رحم الله ذلك الزمان ، ولا أعاد مثله علينا أبداً ...

★ ★ ★

أما إن الحديث جدّ ، وإنه ليس بين شبابنا وبين أتباع الإسلام إلا أن يعرفوه ، لأنه قوي أخّاذ ما عرفه أحد على حقيقته وقدر إن كان منصفاً على مخالفته ، ولكن المشكلة هنا : كيف السبيل إلى أن يعرف الشبان المسلمون ما هو الإسلام إذا كانوا لا يستطيعون النظر في كتبه ولا يطرفونها ، وإذا كانوا يرون أكثر المتزيين بزي علمائه جامدة أفكارهم، يقولون بألسنتهم ما لا يحققونه بأفعالهم ، يأمرون الناس بالعزة ويذلّون لأهل الدنيا ، ويزهدونهم فيها ويتسابقون إليها ، ثم إنهم بعـد ذلك منقطعون عـن الشباب ، لا يلقونهـم ، وإن لقوهم لـم يستطيعوا أن يفهموهم ، وكانت المساجد مقفرة من دروس العلم ، وكانت المدارس معنيّة بكل شيء إلا الدين ؟

السبيل هو هذا ·

إنها قد نشأت فينا طبقة من العلماء ، ممن حصل العلم في المدارس الحديثة ولكنه درس مع ذلك علوم الدين ووقف عليها ، أو درس الدين وعلومه على الطريقة القديمة ولكنه ألمّ بالثقافة الحديثة ودرسها كما

يدرسها أهلها ، وأنا أعرف على هذه الصفة كثيرين في الشام ومصر .
وعلى هذه الطبقة يقع الواجب الأكبر في الدعوة إلى الله ، والعمل على تعميم الثقافة الإسلامية ، بالإلحاح على مديرية الأوقاف وعلى مقام الإفتاء بوضع منهج عملي للتدريس والوعظ في المساجد ، وأخذ المدرّسين بالشدة لينفذوه ويسيروا عليه ، والإلحاح على وزارة المعارف بالعناية بالعلوم الإسلامية في المدارس ، ومنحها الساعات الكافية لها ، وإدخالها في موادّ الامتحانات المدرسية والامتحانات العامة واختيار المدرسين الصالحين لتدريسها — ويعمل كلّ على ذلك بلسانه إن كان خطيباً ، وبقلمه إن كان كاتباً ، وبقوته كلها .

فإن لم يفعلوا فليعلموا أنه سيأتي يوم قريب لا يبقى فيه من يدري ما هو الإسلام ، ويكون حالنا كحال ذلك الجندي التركي الذي لحق في المعركة بلغارياً ، فلما تمكن منه ووضع سنان البندقية على عنقه ، قال له : أمان أنا في عرضك . فقال : له أسلم ! فوجد البلغاري الفرج ، وقال : إني أسلم فماذا أقول ؟

فتحيَّر التركي وقال (بِلْمام والله) !

أي لست أدري !!



تعقيب

كتبت سنة ١٩٤٧

كتب كاتب في مجلة أسبوعية أن (السيدة نفيسة) التي ينسب إليها القبر المعروف في مصر ليست إلا الست نفيسة زوجة مراد بك آخر المماليك، وجاء في مقالته استطراد إلى ذكر الثورات المصرية قرّر فيه أنها قامت كلها باسم الدين ، وأثار ذلك طائفة من القراء فكتبوا إليه محتجين مصححين ، وهاج كاتباً من الكتاب فرد عليه ، مبيناً أن القبر للسيدة نفيسة النسيبة الشريفة الثابت نسبها إلى سيّدنا علي ، منكراً أن تكون ثورة مصر قامت باسم الدين ... الخ

ولست معقبّاً على هذا من جهة التاريخ ، لأن من الواجب أن لا نخلط بين امرأتين بينهما ألف سنة ... وأن نحقق القول في المساجد والقبور وسائر الآثار ، وأن نمحص أسباب الثورات ونعرف حقيقة الدوافع إليها ، ولكني معقب عليه من جهة الدين .

والدين (كما أفهمه) لا يبالي أكانت صاحبة هذا القبر السيدة نفيسة العلوية ، أم الست نفيسة المرادية ، ولا ينفعها عند الله أن تكون الأولى إن كانت سيئة العمل ، ولا يضرها أن تكون الثانية إن كانت صالحة السيرة ، لأن ميزان الله غير موازين البشر .

والله لا ينظر إلى الصور ولا إلى الأنساب ، وإنما ينظر إلى القلوب وإلى الأعمال بعد الإيمان ، تتفاوت أقدار الناس في الآخرة ، ولو كان للنسب ثقل في ميزان الله ما رجح سلمان (الفارسي) وصهيب (الرومي)

وبـلال (الحبشي) وخفّ أبو لهب بن عبـد المطلب العربي القرشي الهاشمي عم النبي !

والناس لا ينفعهم في أخراهم أن يكون هذا القبر ، لهذه أو لتلك ، أو لأي إنسان ممن خلق الله ، أو يكون قبراً خالياً ليس فيه أحد ، لأن الإسلام يأبى عبادة الأموات ، وينكر تعظيمهم ، ويسدّ الذرائع إليها ، لذلك منع رفع القبور وزخرفتها والمغالاة فيها ، فضلا عن اعتقاد النفع والضرر بها وبأصحابها .

ودين الإسلام أساسه التوحيد ، ومنه أن تعتقد أنه لا يضرُّ ولاينفع إلا الله لا أعني ما يدخل في الأسباب المعروفة والعلل الظاهرة ، إذ لاينكر نفعها ولا ضررها ، فالطعام نافع والسم ضار ، والطبيب نافع والجاهل ضار ... والناس كلهم والأشياء جميعها منها ما يضر ومنها ما ينفع ، في حدود سنن الله في هذا الكون ، وطبيعته التي طبع الوجودَ عليها .

ولكن أعني ما وراء هذه الأسباب والعلل ، إذ ربّ مريض يستشير أكابر الأطباء ، ويجلب أندر العقاقير ، ويحظى بكامل العناية ، ثم يموت ، وآخر أصابه مثل مرضه فبرىء بأيسر العلاج ، وأقلّ الجهد .

فالطبيب دال ، ولكن الله الموصل ، والرسول هاد مرشد ، ولكن الله هو الهادي الموفّق لاتّباع الرشاد .

وفي الوجود شيء يدخل في طاقة الإنسان ، وأشياء لا تدخل في طاقته ، فإذا فعل كل ما يقدر عليه ، ولم يبق عليه إلا الالتجاء لقوة خفيّة قادرة على ما لا تقدر عليه قوته ، فعليه بالالتجاء إلى الله وحده ، واعتقاد أنه هو الذي يضرُّ وينفع ، فإن التجأ إلى غيره ، إلى نبيّ أو وليّ ، حي أو ميت ، يؤمن بأنه يستطيع أن يعينه هذه المعونة الغيبية ، فهذا هو الشرك الذي جاء الإسلام لإبطاله !

أما ما يعتقده العامة من أن هؤلاء الصالحين مقربون إلى الله أكثر منا ،

فهم يتخذونهم وسائل ، فلا بأس بذلك ما دامت بعيدة عن المعونة الغيبية، داخلة في نطاق الأسباب والعلل ، كالتوسّل بدعاء الصالحين . وقد توسّل عمر يوم الاستسقاء بدعاء العبّاس عم النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتوسل بالنبي نفسه ، مع أنه أفضل من العباس ومن سائر البشر .

ومهما قيل في مسألة التوسل التي طال فيها الخلاف وكثر الجدال ، ولم يبق فيها جديد يقال ، فليس في القائلين بالتوسل ، ولا في المانعين له، ولا في المتوقفين فيه ، من يقر ما يرى في مصر عند قبر سيّدنا الحسين[1]، أو قبر السيدة زينب ، والسيدة نفيسة ، والإمام الشافعي ، وعند كل قبر قائم في مصر ، عليه قبّة ، وله مزار .

إن الذي يُصنع عند هذه القبور يجاوز الحد الذي جوّزه القائلون بالتوسل من العلماء ، ويطغى حتى ليوشك أن يجاوز .. (لقد كدت أقول :) الإسلام !

وإن من أوجب الواجبات على العلماء منعه وإزالته ، حتى لا يظن بعض الشباب أن هذا هو الدين ، فيؤثروا الإلحاد على هذا (الدين..) الخرافي ! وهذا الذي صار ! !

أما الكلام في الثورة والدين ، وفرح الكاتب الثاني بضبطه رفيقه متلبساً بجريمة القول فيه ، وفزع الكاتب الأول من نسبة هــذا القول إليه ، فهو دليل واحد من آلاف الدلائل على ما انتهت إليه صورة الدين في نفوس بعض المتعلمين .

فقد استقرّ فيها أن الدين شيء عتيق ، لا يليق بالمتعلم أن يتمسك به ، أو يتكلم باسمه إلا إذا لاقَ به أن يدع السيارة والطيارة ويركب الحمارة ، وأن يترك عمارة إيموبليا ويسكن في منزل خرب ، وأن يعدل عن مطعم (سن جمس) إلى وليمة في قرية يأكلون فيها الرز بالأصابع ..

(١) وسيّدنا الحسين راسه عندنا في الشام بلا كلام وجسده في كربلاء .

وأن الدين لايجوز إدخاله في العلم ولا في السياسة ولا في الحياة اليومية .

وسبب ذلك كله جريمة أجرمها العثمانيون ، هي أنه لما كان عهد البعث (الرونسانس) في أوربة ، وهبّت أوربة لتسابقنا بعد أن كنا نحن السابقين ، لم تجارِها الدولة العثمانية في هذا الطريق الجديد ، ولم تقبس من هذه النار ، ولم تستضيء بهذا الضوء ، ولو هي فعلت (على ماكنا عليه من بقايا الحضارة الاولى) لبقينا نحن السابقين ، فكان من نتيجة هذا الاهمال ، أن وقفنا والدنيا تمشي ، ثم صرنا وراء الدنيا ، لالأنّا تأخرنا بل لأن الدنيا تقدمت ، وغدا المسلمون دون الغربيين في الصناعة وفي الثقافة وفي القوّة .

وبقي فقهاؤنا يقرؤون الفقه الذي وضعت أحكامه لعصر ماقبل البعث (الرونسانس) مع أن مصادر الفقه تصلح لكل زمان ومكان ونحن ملزمون بالمصادر لا باجتهادات الفقهاء ، والشباب يتعلمون ماعند أوربة وأميركة من العلم ومن المذاهب السياسية والاجتماعية ، ثم يتلفتون الى العلماء يسألونهم عن حكم الشرع فيها ، فلا يلقي العلماء أمامهم إلا هذه الكتب التي ألفت لغير هذا الزمان ، يعودون اليها فلا يرون فيها شيئا من ذلك ، ولا يعرفون اقتباس الاحكام من مصادرها ، وأصولها ، فينصرف الشباب وقد أيقنوا أن الدين قاصر ، وأنه لايصلح لهذا الزمان .

ثم ينظرون حولهم فيرون هذه الخرافات والاوهام ، وهذه البدع والضلالات المنسوبة كلها الى الدين ، من غير أن يجهر أحد بإنكارها واعلان براءة الدين منها ، فيزداد ظنّهم بالدين سوءاً ، ويعودون الى الغرب فيتلقون عنه كل شيء ، حتى القواعد التي وضعت للديانة المسيحية ومنها (فصل الدين عن السياسة) و (فصل الدين عن العلم) ،

مع أن من أول ماينبغي الاتفاق عليه في الجدل معاني الألفاظ ، فما معنى الدين عند من وضعوا هذه القواعد ؟

إن معناه (الاحكام التي تحدّد صلة الإنسان بربّه) والدين بهذا المعنى لادخل له في السياسة ولا في العلم ، وهو شيء شخصي بين العبد وربه ، ومن هنا سارت الكلمة المشهورة : الدين لله والوطن للجميع .

نحن لانتازع في هذا ، ولكن موطن النزاع ومكان الخلاف هو هل الإسلام دين فقط ، موضوعه الصلة بين الانسان وربه ، أو أن فيه مايحدد صلات الناس بعضهم ببعض ، حقوقياً وأخلاقياً ؟ وصلات الدول بعضها ببعض خاصة وعامة ؟

أليس في الاسلام أخلاق ، وحقوق ، خاصة وعامة ودولية ؟ وهل يجب الفصل بين هذه القواعد الحقوقية التي تبدو عند المقابلة والمقارنة أعدل وأحكم من القواعد الحقوقية الموضوعة ، هل يجب الفصل بينها وبين السياسة ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

هذه هي المسألة .

فمن يثبت لنا من الدين نفسه ، أنه قاصر على المسجد والعبادة وأن سورة الأنفال وسورة براءة مثلاً ليستا من القرآن ؟

وأن آلاف الاحاديث التي اعتمد عليها الفقهاء في المعاملات ليست من الدين ؟

وإذا كان ذلك كله من الدين ، فمن يثبت لنا كيف تكون الامة مسلمة وهي تتمسك ببعض الدين وتترك بعضه ؟

هذا وأنا لاأدعو إلى أن نأخذ الاحكام المدوّنة في كتب الفقه كما هي ، فنجعلها قانوناً ملزماً ، لاتبديل له ولا تغيير ، ولو كانت أحكاماً اجتهادية مبنية في الاصل على عرف أو مصلحة مرسلة أو استحسان .

لا ، ولا أدعو الى تحقيق ذلك بثورة مدمرة ، ومظاهرة صاخبة

نكتفي بأن نصيح فيها : القرآن دستورنا ، الإسلام دين ودولة •
لا ، بل بأن ينقطع نفر من أهل العلم الى كتب الدين والى قوانين الدول ، والى تعرّف حاجات العصر ، ونظريات علمائه ، ثم يعدوا مشروعات هذه القوانين •

وهذا العمل وان كان صامتا خفيا ، لايعرف صاحبه ولا يطبل حول اسمه بالطبول ، فهو العمل النافع ، وهوكالاساس للبناء العظيم ،يختفي الأساس في الارض فلا يظهر ولكن لولاه ماقام البناء •

وملاك الأمر تعريف الشباب بالإسلام و (ترجمة) كتبهالى لسانهم ، لأن الإسلام في ذاته قوّة هائلة ، سرّه فيه ، وفيه دلائله ، فمن عرفهعلى حقيقته لم يستطع إلا أن يكون مسلماً ، فإذا كان العلماء حريصين حقاً على ازدهاره ، وعودة أهله اليه ، ورجوع الأمة الإسلامية الى مجدها ، فهذا هو الطريق •

★ ★ ★

علم التوحيد وكتاب (المودودي[1])

اهدي هذا الفصل إلى اخي الذي احببته ولم اره ، الأستاذ المودودي ، تحية عودته إلى الميدان ، راجياً ممن له نقد أو استدراك عليه أو غيره مما اكتب ، ان يبعث به إلى « المسلمون » ، فإنه ليس احب إليّ من مناقشة آرائي ، ولا أسهل علي من الرجوع عنها ، إذا أدّت المناقشة إلى إثبات خطئها

أخذ المسلمون الأولون (عقيدة التوحيد) من القرآن وحده ، وكانت العربية لسانهم ، الذي يتخاطبون به ، يفهمونها بالسليقة لا بالتعلم ، وكانوا يعرفون ما كانوا قبل الإسلام عليه ، وما دعوا في الاسلام إليه ، ولم يرد على نفوسهم شك في العقيدة ، لتعمل عقولهم على دفع ذلك الشك .

فامتلأت بهذه العقيدة قلوبهم ، وظهرت آثارها في أعمالهم ، وما احتاجوا إلى علم يعرفون به أسباب نزول الآيات ووجوه تفسيرها ، ولا إلى علم يصلون به إلى حقيقة الإيمان بالله والاطمئنان الى عقيدة التوحيد .
آمنوا بأن كل شيء بقضاء من الله وقدر ، وأن الرزق مقسوم ، والأجل محتوم ، فرضوا بقضاء الله وقدره ، وبذلوا في العمل للدنيا كل جهد ، ورموا بأنفسهم في سبيل الله على كل خطر ، إلا أنهم لم يكونوا يظلمون أو يَعتدون ، ولا يجزعون من الخيبة ، ولا ينتحرون ، كما يفعل الجاهلون ، ولا يخافون الموت إن اعترض الموت طريقهم إلى الحق .

---

(١) المصطلحات الأربعة في القرآن

كذلك أخذوا عقيدة القضاء والقدر ، أخذوها إيماناً وعملاً ، لم يحاولوا البحث في أمور لا يمكن البحث فيها ، ولا يرقى العقل إليها .

ورأوا في الكتاب ذكر الوجه واليد والاستواء على العرش وأمثال ذلك فأدركوا أن المراد منه الايمان بعظمة الله ، وإخلاص العبادة له ، وتنزيهه عن الشريك الظاهر والخفي ، فآمنوا بما جاء من عند الله على مراد الله ، لم يحاولوا البحث في حقائقها ومجازاتها ، فلم يصرّحوا بأنهم جازوا بها عن حقائقها ، وإن كانوا قد فهموها على هذا المجاز ، ولم يقولوا كما قال الآخرون من أنها حقائق ، فجعلوا لله وجهاً ويداً ثم تنبّهوا إلى ما في ذلك من التجسيم فزادوا عليه ما هو في حكم الإحالة ، فقالوا : وجه ولكنه لا كالوجوه ، ويدٌ لا كالأيدي وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، فأخرجوا بذلك معاني الوجه واليد كلها ، فكانوا كمن يقول لمجلس فيه عشرة أعضاء ، اجتمع اليوم المجلس ولكن لم يحضر من أعضائه زيد ولا عمرو ،ولا خالد ولا بكر ، حتى يستوفي عدّ العشرة !



ولبث الناس على ذلك القرن الأول ، وهو خير القرون ، ثم جاءت الفلسفة اليونانية وهي فلسفة ابتدائية ، لا سيما في باب الإلهيّات ، وترجمت ترجمة سيئة ، وفهمت فهماً أسوأ ، فجاءت معها الشرور .

دخلت الشبّه على العقيدة الاسلامية الصافية ، فعكرت جانباً منها في عقول من شرب من هذه الفلسفة ، وأوردت اعتراضات لا معنى لها ، ولكن لايجوز السكوت عنها ، ولا بد من أن ينفر من المسلمين طائفة للردّ عليها ، فكانت طائفة المعتزلة ، التي حاربت الخصم بسلاحه ،ونازلته في ميدانه ، وكان أهلها أولي أدمغة وألسنة وملكات ، وكان أكثرهم أهل

استقامة ونزاهة وجرأة في الحق فظفروا بها بعدوّهم .

ولكنهم غالوا في تقدير العقل ، وأعطوه أكثر مما له ، وحكّموه في أمور لايملك بطبيعته الحكم فيها ، وظنّوا أن العقل يقدر على الخوض فيما وراء المادة ، مع أن مجال العقل هو عالم المُحَسّات وحده ، فاذا خرج منه لم يعد له وجود .

وهذا هو عيب المعتزلة ، لولاه لكانوا أشـد الدافعين عن عقيدة التوحيد ، وأنا أعلم أن أكثر قراء هذا الفصل ، يعجبون من هذاالكلام ، ولا يرضون عنه ، لأنّ للمعتزلة صورة مشوّهة في نفوسهم .

ولقد ظُلم المعتزلة مرتين :

ظلموا هم أنفسهم ، حين سخّروا ما كان من السلطان في أيديهم ، لسلب الناس حريتهم في التفكير ، وإكراههم على الإيمان بما لا تنطوي عليه جوانحهم ، وشغلهم بمسائل تافهة جداً ، كمسألة (خلق القرآن) ، حتى كانت تلك النكسة في تاريخنا العقلي .

وظلمهم التاريخ لأنه دوّن أخبارهم بعدما خفتت أصواتهم ، وعلت أصوات خصومهم من الحنابلة ، فاستمدّ ماقالهعنهم من أقوال الخصوم وحدهـــم .

وانشعب الطريق بعد المعتزلة إلى شعبتين ، شعبة الأشاعرة ، وشعبة الحنابلة .

أما الأشاعرة ، فانهم شاركوا المعتزلة في تحكيم العقل ، ولكن لاعلى منهاج واضح ، فكانوا عقليين أحياناً ، وكانوا حيناً متّبعين أسلوباًغريباً، لا هم فيه مع السلف ، يقفون عند حدود الإيمان القرآني ، فهماًصحيحاً، واعتقاداً ، ولا هم فيه مع المعتزلة الذين يتبعون أسلوب المنطق العقلي

وأما الحنابلة ، (لا أعني أتباع المذهب الحنبلي الآن ، بل من جاء بعد انتصار أحمد بن حنبل على المعتزلة [1]) فقد ظهر فيهم ما يسمونهاليوم

---

(١) ومن تصفح تاريخ الطبري مثلاً وجد العجب من اخبارهم .

بـ (رد الفعل) ، فانتقلوا من ذلك الغلوّ الشنيع في تقدير العقل ، وتحكيمه في كل أمر ، إلى غلو شنيع في الوقوف عند ظواهر النصوص ، وإهمال العقل جملة وتفصيلا ، فجعلوا لله وجهاً ويداً ، وقالوا بأن كلامه بحرف وصوت ، وبأنه مستوٍ على عرشه استواءً حقيقياً ، وأشياء أُخَر من هذا الباب ، أخذوها على ظاهرها ، مع أن السلف أمرّوها ، ولم يخوضوا غمار الكلام فيها [1] .

ثم كثرت الطرق والمذاهب ، وصار علم التوحيد (كلاماً) فارغاً ، في الردّ على هذه المذاهب ، وحكاية شُبَهِهَا الواهية ، التي أنشأتها الترجمة السيئة للفلسفة اليونانية ، والفهم السيء لهذه الترجمة .

وزاد البلاء أنه دخل في التوحيد مسائل هي من فروع الفروع ، كتفضيل بعض الخلفاء الراشدين على بعض ، ومسألة الخلافة ، وما إلى ذلك من أمور ، لا تعدو أن تكون معارك انتخابية ، تنقضي بانقضاء أيامها ، والله لا يسألنا عن الصحابة أيهم أفضل ، ولكن يسألنا عن أعمالنا ، وما دام عليٌّ نفسه قد بايع أبا بكر وعمر ، وأطاعهما ، فهل يكون بعض الناس اليوم ، وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً على هذه المعركة ، علوياً أكثر من علي بن أبي طالب ؟

وكانت النتيجة أنه لم يبق اليوم للمسلمين ، في معاهدهم ومدارسهم ، علمٌ يبحث في التوحيد القرآني ، وليس في الكتب التي تنسب إلى هذا العلم ، ماهو كتاب توحيد حقاً ، ولا رسالة محمد عبده ، التي نالت من التقريظ والثناء والدعاية ما لاتستحق (على جودتها) عُشْره ، لأنها ليست إلا تهذيباً لكتب الكلام ، ليس فيها من جديد إلا حسن الصوغ ، وجمال العرض ، وفيها أشياء ليست من التوحيد في شيء : مباحث عامة ،

---

(1) وقد أدّب عمر رجلاً وضربه لانه بلغه عنه انه يخوض فيها

ومسائل من الفقه ، وأطراف من التاريخ .

وخير لنا أن نطوي هذه الكتب كلها على ما فيها من خير قليل ، ولغو طويل ، من شرح المواقف ، إلى الحصون الحميدية ، ورسالة محمدعبده، ونأخذ آيات التوحيد في القرآن ، فنفسّرها للطلاب تفسيراً واضحاً ، مبيّنين لهم أسباب نزولها وظروفه ، ليكون لهم من ذلك مثل فهم العربي الأول المخاطب بالقرآن ، الذي كان له من سليقته ما يغنيه عن التفسير .

وكنت أقول بهذا القول من سنين طويلة ، وكتبت فيه فصولاً في مجلة الأزهر وفي الرسالة وغيرهما ، فكانت تعترضني مشكلة هي أن كل ذي مذهب يفسّر القرآن وفق مذهبه ، فالذي يقول ان لله كرسياً يأخذ اللفظ على ظاهره ، وقد يصور الكرسي بما في ذهنه من صور الكراسي التي يراها في الدور ، وعند التجار ... والذي يقول ان المراد بالكرسي ملك الله ، كما تقول إن كرسي المملكة العثمانية كان يمتد من فارس إلى فاس ، يأخذه على المجاز[1] .

والمجاز وإن كان متأخراً في الوضع ، لكنه هو الأصل في الاستعمال، ولو نسخ ناسخ المجازات من كلام الناس ، وأخذه كله على الحقيقة لكان مجنوناً .

وكذلك القول في العرش ، وفي اليد والوجه وأمثالها من متشابهات القرآن .

وكنت أحسُّ أن سبب الاختلاف في المذاهب ، يرجع إلى الاختلاف على معاني الألفاظ ، ولكني لم أكن أستطيع أن أُعبِّر عن هذا الحس بألفاظ صريحة ، ولا أقدر أن أصور لهذا الذي في ذهني صورة واضحة.

---

(١) وكلا القولين خلاف ما كان عليه سلف هذه الأمة ، والسلف آمنوا بها بقلوبهم ، وأمسكوا عن الخوض فيها ألسنتهم .

فلما أخذت هذه الرسالة للأخ الداعية المصلح الأستاذ المودودي ، وجدت التعبير الصحيح ، والصورة الواضحة وقلت ، هذا الذي كنا نحوم حوله ، ولا نعرف المدخل إليه •

هو الاقتصار في التوحيد على الرجوع إلى آيات القرآن ،والاتفاق على تحديد معاني ألفاظها ، وفهمها كما يفهمها بسليقته العربيُّ الأول ؛ على هذه الأركان الثلاثة ينبغي أن نقيم علم التوحيد في المدارس •

لقد كنا حائرين لا ندري أي طريق نسلك ، فخطّ لنا المودودي بهذه الرسالة الطريق الصحيح ، ومشى فيه الخطوات الأولى •

فهي ليست نهاية ، ماهي إلا بداية ، ولكنها بداية الطريق الموصل •

والمؤلّفون والباحثون على أربع مراتب :

مرتبة من يجمع الصحيح والسقيم ، ويحشد كل مايراه في الموضوع كالسيوطي •

ومرتبة من يجمع النصوص ، ويحقّق أسنادها ، ويرويها مجتمعة كالشوكاني •

ومرتبة فوقها هي مرتبة من يرتّبها ، ويشرحها ويستنبط منها ، ويعلق عليها ، ويصوغ من ذلك بحثاً كاملاً ، كابن تيمية •

ومرتبة فوق الثلاثة هي مرتبة من يحيط بذهنه بها ، ويفهمها ويهضمها (كما يقال اليوم) ، حتى تكون كأنها فكرته هو ، ثم يعرضها عرض الرجل فكرته ، يملكها ويتصرّف فيها ، ويديرها على أوجه البيان ، ويمرّها في شتّى الأساليب ، كالغزالي •

والمودودي في مقدمة هذه الرسالة ، وفيما قرأته له من رسائل ، يكاد يرتفع أحياناً عن المرتبة الثالثة ، وربما بلغ الرابعة ، وهو يتميّز بعلم

واسع ، وعقيدة صحيحة ، وذهن نقّاذ ، ومقدرة على الترتيب والعرض[1]، لكنه لا يخلو في هذا الباب من مواضع للنقد .

من ذلك رأيه في إعادة الضمير لله في قول يوسف : « معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي » ، مع أن موضوع الكلام عزيز مصـر ، وهو الماثل في الذهن ، والضمير اليه والحديث عنه ، ولا عبرة بالقرب اللفظي لاسم الله في قوله (معاذ الله) لأن هذه الجملة طارئة ، قد اعترضت جزأي الكلام .

فكأن يوسف قد ترك بها محدّثه وأقبل فيها على غيره (على الله) ثم عاد إلى محدثه وحديثه .

ولو كان الضمير يرجع إلى الله ، لما ذكر الضمير أبداً ، ولمرّ في الكلام من غير حاجة إلى ابتداء وتأكيد في قوله (إنه) ، أو لأعاد الاظهار ، وكرّر لفظ الجلالة ، وهذه سنّة العرب في كلامها ، وهو شيء يدرك بالملكة اللغوية ، وإدمان النظر في كلام البلغاء ، ولا يمكن التدليل عليه .

ثم انه لا مجال لما فهمه المودودي بعد ذكره المثوى ، وهو إنما ثوى في دار عزيز مصر ، فكيف يخونه في أهله ، وقد أحسن مثواه ؟

ولا خوف من صرف معنى الرب ، للإ'له ، والمودودي نفسه يسوقه شاهداً على أن الرب هنا بمعنى المربّي ، والمتكفل بالحاجات ، وهو ينطبق على عزيز مصر .

ومما توقّفت فيه في رسالة المودودي هذه ، أني لم أدرك في كثير من الحالات وجوه الاختلاف بين الآيات في معاني الرب أو العبادة أو الدين ، مع أنه يقرر الاختلاف ، ويسوق كل آية شاهداً لمعنى من هذه المعاني ، يكاد إذ يقصرها عليه يقسرها قسراً لاقصراً .

ولم أدرك كذلك قوة دليله في محاولة إثبات أن فرعون وقومه كانوا

---

(١) وله اجتهادات يخالف فيها ائمة المذاهب الفقهية والحق ما قالوه هم فيها لا ما قاله هو .

يعرفون الله ، وإنما كان كفرهم أنهم يشركون معه غيره ، على نحو ما كان عليه العرب .

وكنت أتمنّى لو أنه ، إذ ذكر الآيات ، عرض لها بشيء من الشرح والتفسير ، ولكن عذره قصد الاختصار .

وهذه بداية على كل حال ، للأستاذ حفظه الله فضل ابتدائها وثوابه ، والرجاء أن يمشي علماؤنا على هذا الطريق الذي سنّه ، وإكمال العمل الذي بدأ به .

وهذه الرسالة ، إذا أعيد النظر في ترجمتها ، وهذّبت ووسّعت ، تصلح أن تكون كتاب التوحيد (الرسمي) في مدارس المسلمين كلها ، وهي (على كل حال) من أحسن ما بين أيدي الناس من رسائل في التوحيد .

ولقد كنت أحب أن أحدث عن المودودي شخصه وعن الجماعة الإسلامية مكانها بين الدعوات التي عرفتها في الهند وباكستان ، وأثرها الذي لمسته هناك ، ولكن طال البحث ، واتّجه بي هذا الاتجاه ، فجعلت الكلام كله في التوحيد ، وفي الرسالة نفسها .



حلول قديمة لمشاكل جديدة

كتبت سنة ١٩٥٦

كنت أحادث زميلاً لي من علماء القضاة في مسألة (حبس المدين).
فقلت له :

ـ أنا لست قاضياً جزائيا ، ولا اطّلاع لي على مباحث علماء الغرب في هذا الموضوع ـ ولكني أعرف مباحث فقهائنا فيه
فتبسّم كالشاك أو المستهزىء وقال :

ـ ولكن هذه مشاكل جديدة . فما دخل الفقه فيها ؟

ـ قلت له : وماذا تقول إذا كان لهذه المشاكل الجديدة حلول قديمة ، وإذا كانت هذه المسألة بالذات ، قد بُحث فيها من ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن ، من أيام الصحابة ؟

وكان أمامي كتاب (الطرق الحكميّة) لابن قيّم الجوزية فقرأت عليه فصلاً كاملاً في هذا الموضوع ، نقل فيه رأي علي بن أبي طالب في عدم الحبس ، ثم ذكر رأي الحنفيّة في تقسيم الدين إلى عوض مالي كالقرض وثمن المبيع ،
وإلى ما لزمه بالتزامه كالكفالة والمهر .
وما لزمه بغير التزامه وليس في مقابله عوض كبدل المتلف ونفقة الأقارب ،

ورأيهم في تقسيم أحوال المدين : إلى مُعسِرٍ ثابت إعساره فلا يحبس ، وإلى موسِرٍ ثابت يساره ومماطلته فيحبس .
وما أفاض فيه من عرض آراء الفقهاء ثم رجّح كونه لا يحبس ،

وعلّل لذلك بأن الحبس من جنس الضرب بالسياط والعصي ، وذلك عقوبة لا تسوغ إلا عند تحقق السبب الموجب ، ولا تسوغ بالشبهة ، بل ان سقوطها بالشبهة ، أقرب الى قواعد الشريعة من ثبوتها بالشبهة .

ودهش الزميل ، وظنّ أني أقرأ من عندي ، فأخذ الكتاب فنظر فيه متعجبًا .

قلت : لا تعجب ، فما من كتاب من كتب الفقه ، يخلو من بحث في هذه المسألة ، وفي أمثالها من المسائل ، التي نظنّها جديدة ، مع أن فقهاءنا أوسعوها بحثا .

وأفضت معه في الحديث فتبيّن لي أنه لا يعرف من الفقه إلا هذه الصورة المشوّهة ، التي رسمها في نفسه ونفوس أمثاله من القضاة والمحامين ، المشايخ المتأخّرون ، الذين حسبوا الفقه ترداد ما في الحاشية والهندية والحامدية ، يقرؤونها ويقرئونها تلاميذهم ، لا يفرقون بين الحكم الثابت بدليل شرعي من كتاب أو سنّة ، والحكم المبني على عرف كان ثم زال ، ولا يعلمون أن أكثر الفروع الفقهية في باب المعاملات ، مبنيّة على أقيسة[1] وأعراف ، وقليل فيها النصوص على عكس العبادات فان أكثرها مبني على نصوص الكتاب والسنّة .

وان ما لا يعتمد على نص يتبدّل الحكم فيه بتبدّل الأزمان ، وان هذا هو ما يمتاز به الشرع الإسلامي ، وانه بهذا صار صالحاً لكل زمان ومكان .

انهم لا يعرفون هذا ، لأن أكثرهم (لا كلّهم بالطبع) ، رواةأحكام وليسوا فقهاء ، وكلمة الفقيه في العرف العلمي القديم ، مرادفة لكلمة المجتهد والمفتي ، فلا يسمّى فقيها ولا مفتياً ، إلا من كان مجتهداً ، وقد

---

(١) من حماقات الظاهرية أن إماماً من أئمتهم هو ابن حزم الأندلسي ألّف كتاباً سمّاه (إبطال القياس) ــ ولو سمّاه (إبطال الشريعة والغاء العقل) لكان أصدق في الدلالة عليه .

نص الحنفية ، على أنه لا يجوز لمفت أن يفتي ، ولا لقاض أن يقضي ، الا ان كان واقفاً على أعراف الناس في معاملاتهم .

هؤلاء المشايخ هم الذين أبعدوا الناس عن الفقه . ولست أنا الذي يقول هذا ، بل يقوله ابن القيّم[1] في هذا الكتاب من أكثر من سبعة قرون ، وقرأت على الزميل قوله عند الكلام على السياسة الشرعية :

(وهذا موضع مزلّة أقدام ، ومضلّة أفهام ، وهو مقام ضنك ، ومعترك صعب ، فرط فيه طائفة فعطّلوا الحدود ، وضيّقوا الحقوق ، وجرّؤوا أهل الفجور على الفساد ، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد . جعلوها محتاجة إلى غيرها ، وسدّوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق ، والتنفيذ له ، وعطلوها على علمهم وعلم غيرهم قطعاً ، انها حق مطابق للواقع ، ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع . ولعمر الله انها لم تناف ما جاء به الرسول ، وإن نافت ما فهموه هم من شريعته باجتهادهم ، والذي أوجب لهم ذلك ، تقصير في معرفة الشريعة ، وتقصير في معرفة الواقع ، وتقصير في تنزيل أحدهما على الآخر ، فلما رأى ولاة الأمور ذلك ، وأن الناس لا يستقيم لهم أمر إلا بشي غير ما فهمه هؤلاء من الشريعة ، أحدثوا من أوضاع سياستهم (أقول : ومن جديد قوانينهم) شرّاً طويلا ، وفساداً عريضا ، فتفاقم الأمر ، وعزّ على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك ، وأفرطت طائفة أخرى ، قابلت هذه

---

(١) وليس معنى هذا أن كل ما يقوله ابن القيم مسلّم له ، فإن له في العقائد لا سيّما في كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية) ما لا يقبل بحال من الأحوال ، كما أن له في (أعلام الموقّعين) زلاّت وزلاّت ، وله في كتاب (الطرق الحكميّة) (هذا) كلمة سارت في الناس سير الأمثال ، هي قوله (حيثما كانت المصلحة فثمّ شرع الله) واتخذها الجهلة سنداً لردّ ما ثبت من الأحكام بالكتاب والسنّة والقياس الصحيح ، مع أن المصلحة إنما تراعى إذا لم يكن في المسألة دليل شرعي .

الطائفة فسوّغت من ذلك ماينافي حكم الله ورسوله ، وكلا الطائفتين أُتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله رسوله الخ ...)

ولو أن إخواننا القضاة والمحامين ، الذين تتسع أوقاتهم للمطالعة والبحث نظروا في كتب الفقه المعلّلة المدلّلة ، لا الكتب المتأخرة القاصرة على سرد الأحكام ، كبدائع الصنائع (الكتاب العظيم) والمبسوط وشروح الهداية والزيلعي على الكنز وأمثالها من كتب الحنفيّة ، والمجموع عند الشافعية ، والرهوني والزرقاني عند المالكية ، والمغني عند الحنابلة ، والمحلّى لابن حزم وأعلام الموقّعين لابن القيم [1] وأمثالها لرأوا فيها حلولاً لجميع المشاكل القائمة اليوم ، من مدنيّة وجزائية ودولية واقتصادية ، وأنا لا أبالغ ولا أتزيّد ، وهذه الكتب أمامكم ، فانظروا في فهارسها ، ثم اقرؤوا منها صفحات فقط ، تروا صدق ما أقول ، وان كان الناس قد انصرفوا عن هذه الكتب إلى كتب المتأخرين ، مع أن كتب المتأخرين بمثابة نصوص القانون ، وهذه هي الشروح والمصادر .

قال الزميل : أفتعيرني هذا الكتاب ليالي ؟

قلت ، نعم . وإن كان ما يعرض له فيه من مباحث موجوداً في كتب كثيرة .

وأخذه وعاد بعد أيام ، وقد انقلبت الحال ، فصار هو المدافع عن الفقه الاسلامي .

وإذا هو قد وضع خلال أوراق الكتاب علامات ، فجعل يفتح صفحة بعد صفحة ، ويطلعني على ما وجد في الكتاب .

قال ، لقد وجدت فيه حقاً ، ما أدهشني ، فيه كما قلت (حلول قديمة لهذه المشاكل الجديدة) .

---

(١) أي على ما فيهما من مشاقبات على المذاهب الاربعة ولا سيما المذهب الحنفي .

منها الأخـذ بالقرائن وشهادة الواحد ، والخبرة الفنيّة والفحص الطبي •

فكيف ثار مشايخ القضاة الشرعيين اذن على قانون البيّنات،ومنعوا المحاكم الشرعية من الأخذ بالقرائن ، وشهادة الواحد ، بالمرسوم رقـم (٨٨) ، مع أن القرائن كما يقول ابن القيّم ثابتة بنص الكتاب في قصة يوسف ، لما اختلف هو وامرأة العزيز ، هو يدّعي أنها هي التي أغرته وهو الذي امتنع وهرب ، وهي تدّعي العكس ، فكان الحكم لقرينة شقّ القميص ، إذا كان قميصه قد شقّ من الأمام فقد صدقت هي ، وان كان قد شقّ من الخلف فهي الكاذبة •

وثابت في السنّة بحكم سليمان بين المرأتين اللتين تدّعي كل منهما أن الولد ولدها ، مع أنها دعوى نسب •

وفي الكتاب فصول طوال في القرائن القضائية ، وأقسامها ، وما يصلح منها حجّة ، وما لايصلح •

وفيه فصل طويل في جواز الحكم بشهادة الرجل الواحد ، إذا عرف صدقه في غير الحدود ، ولم يوجب الله على الحكّام أن لا يحكموا إلاّ بشاهدين •

وقد حكم الرسول صلى الله عليه وسلم بالشاهد واليمين ، وروى ذلك مسلم في صحيحه ورواه غيره وحكم بالشاهد الواحد فقط ، وساق كثيراً من النصوص الثابتة المؤيدة لذلك • وتكلم في فصل آخر في جواز الحكم في بعض الحالات بشهادة المرأتين وحدهما ، بل المرأة الواحدة فقط [١] •

وتكلم على التفريق بين الشهود واستجوابهـم • (ص ٦١ [٢]) واستجواب المدّعي (ص ٣٣) •

---

(١) وفي المذهب الحنفي مواطن كثيرة يحكم فيها بشهادة المراة الواحدة ولا مانع من القياس عليها وتوسيعها •

(٢) من طبعة محمد حامد الفقي في مصر سنة ١٩٥٣

وتكلم على الإقرار في الجرائم وأنه ليس سيّد البيّنات دائماً ، وليس حجة قطعية بل قد يرد للقرينة (ص ٢٧ و ص ٥٦) وفي سنن النسائي فصل في (الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه اذا تبيّن للحاكم من الحق غير ما اعترف به) .

وبحث بحثاً طويلا في اثبات النسب يقول القافة ، أي الخبراء الذين يعتمدون على التشابه الجسدي بين الأب والابن . حكم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر والصحابة (ص ١٠ و ص ٢١٦ و ص ٢٣٢) ولو كان القائف واحداً ، وعلّل لذلك بأنه يكتفى عند الحكم بخبرة الطبيب والبيطار الواحد فكذلك القائف [1] .

والرسول صلى الله عليه وسلم اعتمد في تحديد أعمار أسرى قريظة على الكشف الطبّي (ص ٩)

وفصل في البتّ في دعوى الزوجة أن زوجها عنين لا يختلف الأسلوب فيه عما يتبع اليوم عند احالة المدّعى عليه على الطبيب الشرعي (ص ٤٨) .

وفصل في تطبيق الخط والتوقيع والشهادة على الخط والتوقيع (ص ٢٠٨) وفي الحكم باخبار الخبير الواحد (ص ١٢٨) و (ص٢٣٢). وفي ردّ اليمين (ص ٨٦) و (ص ١٢١)

وفي الكتاب وهو مؤلف من سبعمئة سنة عشرات من المسائل التي كنا نظن (يقول الزميل) بأنها جديدة لم يتعرّض لها المتقدّمون . وأن من العار علينا أن ندع هذه المائدة الحافلة لا نلتفت اليها ، ونذهب فنستجدي من فتات موائد الناس .

★ ★ ★

هذه قصة قصصتها ، ما أردت منها البحث العلمي ، ولا التتبع

---

(١) والقيافة كانت معروفة عند العرب ولها ناس انقطعوا إليها وعرفوا بها هم القافة .

والاستقصاء بل أردت تنبيه اخواننا القضاة والمحامين الى الكنز الذي يملكونه ، لعلّ هذه الكلمة تدفع واحداً منهم الى النظر اليوم في هذا الكتاب ، والى النظر غداً في غيره من مطوّلات كتب الفقه ، ليروا أن فقهنا لم يكن يوما جامداً ضيّقاً ولا مجدبا ، وأنه ليس كما يتصورون أو يصوّره المشايخ المتأخّرون من حيث لا يشعرون .



ابحثوا وخبروني !

روى ابن كثير في تفسيره ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل هـل يسرق المؤمن ؟

فأجاب بأنه ربما وقع منه ذلك ولكنه يتوب ويندم .
فسألوه : هل يزني المؤمن ؟
فأجاب بمثل ذلك .
فقالوا : هل يكذب المؤمن ؟
قال : لا .
فانظروا الى المؤمنين في هذه الأيام . هل يكذبون ؟

وفي الحديث الصحيح أن علامات النفاق ثلاث ، منها إخلاف الوعد، والذي يخلف الوعد هو في رأي الإسلام ثلث منافق !

فهل في المسلمين من يخلف وعداً ؟ هل فيهم أحد يعدك الساعةالثانية ويجيء في الثالثة ؟

هل تدعى الى وليمة ثم يؤخرون تقديم المائدة ، انتظاراً لغليظ (ثلث منافق) فيعاقبون من حضر على الموعد ، بذنب من تأخر ؟

هل تكون لك دعوى في المحكمة الساعة التاسعة ثم لا يراهاالحاكم الا في الحادية عشرة ؟

هل يعدك الخياط بارسال الحلّة الجديدة الىدارك نصفرمضان ، لتلبسها في العيد ، ولا تصل إلاّ ثالث أيام العيد ؟

ابحثوا أنتم وخبّروني .

وقال رسول الله (في الحديث الصحيح) : من غشّنا (وفي رواية من غش) فليس منا .

وهذا الحديث بلسان أهل العصر قانون يقضي ، بطــرد من يغش المسلمين (أو يغش اطلاقا) من الجنسية الإسلامية ، وحرمانه من حقوقها.

فهل في المسلمين أحد يغش ؟

هل يبيعك السمان الماء الأبيض مدعياً أنه حليب ؟

هل يأخذ مراقب الصحة الراتب من جيبك وجيوب المكلفين ، لمراقبة السمان ، ثم يغمض عينه ؟

هل ينقص المتعهد الاسمنت من البناء ، ويغش الدولة ؟

هل يشتغل العامل عندك ست ساعات ، ويتكاسل ساعتين ويأخذ أجرة اليوم كاملا ؟

هل ... وهل ... وهل في المسلمين (اليوم !) أثر للغش ؟

ان وجدتم هذا الأثر عند أحد من المسلمين ، فأبلغوه أنه مطرود من الجنسية الإسلامية بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم [1] .

وفي الحديث الصحيح ، أن أعرابياً كان له دين على الرسول فجاء يطالبه بشدة وغلظة ، فانتهره الصحابة ، وقالوا : ويحك تدري من تكلم؟

قال : اني أطلب حقي ؟

قال النبي صلى الله عليه وسلم : هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ هلا مع صاحب الحق كنتم ؟

ثم أرسل فاستدان مالا ، فوفى الأعرابي دينه ، وزاده شيئاً كثيرا .

قال الأعرابي : أوفيت . أوفى الله لك .

قال الرسول : لا قدست أمــة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غــير متعتــع .

---

(١) وليس معنى هذا انه كفر .

سمعتم ؟ لا قدّست أمة لا يأخذ الضعيف حقه فيها، فهل يأخذ الضعيف حقه فينا كاملا ؟

واذا دخل دائرة من الدوائر هل يعامل معاملة القوي الغني صاحب النفوذ ؟

واذا طالبك الضعيف المسكين بحق له هل تسرع إلى أدائه حقّه كما تسرع الى أداء القوي الغني ؟

فكّروا في الجواب الصحيح ، فانّ كان الجواب نعم ، فانتم امة مقدسة ، وان كان الجواب : لا . ف ... فأنتم أدرى !

وفي الحديث الصحيح : لم تظهر الفاحشة (أي الزنا واللواط ومقدماتهما) في قوم إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع . ولم ينقصوا الكيل والميزان ، الا أخذوا بالسنين والشدة وجور السلطان .

ذلك أن من صفات المجتمع الاسلامي ، أن الفاحشة لا تظهر فيه ولا يجد الداخل عليه عورات بادية ، ولا فجوراً معلنا ، وان الأمانة منتشرة فيه ،

فلا يغشك أحد ، ولا يزن لك وزناً ناقصا ، ولا يضع لك بائع الحلويات صحن (الكرتون) في الميزان فيبيعك اياه بسعر الحلو، أي الكيلو بخمس ليرات ، وتستحي أنت أن تنهاه أو تصرخ في وجهه ، أن هذه سرقة !

فهل مجتمعنا الحاضر مجتمع إسلامي خال من هاتين الرذيلتين ؟

وفي الحديث الصحيح : من احتكر طعاماً فهو خاطىء (أي مذنب من الخِطأ بكسر الخاء لا من الخطأ بالفتح) .

فهل فينا أحد يحتكر طعاما ؟ هل هنالك جماعة تآمروا على خبز المسلمين ، فأغلقوا المطاحن لحسابهم ، ودفعوا لأصحابها المال ليغلّوا الخبز ؟

هل في المسلمين من يحتكر هذا الاحتكار الشيطاني ؟

وفي الحديث الصحيح : من باع بضاعة فيها عيب ولم ينبّه اليه ، لم يزل في مقت الله ولم تزل الملائكة تلعنه .

فهل في المسلمين من يرتضي لنفسه أن يكون في مقت الله ، ولعنة الملائكة ، من أجل قروش يربحها من حرام ؟

ابحثوا يا أيها القراء ، في أحوال المسلمين ، وانظروا أين نحن اليوم من دين الاسلام ؟



النيـــة

يستطيع المسلم أن يتزوج ويشتغل ، ويخوض غمرات الحيـاة ، ويجاهد ويناضل ويكون مع ذلك زاهدا ، ويكون متعبّدا ، ويكون عمله كله لله .

وذلك بتصحيح النيّة .

فبالنيّة يقدر المسلم أن يكون مع الله ، من غير أن يهجر الزوجة ، أو يترك العمل ، أو يعيش في صومعة منفردة ، أو مغارة منقطعة .

وبالنية يكون طعامه وشرابه ، واستمتاعه بملذات الجسد ، عبـادة كالصلاة والصيام ، ويكون انفاقه على زوجته وأولاده صدقة ، كالتصدّق على الفقراء والمساكين .

فاذا نويت بالطعام التقوى على طاعة الله ، ونويت بالنكاح الاستعفاف عن الزنا ، ونويت بالعمل الاستغناء عن الحرام ، ونويت الصبر على كل مزعج في الحياة امتثالاً لأمر الله ، ورضا بقضائه

كان لك بكل ذلك حسنة .

النية روح العمل ، والعمل بلا نيّة جسم بلا روح .

ولقد هاجر المسلمون الأولون من مكة ، فتكبّدوا مشاقّ الرحلة ، وفراق الوطن ، والبعد عن الأهل ، وكانوا سواء في ذلك ، ولكن لم يكونوا سواء في المثوبة والأجر ، لأن من هاجر هرباً بدينه ونصرة لنبيّه ، وابتغاء لرضا ربّه ، فهو المهاجر .

أما من هاجر ليتزوج امرأة في المدينة ، أو ينال ربحاً ، أو يصيب مالاً ، فهجرته للمرأة وللربح .

قال صلى الله عليه وسلم (في الحديث الصحيح المشهور) :

إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه .

وكذلك الحجّ ، يحج كل سنة عشرات وعشرات من ألوف الناس فمن حجّ امتثالاً لأمر الله ، ورغبة في ثوابه ، فهذا هو الحاجّ .

ومن أراد التجارة ، وحمل معه البضائع أو قصد التفرّج برؤية البلدان ، فانه لم يحج ، ولكن تاجَرَ وَسَاح [1] .

★ ★ ★

ومن نعم الله ومظاهر رحمته ، أنه جعل نيّة الخير (حسنة) ونية الشر إن لم يحققها بالفعل (حسنة) أيضا .

قال صلى الله عليه وسلم : ان الله كتب الحسنات والسيئات ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن همّ بسيّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وان همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة رواه البخاري ومسلم .

فإن نويت أن تتصدّق بليرة ولم تفعل ، سجّل لك في دفتر الملَكَيْن ليرة لحسابك ، تلقاها يوم القيامة ، فان تصدقت بها كتبت في حسابك عشر ليرات ، أو سبعمئة ليرة ، أو أكثر من ذلك ، وليس في عطاء الله حساب .

حتى الأعمال العادية تكون بالنية قربات وطاعات .

---

(١) هذا إذا كان قصده التجارة أو السياحة فقط ، أما من أراد العبادة وتاجر مع ذلك فقد صحّ حجه .

روى البخاري ومسلم من حديث مسعد أنه صلى الله عليه وسلم قال له : وانك لن تنفق نفقة تبتغي (تقصد) بها وجه الله الا أجرْتَ عليها حتى ما تجعل في في امرأتك (أي حتى ما تطعمه امرأتك وأولادك ، إن قصدت به وجه الله كان لك به أجر) •

وفي الحديث : يارسول الله ، أيأتي أحدنا أهله (أي يقارب زوجته) ويكون له ثواب ؟

قال : أرأيتم لو وضعها في حرام ؟

أي كما أن الاجتماع الجنسي المحرم ، عليه العقـاب ، فالاجتماع المشروع ان كان بنيّة كان معه الثواب •

وليست النية تظاهراً وقولاً باللسان ، كمن يرفـع صوته فـي المسجد ليقول للناس ، تعالوا انظروا إلى صلاحي وتقواي ، يصيح : (نويت أن أصلّي لله تعالى أربع ركعات فرض صلاة الظهر ، مستقبل الكعبة الشريفة ، مخلصاً وجهي لله : الله أكبر) !

كلا • بل النية هي العزم القلبي •

هل يقول أحد منكم : نويت أن أنهض من فراشي فألبس ثيابي ، وآكل فطوري وأذهب الى عملي ؟

وان رأى صديقاً فاسرع للسلام عليه ، هل يقول : نويت أن ابشّ بوجهي، وأمدّ يدي ، وأقول السلام عليك ياصديقي ؟

كلا • وليس للظواهر في الاسلام قيمة ، ان القيمة للقلب •

جاء في الحديث : إن في الجسد مضغة اذا صلحت صلـح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب •

وليس في الاسلام زي ديني ،ولا رجال دين • واللّحى والعمائم العربيّة من السنّة ولكن التقى ليس باللحى والعمائم • التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا (وأشار صلى الله عليه وسلم الى قلبه) الدين

المعاملة ، والتقوى باتيان الطاعات واجتناب المحرمات ، ومراقبة اللهدائما واخلاص النية لله في كل عمل .

ولقد قال علي رضي الله عنه : ان أصدق الزهد اخفاء الزهد .

ولا يقبل الله من الأعمال الا ماخلص له .

روى أبو موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟

قال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

وروى مسلم عن ابي هريرة أنه قال : سمعت رسول اللهصلىالله عليه وسلميقول : ان أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فاتى به فعرّفه نعمه عليه ، فعرفها قال : فما عملت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال الله : كذبت ولكن قاتلت ليقال ، هو جريء ؛ وقد قيل :

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .



فيا أيها الاخوان ، الخطوة الثانية بعد التوبة ، هي تصحيح النية ، واخلاص العمل لله ، وأن تذكروا دائماً أن النية تجعل أعمالكم كلهـا عبادة ، تثابون عليها .



هل انت امين ؟

لا تسرع فتقل : نعم ، بل انظر في هذه الأسئلة ، فإن كان جوابك عليها ، أو على أكثرها بـ (نعم) ، فأنت أمين •

★ ★ ★

اذا استدنت فهل تؤدّي الديْن َ في وقته ، ولو لم تكتب به سندا ؟

واذا استودعك أحد وديعة ، فهل تحفظهـا كحفظك مالك ، ولا تستعملها الا باذن صاحبها ؟

واذا كنت بيّاعا ، وترك المشتري الأمر لدينك وذمتك فهل تعطيه أحسن بضاعة بأرخص ثمن ؟

واذا كنت طبيبا ، ودخلت عليك المرأة الجميلة ، فهل تغض بصرك عن أعضائها الخفية ، وتقتصر من ذلك على حدّ الضرورة •

وهل تعتبر المرأة التي تدخل عيادتك أو مكتبك أو مخزنك ، بمثابة أختك ، وان شرفها أمانة عندك ، وأن الله مطّلع عليك ، فلا تحاول معها (أمراً) ولو ظهر لك منها رضا ؟

وهل تعلم أن الوظيفة أمانة عندك ، فتؤدّيها على وجهها مع المحافظة على وقتها ؟

وهل تعلم أن الرشوة بالجاه والصداقة و (الجمال) شرٌّ من الرشوة بالمال ؟

وهل تعلم أن هذه الحواس أمانة عندك فلا تستعملها على غير ماأذن به خالقها ، فلا تنظر بعينك الى عورة ولا تمسّها بيدك ، ولا تمشي الى

محرّم برجلك ، ولا تسمع حديثها بأذنك ؟

وهل تعلم أن العمر أمانة عندك ، وأنه لا يجوز اضاعة ساعة من وقتك بالعبث : بالقعود في القهوة ، ولعب الطاولة ، أو الجلوس مع العاطلين والكلام الفارغ ، أو قراءة المجلاّت التي ليس فيها (شيء) كالاثنين وأمثالها ؟

وهل تعلم أن أولادك أمانة عندك ، وأنك مسؤول عنهم ، فلا يجوز لك أن تهمل تربيتهم ، أو تضعهم في مدارس تفسد دينهم ، أو تسلّمهم إلى من لا ينشئهم على التقوى والصلاح ؟

هذه عشرة أسئلة ، فهل أجبت على سبعة منها على الأقل بـ (نعم) ؟

★ ★ ★

ان الأمانة ليست قاصرة على حفظ المال ، بل هي شاملة لكل شيء ، ومن هنا جاءت صعوبتها ، وخوف السموات والأرض منها ، لمّا عرضها الله على السموات والأرض ، وحملها الإنسان (جهلا) منه بحقيقتها و (ظلماً) لنفسه بحملها ، انه كان ظلوماً جهولا .

ان الأمانة هي جماع الفضائل ، ورأس الخير كله .

فمن كان أميناً بهذا المعنى الكامل الشامل ، فقد أوتي الخير كله ، وهي خلق يتخلّق به الانسان ، وتطبّع يصير له بالمرانة طبعا ، تظهر آثاره في جليل الأمر وفي حقيره ، والذي يتهاون بالأمور الصغيرة ، فيركب سيارة الدولة لحاجته الشخصية ، أو يكتب على ورق الدولة رسائله الخصوصية ، يدل بذلك على أن خلق الأمانة ضعيف في نفسه ، فهو لا يمتنع يوماً عن سرقة مال الدولة .

والذي يكون له أولاد من زوجة مطلقة ، وأولاد من زوجته الجديدة ، فيعامل هؤلاء باللين والكرم ، وأولئك بالشدة والتضييق ، لا يكون من أهل الأمانة .

والذي يلقى الناس بالوجه الباش ، والنكتة الحلوة ، ويلقى أسرته بالوجه العابس ، والكلام القاسي ، لا يكون من أهل الأمانة .

والذي يترك أولاده يلبسون كما يشاؤون فيخرج الصبي بالقميص الأميركي المتعدّد الألوان ، الذي لا يعرف لابسه إن كان من البنات أو من الصبيان ، أو تخرج البنت حاسرة الرأس ، مكشوفة الساعد والساق ، لا يكون من أهل الأمانة .

ولا يكون من أهل الأمانة ، من لايبالي بانتهاك قوانين الدين ، وقوانين المجتمع (وهي من قوانين الدين إن كان فيها نفع عام) فيرى من يفطر رمضان علناً فلا ينصحه ، ومن يتكلم مع سائق (الأتوبوس) ويمازحه فلا يمنعه ، ومن يدخن في الترام أو يرتكب هذه (القباحة .. وهي البصاق في الطريق ، أو في المكان العام ، فلا يقول له شيئا ، ولا يراجع مدير الشرطة وأمين الصحة فيطلب اليهما أن يمنعا هذه العادة الملعونة كما منعت في العراق من سنين طويلة ، فلم يعد لها إلا أثر قليل وكانت أفظع مما في الشام ..

إن الأمانة هي جماع الفضائل ، ورأس الخير كله ، فمن كان أميناً فقد جمع الخير من أطرافه ، وحاز الفضائل جميعاً .



الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(الموضة) الجديدة أن الناس أحرار ليس لأحد سلطان على أحد ؛ ولا يجوز أن يتدخل في شؤونه ، ولو رآه في (الترام) عارياً ، أو سمعه يسبُّ الدين ، أو أبصره يشرب الخمر ، أو يلعب الميسر ، أو يقبِّل الفتيات على قوارع الطرق ...

أما (الموضة) الإسلامية ، فهي أن الأمة كالجسد الواحد ، والذي يأتي المنكر معلنا لا يضرُّ نفسه وحدها ، بل يضرك معه ، لأنه يفسد أخلاق ولدك وبنتك بالتقليد والاتباع . ويفسد صحة أهلك وأسرتك بنشر الأمراض . ويؤذي الوطن كله ، بتقليل النسل وإضاعة قوى الشباب بالفسوق والعصيان .

لذلك مثّل رسول الله الأمة بركّاب سفينة ، والذي يعلن المنكر بمن يريد أن يثقب مكانه من السفينة ، بحجة أنه حر ، يتصرف بمكانه كيف شاء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل القائم في حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم في أعلاها ، وبعضهم في أسفلها ، إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم ، فقالوا لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوا جميعا . رواه البخاري

ولذلك وضع الإسلام مبدأً عظيماً ، لو تمسّك به المسلمون لزالت المفاسد ، وامّحت الشرور ، واستراح الحكام .

هو أنه جعل من كل مسلم شرطيا لحفظ الأمن ، ومنع التجاوز على حقوق الله ، وحقوق الناس .

فمن مرّ على المنكر الظاهر ، والفجور المعلن ، ورأي عدوان الناس بعضهم على بعض في أجسادهم وأموالهم وأعراضهم ، فلم يدفع بيده ، ولم ينه بلسانه ولم يتألم بقلبه ، ولم يتمنّ لو استطاع القدرة على المنع لم يكن مؤمنا .

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان .

وروى مسلم : ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له في أمته حواريّون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس فيما وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

وروى البخاري ومسلم ، عن عبادة قال :

بايعنا رسول الله ، على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره (أي على أن نسمع ونطيع في كل أحوالنا) وعلى أن لا تنازع الأمر أهله (لانخرج على الحكّام الذين ننتخبهم ونبايعهم) إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان (إلا إذا جاؤوا بما يسبب الحكم عليهم بالكفر قطعاً) وعلى أن نقول بالحق أينما كنا (لانجامل ولاننافق) ولا نخاف في الله لومة لائم .

أي ان الانكار باليد ، لايكون فردياً ، كلما توهّم أحد أن هذا الأمر منكر أزاله بيده ، فتكون فوضى ، ولا يكون بالثورة الجماعية ، فالثورة لا تجوز إلا عند الكفر الظاهر ، الذي لا يحتمل التأويل ، ولكن بالطرق المعروفة ، والأساليب المألوفة ، ممن يقدر على الإنكار الفعلي ، من غير الوقوع في مضرّة أكبر ، وهي الانقسام والنزاع الداخلي والحرب الأهليّة ...

والانكار باللسان له شرطان ، أن تكون متثبتاً شرعاً من أن هـذا منكر لا وجـه له في مذهب من مذاهب المسلمين المعتبرة ، وأن تنكر بلطف ، وتخاطب الناس على قدر عقولهم ومنازلهم .

والإنكار باللسان واجب على أرباب البيان من الكتّاب والصحفيين، وخطباء الجمعة والعلماء والمعلمين .

وليس القصد الطفرة ، بل ان نعمل على الاصلاح على خطة مرسومة، وطريق محدد ، وأن يكون لنا برنامج متفق عليه ، وأن نعود الى الخير خطوة خطوة ، كما سرنا إلى الشر خطوة خطوة وأن نصنع كما صنع رسول الله .

لم ينشر الدين بالخطب والدعايات والمقالات (وان كان هذا كله نافعاً لازما) بل بالدعوة الفردية ، بأن ينصح كل منا نفسـه أولاً وأهله ، ويرشد زوجته وولده ، وجاره وصديقه .

هذا هو طريق النجاح : العمل الدائم بصمت وصـبر ، وإلا عمّ الفساد ، وشمل البلاء ، وأخذ الطائع بجريرة العاصي .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده ، لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم . رواه الترمذي .

ومن حديث زينب (في الصحيحين) ، قالوا : أنهلك وفينا الصالحون يا رسول الله ؟

قال : نعم إذا كثر الخبث ، (وذلك اذا سكت العلماء ، وآثروا المنزلة والجاه والسلامة ، ونسوا أن الرسول أوذي في جسده ونفسـه فصبر وثبت) .

روى أبو داوود والترمذي والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر .

وروى البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال :

إيَّاكم والجلوس في الطرقات (ومثلهـا المقاهي ما لم يكن فيهـا محرم ، من لعب حرام كالطاولة ولو على غير رهان ، ولعبة الورق أي الشدَّة ، ومن شراب حرام) قالوا : يا رسول الله ، انها مجالسنا ، مالنا منها بدٌّ ، قال :

إذا أبيتم إلاَّ الجلوس ، فاعطوا الطريق حقه .

قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟

قال : غضُّ البصر (لا أن تفتحه لتأكل بعينك كل جميلة . تتأملها من فرقها إلى قدميها) وكف الأذى (باليد واللسان وبألاَّ تضيق الطريق بقعودك على الرصيف) ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .



مسلم مزوَّر !

نشرت سنة ١٩٥٣

وجدت من يومين ازدحاماً أمام مخفر المهاجرين ، وامرأة فلاحة تلطم وتبكي ، وتشتم رجلاً سمّاناً في الحارة .

فسألت ما الخبر ؟

فقالوا : بأن هذه المرأة تنزل كل يوم من ضيعتها ، تمشي ثلاث ساعات لتبيع الحليب في المهاجرين .

ورأى الناس أن حليب المرأة حليب حقيقية ، وحليب السمّان حليب على المجاز ، وأنه محلوب من ضرع البقرة ، وذاك محلوب من ضرع ... الفيجة ، فتركوه وجعلوا يشترون منها ، فما كان منه إلاّ أن أخذ ملح الليمون ، ورغوة صابون ، وأشياء أخر ، فألقاها في (تنكاتها) الأربع ، فأفسد حليبها ...

ما كفاه أنه يغش ، ويبيع الماء الأبيض باسم الحليب ، وأنه يأخذ ثمنه أكثر من الحليب الأصلي ، حتى زاد على ذلك ايذاء المرأة الناصحة ، وإفساد حليبها .

والمصيبة أنه يدّعي التقوى والصلاح ويزعم أنه من (الناس الملاح) !

هذه هي المصيبة حقاً ـ ولكن ليس هو المذنب ، ولكن نحن .

نحن الذين نسينا مقاييس الإسلام وأخذنا مقاييس الجاهلية .

الصالح في الإسلام ، هو الصادق المعاملة ، الأمين ، الذي يكون ظاهره كباطنه ، وغيبته كحضوره ، وأن يكون مجتنباً المحرّمات قائماً بالفروض .

والصالح عندنا هو الذي يجيد (الماكياج) ويلبس ثياب الصالحين ،

ليمثّل دوره على (مسرح) الحياة •

عرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم بأنه من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده •

فالذي يؤذي المسلمين بلسانه ، بالغيبة والنميمة ، والبذاءة عليهم ، والوشاية بهم ؛ ومن يؤذيهم بيده ـ كهذا السمّان الذي أفسد حليب الفلاحة ـ يكون مسلماً مزوّرا •

والنبي صلى الله عليه وسلم ، جمع في كلمة واحدة الدين والاخلاق واللباقة واللياقة والآداب الاجتماعية كلها ، حين قال :

لايؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه •

هذا حديث من جوامع الكلم ، ومن دلائل النبوّة ، كلمة جمعت الفضائل كلها ، هي أن تضع نفسك في موضع الشخص الآخر ؛ فما تحب أن تعامل به ، فعامل به الناس ؟

فهل وضع هذا السمّان نفسه موضع المرأة وهل يحبُّ لنفسه مثل الذي صنعه بها ؟

وعمر لمّا شهد شاهد عنده بصلاح رجل قال له : هل عاملته ؟ هل سافرت معه ؟

ذلك أن أخلاق الناس وأحوالهم لاتعرف إلاّ بالاختلاط والمعاملة ، أما الظواهر فلا قيمة لها ، وليس أهون على الرجل من أن يشتري قطعة قماش فيديرها على طربوشه (أو طاقيته البيضاء) ، وأن يمشط لحيته ، ويوسّع جبته ، ويعدّ سبحته •••

وما هذا مقياس الصلاح في نظر الإسلام ، المقياس المعاملة !

فالذي يسرقك أو يتعدّى عليك ، أو يأخذ أكثر مما له ، أو يدفع أقل مما عليه ، أو يشفع شفاعة فيها إضاعةحق ، أو يولّي رجلاً وظيفة وفي الأمة من هو أصلح لها منه ، أو يكذب أو يغش ، أو يخلف الموعد ، أو يؤذي الناس ، أو ينافق ويتزلّف إلى الحكّام ويلبس كل يوم وجهاً

جديداً ، كل من يفعل شيئاً من ذلك فهو (مسلم مزوَّر) وهو يسيء إلى الإسلام من جهتين : لمخالفته الاسلام أولاً ، ولأن الناس يرونه فيحسبون أن الدين يقرُّ الكذب والغش ، فيسيؤون ظنّاً بالدين ، لاسيما إذا كان من يأتي هذه الأعمال ، ممن يعتقد الناس دينهم وصلاحهم .

أعرف رجلاً كان لا يقطع ورد السَحَر في الأموي ، ولا يفتر لسانه عن الذكر ، أكل (١٧٠) ليرة عثمانية من أموال قصَّر أعرفهم ، بمجرَّد شبهة قانونية استند عليها ، وحكمت المحكمة بها ، وليس له حق في قرش واحد منها ...

وأعرف ناساً ، يقيمون النكير على من يخالف سنّة ، أو يأتي مكروهاً ، ولا يتكلمون إلا بالاخفاء والإدغام والمدّ ، ويظهرون النسك والورع ، وهم يأكلون ناقة الله وسقياها ...

وأنا لا أريد أن أهاجم هؤلاء ، بل أريد أن أدافع عن الإسلام . أريد أن يفهم الناس أن هؤلاء جميعاً من المسلمين المزوَّرين في نظر الإسلام ، والإسلام حجَّة عليهم ، وليسوا حجة على الاسلام .

فلا يحكموا على الاسلام بفعلهم ، فيظنّوا به (إن كانوا لا يعرفون) الظنون ، بل يحكموا عليهم بأحكام الاسلام ، ويفهموهم هم أنفسهم ، ويفهموا الناس ، أنهم مخالفون للاسلام ، ولا يستحقّون التشرُّف بحمل لقب المسلم .

ونحن حين نمدح الإفرنج بصدق المعاملة ، وانجاز الوعد ، والنظام والترتيب ، إنما نمدح هذه الأخلاق (الإسلامية) التي أخذوها هم ، ونسيناها نحن .

هذه أخلاقنا أخذوها فصاروا بها أمماً راقية قوية ، وتركناها نحن فصرنا كما ترون .

هذه أخلاق المسلم ، فمن لم يتخلّق بها فهو مسلم مزوَّر ، كهذا السمّان ، ولو عدَّه الجاهلون ، قطب الزمان ، وشيخ الإسلام .

★ ★ ★

الاستخـــارة

هل خطر على بال أحدكم أن يسأل نفسه :

لماذا حرم الله الاستقسام بالأزلام الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو أنهم إذا أرادوا سفراً أو تجارة أو غير ذلك وضعوا في كيس ثلاثة أقداح ، (أو ثلاث قطع من الخشب) مكتوب على أحدها (إفعل) وعلى الثاني (لا تفعل) والثالث ليس عليه شيء .

فإذا خرج القدح الذي يشير إلى الفعل ، فعلوا ذلك وان خرج الذي يشير إلى المنع امتنعوا ، وان خرج الثالث أعادوا الكرّة ...

أو هو شيء قريب من هذا ، وقصدي تقريب المسألة إلى الأذهان .

فلماذا منعه الاسلام وحرّمه ؟

لماذا حرّم الاسلام لعبة النرد (الطاولة) وأحلّ الشطرنج ؟

لماذا حرّم القمار ؟

لماذا حرّم الميسر ، وهو ما نسمّيه اليوم الـ (يانصيب) بالضبط . وكان الميسر مثل الـ (يانصيب) مآله ونهايته إلى الخير ، لأنهم يفرّقونه في الفقراء ؟

فلماذا حرم الاسلام ذلك كله ؟

لأن من مبادىء الاسلام الخلقيّة العظيمة التي لا ينتبه اليها أكثر المسلمين ، أن الاسلام يحرم على المسلم ، أن يسير في طـريق لا يعرف نهايتـه .

يحرم عليه أن يضع قدمه في مكان حتى يتيقّن ثباته .

يحرم عليه أن يعتمد على المصادفات والظروف .

فليس في الاسلام اتّكال على المصادفات أبداً ولا مكان فيه للحظ .
بل ينبغي على المسلم أن يحكّم عقله ويمشي على هداه ، فاذا أراد سفراً أو زواجاً لم يجز له أن يستقسم بالأزلام ، كما كان يفعل الناس في الجاهلية ، ولا أن يأخذ السبحة ويعدّ حبّاتها فان خرج العدد شَفْعاً (زوجاً) مثلاً ، فعل ، وان خرج وتراً ترك .

كلا . ولا أن يفتح المصحف ويعدّ سبع ورقات ، ويقرأ ما يصادفه ، فإن كانت آية نعيم مشى في الامر ، وإلاّ وقف .

ولا أن ينام وينظر مايرى في منامه فان رأى أنهاراً وبساتين وشيئاً مما يسرّ اعتقد أن الأمر خير فأمضاه والاّ انصرف عنه .

ولا أن يذهب للشيخ فلان يقول له :

بيّت لي استخارة !
فينام الشيخ وينظر ما يرى في منامه ...
ان المنام لا علاقة له إلا بأفكار صاحبه ، وعقله الباطن ، وسير الهضم معه ، فإن كان منزعجاً من أمر ، يكتم انزعاجه منه ، أو كان قد أكل أكلة شاميّة غليظة فلا يرى إلا المزعجات ، فما ذنب الرجل الآخر الذي كلّفه بعمل الاستخارة ؟
وما علاقة المنام به ؟
هذه كلها من بقايا الجاهلية والإسلام منعها .
الاسلام لا يترك شيئاً للمصادفات والحظوظ .
وما حرّم من اللعب الطاولة وأمثالها إلا لأن الغلبة فيها للحظ أولا .
وما أحلّ الشطرنج (على بعض المذاهب) إلا لأن الغلبة فيه للعقل وحده والمقدرة .

وقد أمر الاسلام بالتفكير والبحث ، وتقليب الأمر على وجوهه ، ثم بالمشاورة وإشراك العقلاء من الأصدقاء ، في وزن الأمر بميزان العقل ،

ومعرفة خيره من شرّه ، وبعد ذلك تكون الاستخارة •

أي ان المسلم بعدما يستنفد طاقته البشرية ، ويحكم عقله ، ويستعين بأهل الرأي ، يرجع إلى الله يقول :

يارب أنا بذلت جهدي ، ولكنّي لا أعلم النتيجة ، والغد باب مقفل، لا أرى ما وراءه ، وأنت وحدك مطّلع عليه ، فان كان هذا الأمر خيراً ، وكنت مصيباً في تقديري ، وحكمي ، فوفّقني •

هذه هي الاستخارة الشرعية ، ليس فيها اتّكال على المصادفات ، ولا تعطيل للعقل ، ولكن فيها رجوعاً الى الله ، وإحياءً للإيمان •

جاء في الحديث الصحيح ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلّم أصحابه الاستخارة كما يعلّمهم القرآن •

والاستخارة الشرعية أن تصلّي ركعتين ثم تتوجّه الى الله ، فتدعو بهذا الدعاء :

اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علاّم الغيوب •

اللهم ان كنت تعلم أن هذا الأمر (ويذكره) خيرٌ لي في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي فيسّره لي وهوّنه علي ، وان كنت تعلم أنه شرٌ لي في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي فاصرفه عني ، واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضّني به •

هذه هي الاستخارة الشرعية • أما عدّ حبّات السبحة ، وصفحات المصحف ، والاعتماد على المنامات ، فمن بقايا الجاهلية !



الصبر

هل يريد أحد منكم أن يتخرّب بيته ؟ ستقولون وماهذا السؤال السخيف ؟ لا . طبعاً .

ولكن إذا صدر قانون جاء فيه ، أن من تخرب بيته بالسيل أوبالريح أو بأي آفة من الآفات التي لاعمل فيها للانسان ، تمنحه الدولة بدلاً عنه قصراً ضخماً في شارع بغداد . ألا تتمنّون حينئذ أن يتخرّب البيت ؟

ستقولون الآن : نعم

لأنكم واثقون من أن الدولة إذا وعدت وعداً بقانون فإنها تفي به . والله عزّ وجل ، وهو أصدق من الدولة قولاً ، وأوثق عهداً ، تعهّد للمؤمن بأن يعطيه بكل مصيبة تناله ، صغيرة كانت أو كبيرة ، من الشوكة التي تشك يده إلى موت الولد وذهاب المال ، أجراً ينسى معه المصيبة ،ويتمنى لو أنها كانت أكبر ، ليكون الأجر عليها أكبر .

روى البخاري ومسلم في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولاهم ولا حزن ، ولا أذى ولا غمّ ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفَّر الله بها من خطاياه .

أي انه اذا جاء يوم القيامة ، ووضع الميزان ، ووزنت الحسنات والسيّئات ، فقلّت حسناته وكثرت سيّئاته ، رأى المصائب التي كانت أصابته ، فصبر عليها ورضي بقضاء الله فيها ، وقد وضعت مع الحسنات، فرجحت بالسيّئات .

وروى مسلم :

عجباً لأمر المؤمن ، ان أمر المؤمن كله خير له ، ان أصابته سرّاء (نعمة) شكر (الله عليها) فكان خيراً له (أي كانت حسنة من حسناته) وان أصابته ضرّاء (مصيبة) صبر فكان خيرا له .

بل ان كثرة المصائب ، من علامات رضا الله عن العبد ، لأنها كفّارة للخطايا ودفع لعذاب الآخرة .

وروى البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه .

وروى أيضاً أن رسول الله قال (في الحديث القدسي) :

مالعبدي المؤمن عندي جزاء اذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا (أي مات من هو عزيز عليه) ثم احتسبه (صبر ورضي بالقضاء) إلاّ الجنة .

فيا أيها المصابون المتألمون . هذه بشارة من رسول الله لكم ، فاصبروا حسبة لتكون لكم الجنة ، قبل أن تصبروا سلواً ونسيانا .

وأي مصيبة لم تنس ؟ وأي كبيرة لم تصغر ؟ وقد قال رسول الله :

الصبر عند الصدمة الأولى .

★ ★ ★

والصبر ثلاثة : صبرٌ على المصيبة يذكر قضاء الله فيهـا فيرضى بقضائه ، ويرجو ثوابه فيطمع في ثوابه .

وصبر على ألم الطاعة ، حينما تترك فراشـك الدافىء في الشتاء ، وتقوم إلى صلاة الصبح . وحينما تترك مائدتك الحافلة في رمضـان وتصوم . وحينما تتكبّد المشاقّ وتحتمل ما (هنالك) من الفوضى والتزاحم والغلاء والبلاء لتحجّ . وحينما تنازع النفس حرصها وطمعها لتخرج الزكاة رغماً عنها .

والثالث الصبر عن اللذة المحرّمة مع قدرتك عليها ، وهو أعظم الثلاثة .

فيا أيها الشاب ، الذي يرى النساء المتبرّجات والفاحشة الميسورة ، واللذائذ المعروضة ويسمع من رفيقه حديثها المغري ، ويرى في المجلاّت صورها المثيرة ، ثم يصبر عنها ابتغاء ثواب الله ـ إعلم يا أيها الشاب أنه اذا كان المحشر ، وازدحمت الخلائق ، ودنت الشمس ، وسال العرق .

اعلم ان مكانك في ظلّ عرش الله . أفلا يتزاحم الناس يوم العرض ليكون لهم مكان مشرف على الطريق ،

فكيف ان كان لهم كرسي في سدّة الشرف مع الوزراء والكبراء .

فكيف إن كان ذلك يوم القيامة ، يوم العرض الأكبر . يوم تختلف المقاييس البشرية ، فينزل ان كان عاصياً الوزير والكبير ويرتفع ان كان تقياً العامل والأجير ، ويصير الغني فقيراً لسيّئاته والفقير غنيّاً بحسناته والجبّار ضعيفاً مسكيناً والمسكين قوياً بعمله الصالح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

سبعة يظلّهم الله في ظلّ عرشه : يوم لا ظلّ إلا ظلّه إمام عادل (أي موظف مستقيم لا يحابي ولا يرتشي . لا يرتشي بالمال ولا بالجاه ولا بالجمال ...) وشاب نشأ في عبادة الله . ورجل قلبه معلّق بالمساجد (أي للعلم والعبادة لا للجلوس مع الأصحاب وقطع الوقت) ، ورجلان تحابّا في الله ، اجتمعا عليه وتفرّقا عليه (لا لدنيا ولا لمصلحة مالية ولا ابتغاء لذة ومتعة) ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ، فقال اني أخاف الله (فضّل اللذة الدائمة في الجنة على هذه اللذة الموقتة التي تتبعها جهنّم) ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله . ورجل ذكر الله خالياً (منفرداً) ففاضت عيناه (بكى من خشية الله) .

★ ★ ★

أحاديث نبوية

نشرت سنة ١٩٥١

الأمة أنا وأنت ، وهو وهي . مجموعة أسر، إن صلحت صلحت الأمة .
لذلك كان من أهم أغراض الاسلام الاجتماعية إصلاح الأسرة ، وتحقيق (العدالة الاجتماعية) فيها .

ولذلك أمر ببرّ الوالدين وصِلَةِ الأرحام .

روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ــ أي العمل أحب الى الله تعالى ؟

ــ قال : الصلاة على وقتها .

ــ قلت : ثم أي ؟

ــ قال برّ الوالدين .

ــ قلت : ثم أي ؟

ــ قال : الجهاد في سبيل الله .

وروى البخاري ومسلم أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ــ يا رسول الله . من أحقّ الناس بحسن صحابتي ؟

ــ قال : أمك

ــ قال : ثم من ؟

ــ قال : أمك

ــ قال : ثم من ؟

ــ قال : أمك

ــ قال : ثم من ؟

ــ قال : أبوك . ثم أدناك فأدناك (أي الأقرب فالأقرب) .

وروى البخاري ومسلم أن امرأتين ؛ سألتا رسول الله هل يجوز لهما التصدّق على زوجيهما الفقيرين ؟

ــ قال : نعم . ولهما أجران ، أجر القرابة وأجر الصدقة .

وسألت أسماء رسول الله ، هل يجوز لها أن تصل (تعطي) أمها المشركة ؟

ــ قال : نعم . صِلي أمك (أي ولو كانت مشركة) .

رواه البخاري ومسلم

★ ★ ★

وهذا هو أساس التضامن الاجتماعي . الذي اجتمعنا من شهور في (حلقة الدراسات الاجتماعية) وجاءت وفود من الدول العربية كلها ، ومن غيرها ، ومن الأمم المتحدة لتبحث عن طريق تحقيق هذا التضامن ، وتسعى لاكتشافه ، كأنه شيء خفي ، يحتاج كشفه إلى بحث ، وكأن الإسلام لم يعيّنه ولم يحدده .

الإسلام ــ من يوم كان الإسلام ــ حقّق التضامن الاجتماعي ، بما أمر به من الزكاة ، وما حثّ عليه من الصدقات ، وما وضعه من التضامن المالي بين الأسر ، وما أوصى به من رعاية الجار .

ولما طبقت هذه الأحكام وكان المسلمون مسلمين بالفعل ، لا مسلمين مثلنا باللسان ، لم يبق فقراء ، وكان الغني يدور بصدقته فلا يجد من يأخذها .

وأين يكون الفقير ، ما دام كل غني في كل أسرة يعطي فقيرها ، وكل

جار يتفقد جاره ، وكل صاحب نِصاب يعطي الفقير حقّه في ماله ، وكا[illegible] كل واحد يفتّش مع ذلك عمن هو أفقر منه ليتصدّق عليه ، وما دامت هذه المهنة الخسيسة الخبيثة ، مهنة (الشحادة) ، والسؤال الدائم من الصبح إلى الليل ، غير معروفة ؟!

وروى البخاري ومسلم عن أبي أيوب ، أن رجلاً قال :
ـ يا رسول الله • أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار •
ـ قال : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتصل الرحم •

وعن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم اثنتان : صدقة وصِلة • (رواه الترمذي) •



فيا أيها القراء

أنا لا أكتب هذه الفصول للأدب ، ولا للبيان ، ولكن للنفع وللفائدة، وأنها لا تفيدني ولا تفيدكم ، ما لم تعملوا بها ، فأكون أنا داخلاً تحت قولة (لأن يهدي الله بك رجلاً واحدا) وتكونون أنتم داخلين تحت قولة « الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه » •

وان رمضان شهر الطاعة وشهر البرّ ، ولم يبق منه إلا يومان ، فاختتموه بأحسن خاتمة ، ليقعد كل واحد منكم وليكتب قائمة بأسماء أقربائه الذين هم أفقر منه ، ثم ليفرز من ماله شيئاً يخصّصه لبرّهم وإسعادهم ، ويوزعه عليهم ، حتى إذا جاء العيد ، قالوا : اللهم زِدْ عليه النعم واجزه خيرا •

وإلاّ نظروا إليه في العيد بعيون الحسد ، وقالوا : الله يخرب بيته !

وأنتم لا تدرون لعلّ الأيام تجعلهم يوماً هم الأغنيـاء ، وتذهب بمالكم فتصيرون أنتم الفقراء .

وهل دامت نعمة على أحد حتى تدوم عليكم ؟ وهل أخذ أحد على الدهر عهداً حتى تأخذوه أنتم ؟

ولعلّ أولادكم يطغيهم الغنى فينشؤوا جاهلين ، فيضيعوا مالكـم بجهلهم ، ولعل أولادهم يحثّهم الفقر ، فيتعلّموا ، فيجمعوا المال والجاه بعلمهم ، ثم يصير أولادكم في حاجة إلى أولادهم ؟

فاستبقوا نعم الله بشكرها ، وليس الشكر أن يأخذ الغني السبحة ويقول ألف مرة : الحمد لله الحمد لله .

ولكن شكر الغنى إعطاء الفقير ، وشكر القوة مساعدة الضعيف ، وشكر الجاه معاونة المحتاج بالحق .

فيا أيها القراء

فتّشوا عن أقربائكم وأعطوهم من فضل أموالكم ، ولا تؤخّروا ذلك بل اشرعوا فيه من الآن فان تعجيل الخير خير ثان .



المجاهرة بالمعاصي

أحب أن أمهّد لما سأقوله اليوم ، برجاء القراء أن يسألوا من ذهب إلى أوربة أو اميركة من اخوانهم ، عن حال الكنائس فيها ، وكيف تمتلىء يوم الأحد بكبار القوم ووجهائهم ،

وأن يسألوا من درس الفلسفة وتاريخ العلم ، عن الفلاسفة العظام ، والعلماء الأكابر ، وعن إيمانهم بالله ، واستمساكهم بالدين ،

وأن يسألوا من كان حضر حفلات تتويج ملك الانكليز أو قرأوصفها كيف كانت تفتتح بالصلاة ، وكان يتصدّرها رجال الدين ،

وأن يرجعوا إلى الصحف ، أو يقرؤوا في المختار ، كيف كان الملوك، وكبار رجال السياسة ، يدعون الناس أيام الحرب الأخيرة الى الرجوع إلى الله ،

وأن ينظروا في دساتير أمم الأرض كيف أقرّ أكثرها للأمة ديناً ، وأوجب التمسّك به ،

وأن يبحثوا عن قوة الكنيسة في بلاد القوم وسيطرتها على نفوس الناس، وإكبار الناس لرجالها .

أسوق هذا كله ، لأقول لمن لا يرى الحقّ حقاً إلا إن جاء من الغرب ولا يرى الخير إلا أن كانت عليه دمغة الغرب ...

أقول : ان التمسّك بالدين ، والمحافظة على مظاهره ، واقامة شعائره، ليس رجعية ، ولا جموداً ولا منافياً للحضارة ، ولا مخالفاً للتمدن وان دستورنا أوجب التمسك بقواعد الاسلام ومنع إعلان المخالفة له ، والخروج عليه .

لذلك ، أطلب من الحكومة ، وقد جاء رمضان ، باسم جماعة العلماء، وباسم جمهرة الناس ، أن تحافظ على مظهر الصيام ، وأن تمنع المجاهرة بالفطر ، وألاّ تسمح لمطعم أن ينصب الموائد مكشوفة على قوارع الطرق ، ولا لموظف أن يشرب القهوة أو السيكارة علناً أمام المراجعين ، وأن تحترم وزارة المعارف أحكام الدين ، وكرامة الصائمين ، فلا تجعل الامتحانات نهاراً ، يقدم فيها الماء البارد ، ويدخن فيها الدخان ، والصائمون من التلاميذ والمراقبين ، يرون ويتألمون .

لتكن الامتحانات ليلاً ، ما الذي يمنع من أن تكون ليلا ؟

وكيف يستطيع الطالب المسلم أن يجمع ذهنه ليكتب ، وهو يرى ما يثير أعصابه من العدوان على دينه ، ومن الازدراء بشخصه ؟

إن الديموقراطية هي حكم الأكثرية ، وان الكثرة الكاثرة من السوريين من الصائمين ،فلا يجوز في دين الله ، ولا شرعة الديموقراطية ولا في حكم الدستور ، ولا في قواعد الذوق ، أن تعتدي القلّة على الكثرة ، وتؤذيها في دينها وكرامتها .

إننا لا نقول لغير المسلمين ، صوموا معنا ، ولكن نقول ، لا تعلنوا فطركم أمامنا .

على أن من الانصاف أن أقرّ أن المسيحيين ، كانوا دائماً على قدم اللطف والذوق ،وان الأذى إنما كان يأتينا ممن يدّعي بأنه مسلم ، وهو في الحقيقة عدوٌ للإسلام ، بعيد عن الإسلام .

★ ★ ★

إنني أطلب من الحكومة باسم العلماء ، وباسم الجمعيات الإسلامية ، وباسم جمهرة الناس ، تطبيق أحكام الدستور ، واحترام عقيدة الشعب، ومنع المجاهرة بالفطر ، والخروج على أحكام الصيام .



ثمرة الصيام

ما من كاتب كتب في الصيام ، ولا واعظ وعظ ، إلا قرّر أن فوائد الصيام ، آن تجوع هذا الجوع الاختياري ،فتذكر من يجوع الجوع الاضطراري ، وتفتقر هذا الفقر الموقت ، فلا ينفعك مالك كلّه في شراء رغيف خبز تأكله ، فتذكر من يفتقر الفقر الدائم .

وهذا حق ، ولكن هل وجدنا ثمرته ؟

هل يفكر الصائم وهو يقاسي ألم الجوع ، في الجائعين ؟ أم يفكر كم بقي للمغرب . وكيف يقطع هذه المدة ؟

أينام ؟ أم يذهب للسينما ؟ أم يقعد في الأموي يمدّ رجليه ويتكلّم في أمور الدنيا ويستغيب الناس ؟

ويتصور مائدة الافطار ، ويتشهّى غرائب الألوان ، فيهتف بأهله (يكلّمهم بالهاتف) أو يبعث اليهم رسولا ، ألا ينسوا شراب كذا ؟ أو طعام كذا ؟

ويمضي نهاره كله سيِّىء الخلق ، سريع الغضب ، يسبُّ ويشتم ويزلزل كل أرض يطؤها ، ويعكّر كل مجلس يدخله .

فاذا حان المساء ، وصل الى الدار فشرب من المشروبات المثلجة ، وأكل من الأطعمة الدسمة ، ومن الحلويات الشامية ، مايكفي لارهاق معدة أسد ، وتخريب كبد حوت ، ثم أخذ من الفواكه وأعقبها بالشاي والقهوة والدخان ، فلا يقوم عن المائدة إلا وقد صار بطنه كالكرة المنفوخة ، التي لم يبقَ عليها إلا نفخة واحدة لتتمزّق ، ويستلقي على الأريكة مثل كيس (الإسمنت) .

فما افاد من الصيام النفع لصحته ، ولا التهذيب لخلقه ، ولا ذكر

الجائع ، ولا عطف على الفقير .

وإن جاد أحد ، فانما يجود على الشحاد المحترف ، الذي لا ينقطع عن الشحادة ، ولا يجوز إعطاؤه ... أو يعطي المسحر بقايا الطعام الفاسد ، يخلط له الفاصوليا بالحلاوة بالألماسية بالفول المدمس ...

هذا ما بقي من الصيام الإسلامي .

صورة فنية عبقرية تصل الى يد جاهل ، فيغمسها بالماء ويمرغها بالتراب ، ويلقيها في الشمس ، حتى إذا لم يبق منها إلا خطوط مبهمة وألوان متداخلة قال : انظروا إلى هذه الصورة الفنية .

إن الذي بقي لنا من الصيام الإسلامي ، مثل الذي بقي لهذا الجاهل من تلك الصورة !

فإذا أردتم أيها القراء ، أن تتداركوا ما بقي من رمضان ، أ تنقذوا ما يمكن إنقاذه ، أن تلحقوا لئلا تكونوا في قافلة الذين بيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم صائمون ولكن ليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش ، ومصلون ولكن ليس لهم من صلاتهم الا القيام والقعود ــ فتعالوا أبيِّن لكم !

ولكن خبِّروني أولا ، هل تريدون حقاً أن تتداركوا ما بقي من رمضان ؟

هل أنتم على استعداد لعمل الخير أم ليس عندكم الا الكلام ؟

يا إخواننا .

إن الغنى والفقر أمران نسبيّان ، فالذي عنده مئتا ليرة في الشهر هو غني بالنسبة لمن ليس له إلا ثلاثون ، ويستطيع أن يعطيه ليرة لا يحس بكبير نقص لها ، وتكون عند الآخر شيئاً كبيرا ، لأنها مورده في يوم كامل .

والذي يملك خمسين ألف ليرة هو فقير بالنسبة لكبار الأغنياء ، وأصحاب الشركات •

فالمسألة نسبية ، لذلك أمر الإسلام بالصدقة مهما قلّت ، حتى لو كانت تمرة •

إنك لا تستطيع أن تتصوّر ما قيمة التمرة ، ولكن المريض الذي أمضى عشرين أو ثلاثين يوماً على عصير البرتقال فقط ، عندما تعطيه تمرة ليأكلها ، يشعر كأنك أعطيته ديكاً محمَّراً ، أو محشواً بالرز واللحم واللوز •••

والخمس ليرات التي لاأحسّ أنا بدفعها تكون عند آذن المحكمة ثروة ، يستطيع أن يقضي بها خمس حاجات ، والألف ليرة تكون عندي ثروة ، ولكنها عند كبار الأغنياء كلا شيء •

لذلك أريد منكم ياأيها الصائمون ، أن يخرج كل منكم شيئاً قليلا من موارده في هذا الشهر ، واحداً في المئة مثلا أو نصف واحد •• فيعطيه من هو أقل منه • إن كان عنده (بدلة) يستطيع أن يستغني عنها أو حذاء لم يعد يعجبه ، فليعطه لمن ليس له (بدلة) ولا حذاء •

إذ ربّ بدلة أنت تراها عتيقة ولا تبالي بها ، تكون عند كثير من الناس (كما هي أو بعد غسلها وإصلاحها) بدلة العيد •

وليبدأ كلٌ بأقربائه وجيرانه ومن يعرف •

وأنا أعلم أن في البلد كثيرين يحبّون أن يعطوا ، وكثيرين من المستحقّين ، ولكن هؤلاء لايعرفون أولئك ولا بدّ من وسطاء خير وقد أخبر الشرع بأن لوسطاء الخير والدالّين عليه مثل أجر فاعله ، فلماذا لاتكون الجمعيات الخيرية وسيط الخير ؟

وأنا من سنين طويلة آخذ من كرام التجّار وأثريائهم وأهل الدين والخير فيهم ، وأعطي رواتب لجماعة ، لو ذكرت أسماءهم (ولن أفعل)

لصعق القرّاء ولم يصدّقوا أن معظمهم يحتاج للصدقة ، وما كنت لأشير هذه الاشارة لولا أن اثنين منهم توفيا الى رحمة الله .

إن الدين والإنسانية ، وكل مبدأ خير ، يدعوكم أيها الصائمون لاعداد حملة إحسان ، تكفِّرون بها عن تقصيركم في رمضان ، وتبلغون بها المقصود من الصيام ، والمناسبة حاضرة وهي صدقة الفطر، أما مقدارها فليرة عن كل شخص على الاقل ، أما التجار الاغنياء الموسَّع عليهم ، فان مقدارها بالنسبة لهم مئة ليرة عن كل شخص ، لأن مئة ليرة منهم بمقدار الليرة مني ومن أمثالي !

ولْيُعطِ كل رب عمل عمّاله ، علاوة يسيرة على العيد ، وكل موظف آذنه وكل معلمي مدرسة الخدم فيها ، وكل ربّة بيت صانعتها حتى تكون فرحة العيد شاملة .

وليعلم من يعطي أن أول الثواب ما يشعر به من السرور القلبي ، عندما يرى فرحةمن يعطيه ، واوسطه التعويض في الدنيا ، وآخرهوأعظمه ثواب الآخرة .



آداب المسجد

سألني سائل :

هل يجوز النوم في المسجد والتحدّث فيه ، واتّخاذه كالقهوة كما يفعل الناس في الجامع الأموي في رمضان ؟

وذهبت أولا الى الجامع الأموي ، لأرى ما يصنع الناس ، فأتكلّم إن تكلمت عن عيان ومشاهدة ، لا عن ظن وتخييل ، وكان دخولي بعد العصر ، فإذا المسجد ممتلىء بالناس واحد من كل مئة منهم ، يقرأ القرآن أو يصلّي ، والآخرون متحلّقون حلقا ، منهم من مدّ رجليه ، ومن اضطجع ونصب رجلا على رجل ، ومن أقعى إقعاء البعير ، ومن اعتمد على يمناه وتمدّد ... يتحدثون كما يتحدثون في القهوة ، يغتابون ويسخرون ، ويلقون النكت فيضحكون منها ، وكثير منهم نائمون على أقبح هيئة ، لهم أصوات شنيعة ، وشخير عالٍ ، وليس في الحرم كله مدرس ، إلا رجلا أسود اللون ، قاعداً عند أحد الأبواب الشمالية المفضية إلى الصحن ، يُضْحِكُ الناس بدرسٍ عجيب ، تسمّعت له فما عَرفت أهو واعظ أم (حكواتي) أم (مهرِّج) !

ووجدت حالة المسجد لايقرّها دين ، ولا يسيغها ذوق ، ولا يقول بها عاقل .

مع أن المسجد للعبادة والذكر ، إن ضاقت بالمسلم الأرض ، وَقَسَتْ قلبه المادة ، وتوالت عليه الشدائد ، لجأ إلى المسجد فلقي فيه فسحة الإيمان ، ومتعة الروح ، واطمئنان التوكل والتسليم .

فهو مكان الخشوع والضراعة والدعاء ، وهو مدرسة للنفس ومدرسة للعقل .

والكلام المباح ممنوع في المسجد ، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، ورفع الصوت بتلاوة القرآن أو رفعه بالدرس (إن زاد عن الحاجة) ممنوع إن كان فيه (تشويش) على المصلّين ، والبقاء في المسجد إلا للاعتكاف ، أو انتظار الصلاة أو لأي غرض ديني مشروع ممنوع . لأن المسجد ليس قاعة للانتظار ، ولا قهوة مجّانية ولا مكاناً للتسلية وتزجية أوقات الفراغ .

روى مسلم في صحيحه من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال عن المساجد : إنما هي لذكر الله تعالى ، وقراءة القرآن .

ولا يجوز رفع الصوت ، حتى بالسؤال عن ضائع أو مفقود . روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال : من سمع رجلا ينشد (أي يطلب) ضالّة (أي شيئاً ضائعاً منه) في المسجد : فليقل : لا ردّها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا .

وروى الترمذي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع (أي يشتري) في المسجد ، فقولوا : لا أربح الله تجارتك .

وروى البخاري عن السائب بن يزيد ، قال :

كنت في المسجد فحصبني رجل (أي رماني بحصاة) فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فأتني بهذين .

فجئته بهما .

فقال : من أين أنتما ؟

فقالا : من أهل الطائف .

فقال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما . أترفعان أصواتكما في المسجد ؟!

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن دخول المسجد بالثياب

الوسخة ، والروائح الكريهة ، روى البخاري ومسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزل مسجدنا .

ونهى عن البصاق في المسجد ، روى ذلك البخاري ومسلم .

مع أن بعض المسلمين يدخلون المساجد اليوم بثياب العمل ، أو بثياب النوم ، فإن كان لحاماً فاحت منه رائحة الوضر ، وإن كان طيّاناً أو دهّاناً دخل بثيابه المغطاة ببقع الطين أو الصباغ ، فآذى النـاس وأفسد ثيابهم ، وبعض الناس ، تبلغ به قلّة الذوق ، ونقص التهذيب ، أن يبصق على قفا الحذاء ، على صورة تغثي منها النفس وتضطرب الامعاء .

ومن بلاء المساجد ، والأموي خاصة هذه الطيور التي تملأ الحرم ، وتلقي أوساخها على المصلّين ، يحسب بعض الجهلة العوام أنه لا يجوز صيدها أو إخراجها ، مع أن وسخها نجس عند الشافعية ، وقد كان كبار المشايخ ، الشيخ بدر الدين والشيخ الجوبري والشيخ محمود ياسين رحمهم الله يحضّون على التخلص منها ، وليس في الدنيا عالم يقول بحرمة طردها ، أو أكلها . ولعلّ مديري الأوقاف يخلّصـان المسلمين من شرّها .



إن المسـاجد بنيت للعبادة والذكر ، وحلقـات الوعظ الصحيح ، ودروس العلم النافع ، وأوجب الشرع على القـائمين عليها العنـاية بنظافتها ، ومن النظافة وضع أمكنة خاصّة للأحذية ، وتحديد مواقع الصف ، حتى لا يضع أحد وجهه في مكان قدم الآخر ، وأوجب على من يدخلها أن يكون نظيف الثوب والبدن ، لأن ديننا دين الطهارة ،

ولأن النظافة من الإيمان ، وألاّ تكون له رائحة قبيحة ، حتى رائحة الثوم والبصل ، إن كان قد أكلهما ، فكيف بمن لرجليه رائحة تقتل فيلاً ، وهو يدوس حيث يسجد الناس ، وألاّ يتكلّم في المسجد بكلام أهل الدنيا ، أو يتّخذه مثابة للتسلية وقطع نهار رمضان الطويل .

وما دام الناس لا يعرفون أحكام الشرع ، ولا يتقيّدون بها ، فأنا أرجو من مدير الشرطة أن يوكل بالأموي مفرزة من الشرطة شهر رمضان كله ، تدور في أرجائه ، فمن وجدته نائماً ، أو قاعداً يتحدّث أحاديث الدنيا ، أو من كان بثياب الشغل التي تؤذي الناس ، طردته من المسجد .

والطلاب الذين يجتمعون في المساجد ليراجعوا دروسهم ، ويأتون خلال ذلك بألوان من المزعجات ، هؤلاء أيضاً لا مكان لهم في المسجد .

ومن كان يدرّس بلا إذنٍ من المفتي كهذا المهرّج الأسود منعته ، فإن لم يمتنع ساقته إلى المخفر .

وتطرد هؤلاء الشحّادين .

إن الشحادة ممنوعة في الإسلام ، وإن هي جازت في كل مكان لا تجوز في المسجد أبداً .

وان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن !



قرآنكم يا مسلمون

كتبت سنة ١٩٥٦

الذي دفع إلى كتابة هذا البحث ، أني سمعت الجمعة الماضية القارىء المصري المعروف (فلاناً) .. ولست أسمِّيه ، يقرأ في جامع بني أمية ، ويذيع قراءته (مذياع دمشق) ، فاذا أنا أسمع بَدَلَ القرآن غناءً رخواً طرياً ، من هذا الغناء الذي يتخلّع فيه الصوت ويتخنّث ، وتكون كل رجفة فيه وكل هزة كفراً بالرجولة ، وجحوداً لها ، وكلما وقف وقفة هَدَرَ الناس بـ (آه) و (الله) و (ياسلام) و (أَعِدْ) إلي والله ، (أعد) التي تسمعونها في المسارح والملاهي ، ولم يبق مما هنالك إلا التصفيق ، وقرع الكؤوس ...

وأعجب ما في الأمر ، وكله عجب ، أن السورة التي كان يقرؤها ، ويغنّي بها ... هي ، هي يا أيها الناس ، سورة الحاقة ، السورة التي تصف أهوال يوم القيامة ، السورة التي فيها : « وأما من أوتي كتابه بشماله ، فيقول : ياليتني لم أوتَ كتابيه ، ولم أدرِ ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضيه ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه .

خذوه فغلّوه ، ثم الجحيم صلّوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحضُّ على طعام المسكين ، فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غِسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون » .

هذا الكلام الذي تنخلع له قلوب من لهم قلوب من القراء ، كيف يستطيع مسلم أن يتغنّى به كما يتغنى بقطعة من الشعر الغزِل المرقص ؟

من يستطيع أن يقرأ المرثية الباكية وهو يضحك ؟ ومن يصف الفاجعة القاصمة وهو يبتسم ؟ إلا أن يكون جاهلاً لا يدري بِمَ يتحرك لسانه ، ولا يفهم معناه .. أو أن يكون مجنوناً أفلت من المارستان ؟

أفليس معنى هذا ، أن هذا القارىء لا يفهم معاني الكلمات التي يقرؤها ولا يدري ما موضوعها ، أو هو لا يحاول أن يفهم ، وأن السامعين الذين لا يهزُّهم إلا الطرب ، ولا تحرِّكهم إلا الأنغام ، هم مثله لا يفهمون المعنى ، ولا يدرون ما الموضوع ؟

وهذه هي المصيبة التي ليس فيما أصاب المسلمين أكبر منها ، لأن فيها تعطيل القرآن ، وتحويله من دستور شامل ، ومنهج للحياة كامل ، يتدبر ويفهم ويحفظ ويعمل به ، إلى مجرَّد كلمات ، تردد ترديد الببغاوات ...

يقرأ المسلمون القرآن ، فيحرِّكون ألسنتهم بلفظ كلماته ، وتجويد تلاوته ، ولكن لا يفكرون في وجوب تحريك عقولهم لفهم معانيه ، ويرون أن هذا هو الأصل في القراءة ، كأن القرآن ليس إلا كلاماً معدّاً للتلحين ، ولا يطلب منهم إلا التسابق إلى حسن تلحينه ، وادارته على البيات والرصد والعجم وهاتيك الأنغام ...

وصار البرُّ بالقرآن كل البرّ ، والعناية به كل العناية ، أن تتقن مخارج حروفه ، ونفخِّم مفخمه ، ونرقِّق مرققه ، ونحافظ على حدود مدوده ، ونعرف مواضع إخفاء النون وإظهارها ، ودغمها وقلبها والغنَّة بها ، ثم نفتتح به الاذاعة كل يوم ، نختار لذلك أحلى القراء صوتاً ، وأبصرهم بالألحان ، وأقدرهم على التصرف فيها ، ويختم القارىء تلاوته ، فننتقل مباشرة إلى الأغنية الفاسقة نذيعها ، والكلام الفارغ نعلنه ، وتسمع هذه التلاوة في القهوة وأهلها معرضون عنها ، مشغولون

بالنرد المحرّم والدخان واغتياب الناس ، وأن نبدأ بعشر آيات من القرآن كل حفلة وكل اجتماع ، وأن نقيم من يقرأ في المآتم ، والناس منصرفون عن القرآن إلى الاستقبال والوداع وإدارة القهوة والدخائن، وأن يقرأه (الشحّادون) على أبواب المساجد ، وأن نضع اللوحات الثمينة فيها الآيات منه في صدور أبهائنا ومجالسنا ، وأن تتخذه النساء المسلمات حلية تعلّق في صدورهن المكشوفة ، التي يحرم هذا القرآن كشفها ، هذا هو كل برّنا بالقرآن ، وعنايتنا به !!

أرأيتم قوماً كانوا في نزهة لهم في يوم عيدهم وغنّوا حتى (سلطن) عليهم النغم فصار كلامهم غناءً ، ولهَوا حتى ملكهم اللهو فصار جدهم لعبا . مرّوا بمقطع حجارة قد أقيمت أمامه لوحة كبيرة ظاهرة ، عليها هذه الكلمات :

(انتبه . إن الديناميت يتفجر في الساعة التاسعة تماما الخطر شديد ابتعد حالا) . فقرؤوها غافلين ، ثم لحّنوها ضاحكين . وراح أنداهم حنجرة وأطراهم صوتا يقلب على هذه الجملة الأنغام من البيات إلى الرصد إلى الحجاز إلى الأصبهان وهم يتمايلون ويتصايحون : آه يا عيني يا سلام .

ولم يفكر أحد ، ولم يخطر على باله أن عليه التفكير في معناها حتى كانت الساعة التاسعة وتفجر الديناميت ..

هذا هو مثالنا نحن ، نحن المسلمين في هذه الأيام .

القرآن الذي أنزله الله أمراً ونهياً ، ومنهجاً كاملاً للمسلم في حياته الخاصة ، وحياته الاجتماعية ، يكتفى منه بالتغنّي بألفاظه ، وتجويد تلاوته ! فهل ينفع القاضي أن يقرأ القانون مجوّداً ثم لا يفهمه ولا يحكم به ؟ وإذا تلقى الضابط برقية القيادة ، هل ينجيه من المحكمة العسكرية ، أن يضعها على رأسه ويقبلها ، ويترنم بها ، ولا يحاول أن يدرك مضمونها ؟

بل لو رأيتم رجلاً قعد يقرأ جريدة حتى أتمها كلها ، من عنوانها إلى آخر اعلان فيها ، فسألتموه ما هي أخبارها ؟ فقال : والله ما أدري ، لم أحاول أن أتفهَّم معناها ...

... فماذا تقولون فيه ؟ أما تنكرونه وتنكرون عليه ؟

فكيف لا تنكرون على من يعكف على المصحف ، حتى يختم الختمة، وقد خرج منها ، بمثل ما دخل فيها ، ما فهم من معانيها شيئاً ؟

فمن أين جاءت هذه المصيبة ؟ وأي عدوٍ من أعداء الله استطاع أن يلعب هذه اللعبة فيحرم المسلمين من قرآنهم ، وهو بين أيديهم ، وفي كل بيت نسخ منه ، وهو يتلى دائماً في كل مكان ؟ يحرمهم منه وهو في أيديهم وهو ملء أنظارهم وأسماعهم ؟!

مسألة عجيبة جداً ، والله !

★ ★ ★

وهذه الأنغام (الفنيَّة) التي لا تختلف عن أنغام الأغاني ، من أين دخلت على القرآن ؟

لقد ورد الأمر بالترتيل ، ولكن الترتيل (كما قال الراغب في المفردات) هو إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة ، والتمهّل في النطق ، والإبانة عن الحروف ، وورد في الحديث الصحيح : (ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن) وقد فسروا التغني هنا بالاستغناء أي أن يستغنى به عن غيره ، وفسّروه بالجهر به وتحسين الصوت فيه ، يشهد للتفسير الأول ، مابني على تركه من الوعيد والتهديد بأن تاركه ليس منا ، ويشهد للثاني الأحاديث الأخرى وكلها جاء بإسناد صحيح منها (زيّنوا القرآن بأصواتكم ، فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا) ، وقد فسر المراد منه الحديث الآخر (إن من أحسن الناس صوتاً في القرآن

الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله) فليس المراد إدارته على ألحان الغناء الفني ، بل المراد إيفاء المعنى حقه ، والخشوع فيه ، وظهور أثر الخشية في تلاوته ، ومنها (أنه صلى الله عليه وسلم كان يرجّع صوته من القراءة كما رجع يوم الفتح وهو على ناقته) نقل ابن حجر أن الترجيع المراد هو تحسين التلاوة لا ترجيع الغناء فإنه مذموم ومناف للخشوع .

والذي أفهمه من هذه الآثار [1] ، أن المطلوب في التلاوة الترتيل والتمهل وإبانة الحروف والكلمات ، وتحسين الصوت فيه ، وإظهار الخشوع ، مع بعض التنغيم الذي يأتي عفواً ، ولا يكون هو المقصود ، والذي ينشأ عن فهم المعنى ويؤدي الى إظهاره ، وان للكلام آثاراً مختلفة في النفس ، منها الحماسة والحزن والخوف والرغبة والاعتبار والتفكير ، ولا بد من اللهجات المناسبة للتعبير عنها ، تعبيراً يوصل اليها ، ويدل عليها ، مع ما يكون فيه من رنّة الاستفهام والتعجب والدهشة وغيرها ، وهذا هو (التلحين التعبيري) أما الغناء فلا يثير إلا الطرب ، وما الطرب (إذا أردت التحديد) إلا انتباه العاطفة الجنسية ، وقلت العاطفة ولم أقل الغريزة ، لأن العاطفة الجنسية تتمثل في الذكريات والآمال والشعور المطلق بالجمال ، وتفتح القلب للحب ، والقرآن مذ صار غناءً ، كان له هذا الأثر ، مشوباً بشيء من الصوفية النفسية ، والروحانية المبهمة . والقرّاء اليوم لا يفرقون في الأنغام التي يقرؤون بها ، بين آيات الترغيب في الجنة وآيات الترهيب من النار ، وآيات القصص وآيات التشريع ، مع أن الإلقاء العادي ، لا يكون

---

(١) ولعلّ صديقنا المحدّث الشيخ ناصر الألباني يتتبّع هذه الآثار وما قال العلماء فيها ، ويصوغ من ذلك بحثاً كبحثه القيّم عن (حجاب المرأة المسلمة) .

إلقاءً حياً معبراً ، إذا جاء هذا كله بلهجة واحدة ، لا تتبدل ولا تتغير ، بتبدل المعاني ، وتغير الأساليب .

ومن الدلائل على أن القرءاة هي في عرف الناس اليوم فرع من فروع الغناء ، أن كثيرين من المغنين والمغنيات بدؤوا قارئين وقارئات ، ثم (ارتقوا ...) فصاروا مغنين ومغنيات ، وقد قرأت في الرسالة من زمن بعيد بحثاً عن الغناء وأهله عدّ صاحبه الشيخ محمد رفعت في المغنّين .

وكلمة (القراء) كان معناها (العلماء والفقهاء) ، لم يكن لها في الصدر الأول معنى غيره ، فمن أين صار (القراء) هم الذين يستطيعون أن يتلوا القرآن ، بالمخـارج والأحكام ، والحنجرة الندية ، واللحن الفني ، ولو كانوا أجهل الناس بمعانيه ومقاصده وأحكامه ، ولو كانوا يقفون في وسط الجملة ، ويصلون ما لا يوصل ، ولقد سمعت قارئاً ، قرأ « فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت [1] » ووقف ، وأطال الوقوف ، حتى ظننته مات ، وآخر قرأ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء » [2] وسكت ، فأفسد المعنى ، وحرّف كلام الله عن موضعه .

ومما يصنع هؤلاء (القراء ...) أنهم يقرؤون في المحافل والاذاعات على السبع ، يكررون الآية الواحدة على القراءات المختلفة ، فلا يأتي من ذلك إلا فتنة العامة ، وتشكيك الجهلاء ، وما يدفع اليه إلا التفاخر والتظاهر بالعلم ، ولقد نزل القرآن على سبعة أحرف [3] تسهيلاً على العرب وكانوا يقرؤون بها جميعاً ، لا اختياراً وتكرارا ، بل كان كلٌ يقرأ

---

(١) وكفرت طائفة .
(٢) ان استحبّوا الكفر على الايمان .
(٣) على الاختلاف الكثير في تفسير هذا الحديث .

باللهجة التي لا يستطيع النطق بغيرها ، كما يقول التركي (الهمد لله رب الآلمين) لأنه لا يستطيع النطق بالحاء ولا العين ، حتى كان زمان عثمان ، وسيطرت لغة قريش أو كادت ، واستطاع الناس كلهم القراءة بها ، ولم يبق للسبعة الأحرف من فائدة إلا اختلاف الناس ، فأمر عثمان بالاقتصار على واحد منها ، ومنع ما عداه ، وكتب مصحفه الامام وبعث به الى الأمصار ، ثم نشأ النحاة وأهل اللغة ، وكانت هذه القراءات ، وهي اختلاف يسير في الحرف الواحد حملت عليه الضرورة، لبقاء بقايا عن لهجات العرب في القرون الثلاثة الأولى ، (وهم يرفعونها كلها مسندة) .

فاذا كان عثمان قد أمر بالاقتصار على حرف واحد من الحروف السبعة المنزلة ، ضماناً للمصلحة ، فلم لا تقتصر نحن على القراءتين الباقيتين ، قراءة حفص في المشرق ، وقراءة وَرْش في المغرب ، وندع ما عداهما ، فلا نقرأ بشيء منه ، إلا في حلقات العلم ، ومدارس التخصص من قبيل الاطلاع التاريخي .

ولندعْ بعد ذلك الى الرجوع الى حقيقة القرآن ، وقراءته قراءة تدبّر وفهم ، كما نقرأ الكتب العلمية والأدبية ، تنفهم مقاصدها ، ونلخص قواعدها ، لا أريد أن يفهم كل قارىء القرآن بعقله وحده ، من غير رجوع الى معجم ، ولا نظر في تفسير ، ولا استقراء لأثر ، لا ، بل ليكشف أولاً عن معاني الكلمات من التفسيرات المختصرة أو المعاجم (لا سيما مفردات الراغب الأصبهاني) ثم يفهم معاني الآيات مستعيناً بمعرفة أسباب نزولها ، والمأثور من تفسيرها ، وأنا واثق أنه سينكشف لنا ألف أفق ، لم يرها المتقدمون ، لأن العقول اليوم أقوى على الفهم ، وحسبك مثالاً ما جاء به أخونا وحبيبنا الأستاذ سيّد قطب ، في (التصوير الفني) و (مشاهد القيامة) .

وليتفرّغ قوم لاستنباط الأحكام منه ، وعليهم فوق ما ذكرت آنفاً ، أن يكونوا من ذوي الملكة الفقهية ، والتفقه الكامل في مذهب واحد ، على الأقل .

هكذا يكون الرجوع إلى القرآن ، يكون بالقراءة مع التدبر والفهم ، وأن نجنّب القرآن ألحان الأغاني ، وأن لا نعد الرجل قارئاً حتى يكون عالماً بمعاني القرآن ، وتفسيره ، وأن يكون ممن يخشى الله ، ويخشع قلبه لذكر الله ، وأن ندع القراءات المختلفة إلا القراءتين الباقيتين منها ، وأن نفهم أن القرآن ليس للطرب ولا (للشحادة) ولا ليكون تميمة (حجاباً) ولا زينة ، ولكنه الدستور الإلهي ، الذي لا نهتدي ولا نسود ، ولا تعود لنا مكانتنا في هذا الوجود ، إلا بفهمه والعمل به ، والوقوف عند أمره ونهيه .



تحريف لمعنى الاسلام

كنت يوماً في مكتبة في دمشق ، صاحبها صديقي ، فأنا أتردّد عليها شارياً وزائراً ، فدخل رجل طويل اللحية جداً ، له عمامة ذات عذبة ، وبيده سبحة تكاد تمس الأرض ، ورأسه منحن على صدره ، كأن عنقه فقد عضلاته ، فهو لا يطيق أن يحمل هذا الرأس الذي ملوء علماً ، فتركه يسقط على صدره ــ وسلّم بصوت خافت لايكاد يبين ، فحسبته والله عجوزاً قد شارف الثمانين ونظرت اليه فبدا لي من ملامحه كأنني أعرفه ، فجعلت أكدُّ ذهني وأتذكر وأجرده في ذاكرتي من هذه اللحية ، وهذه العمَّة ، وإذا بي أعرفه وأنتفض من دهشتي وأصيح به :

ــ ألست فلاناً ؟

ــ قال : نعم

وفلان هذا شاب قوي العضل نشيط . كان تلميذي وهو في سن ابني لو كان لي إبن ....

ــ فقلت : ماذا صنعت بنفسك ؟

ــ فلم يَحِرْ جواباً ، ولكني عرفت الجواب ، فقد كان أبوه شيخاً محترفاً وواعظاً يدعو الى الله ، ويدلُّ على (الطريقة) إليه ، وصناعته القاء المواعظ ، وانكار المنكرات ، بشرط أن يكون الذي ينكر عليه رجلاً مسكيناً ليس بصاحب حول ولا طول ، ولا بذي سلطان ، وأن يضمن لنفسه هدية منه ، من علبة لبن إلى تنكة سمن ــ وأن يقدمها اليه وهو يقبِّل يده ... وان الأب أحب أن يخلفه ابنه في الوعظ

والإرشاد ، وإقامة الدنيا على من يشرب سيكارة فأعدّه لهذا (الدور) وهيّأ له هذا (المكياج) ...

ولما تسلّمت القضاء في دمشق ـ جاءني رجل يبدو عليه أنه صغير السن قوي ، ولكن لحيته وسبحته على نحو ما وصفت آنفاً ، فدعوته إلى القعود ، فقعد ساعة لا يتكلم ولا يتحرك . فقلت صاحب حاجة عاقه الخجل عن ابدائها ، وصبرت عليه حتى صار آخر وقت الدوام وانصرفت وانصرف معي فودعته عند الباب ولم يقل شيئاً ، وأنا أعجب منه . وعاد في الغد وكانت تلك حاله ، ورجع ثالث يوم حتى ضقت به ، فقلت له :

ـ ماذا تريد ؟

فتكلم بلسان فيه لكنة أعجمية لا يكاد يفهم معها كلامه فقال :

ـ ياما ولانا نحنو هاداتا الله للإسلامي ...

ـ قلت : الحمد لله الذي هداك للإسلام ، فماذا تريد من المحكمة ؟

ـ قال : تاراكنا أهلانا وديننا للإسلامي ...

ـ قلت : طيب ، فماذا تريد مني ؟

قال ما معناه ... انه يريد ما يعيش به من الأوقاف أو من غيرها ، ولم يصل الى هذه النتيجة حتى دار مئة دورة وضيّع عليّ نصف ساعة .

فاغتظت منه وقلت له :

ـ اذا كنت قد هديت للإسلام حقاً ، فاعلم أن الاسلام ليس دين بطالة وكسل ، بل دين جد وعمل وأن الذي يفتح دكاناً أو يحمل (بسطة) ويبيع ويشتري أفضل في نظر الإسلام من الذي يقعد في الجامع من الصباح إلى المساء يصلّي ويتعبّد ويقول : أطعموني من مال الأوقاف .... وأخرجته وجعلت أعجب من أين دخل هذا التحريف على

معنى الأسلام ، ومن الذي قال للشيخ الأول أن من شرائط المشيخة أن يحني رأسه ، ويتخاذل ويتماوت ، ويصير كأنه مريض ألحت عليه الأدواء ؟

ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم رياضياً بكل ما لهذه الكلمة اليوم من معنى في أذهان الناس ؟ ألم يكن له خلق الرياضي لا يستهويه الظفر حتى يبطره ، ولا تضعفه الهزيمة حتى تؤيسه ، ألم يظفر بمكة فمد يده للخصم مصافحاً وهو يرضى بما كان ، ويأمل بجولة أخرى ... ألم يكن له جسم الرياضي . ألم يكن يمشي منتصب القامة بارز الصدر كأنما ينحدر انحداراً . ألم يصارع بطل الجزيرة العربية في المصارعة . ألم يسابق ... أما سابق السيدة عائشة ؟ هل في المشايخ اليوم من يأخذ امرأته معه (وهي متحجبة طبعاً) ويسابقها في النزهة أمام تلاميذه ؟ ألم يصرخ النذير مرة بأن العدو قد هاجم المدينة ، فيخرج الناس مسرعين ، وإذا هم برسول الله على فرس عارٍ بلا سرج قد سبقهم الى مكان الحادث ورجع يطمئنهم ويقول لا تراعوا ما هناك شيء ؟

ألم يكن عمر بن الخطاب وهو خليفة إذا رأى رجلاً يمشي متخاذلاً مثل هذا الشيخ يضربه بالدرّة على رأسه ويقول له : استقم لا تمت علينا ديننا .

ألم يكن الصحابة رهباناً بالليل ، جناً في النهار ؟ ألم يقتنوا الأموال، ويشتغلوا بالتجارات ويقبلوا على الصناعات ، ألم يكن كبار العلماء تجاراً وأصحاب أعمال ضخمة ، أبو حنيفة كان له بيت تجاري كبير يديره بنفسه ، وابن المبارك كان يستورد البضائع من خراسان ، والليث ابن سعد كانت وارداته في السنة عشرين ألف دينار من كسبه وعمله لا من احتراف الوعظ وتقبيل اليد وإطالة اللحية وإمالة العنق ...

ألم يأت رسول الله رجل يسأله ــ يسأله لأنه محتاج حقاً ولأنه

هو وأهله لا يجدون ما يأكلون ، لا كأخينا الذي هداه الله الى الإسلام ، فحسب أن الإسلام يطعم كل مهتد من غير أن يعمل شيئاً حتى يصير المسلمون مجموعة كسالى ... فلم يعطه رسول الله بل أمره أن يبيع كل ما يستغني عنه من أشياء داره فباعها بدرهم . درهم واحد أيها القارىء . فأمره أن يشتري به حبلاً وأن يحتطب ، فذهب يحتطب ويبيع ويأكل حتى توفّر له درهم آخر فاشترى فأساً ثم اشترى دابّة ثم صار من أصحاب الآلاف ...

فكيف يكون هذا هدى الإسلام ، ثم لا تجد في بلد من الشحادين ما تجده في مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ؟

كان المطعم بن عدي وهو من أشراف قريش في الجاهلية وفي الإسلام يعطي كل من أراد الجهاد فرساً وسلاحاً ، فجاءه مرة رجل يريد سلاحاً وفرساً ، فقال له اتبعني ، وذهب به الى الدار فمشى وراءه ، فرآه كلما أبصر في الطريق خرقة ، نفضها وحملها ، وان رأى خشبة حملها ، فعجب منه حتى وصل الدار ، فوضع الخرقة في كيس كله خرق، والخشبة مع الخشب ، وأعطاه الفرس والسلاح فقال له — ولكن ما شأن هذه الخرق ... قال — انني أجمعها فأبيعها ، ومنها ومن أمثالها أعطيك وأعطي غيرك ...



الى شباب الازهر

تحية ووصية

كتبت سنة ١٩٥٥

أشكر للأستاذ الزيات هذا الشرف الذي أسبغه عليَّ حين مكَّن لي أن أكون من أسرة (مجلة الأزهـر) وأدخلني جندياً في الجيش الضخم الذي امتـدَّ من عصر النور إلى عصر النور ، خائضاً ظلمات التأخر والانحطاط ، وتابعاً في موكب العلماء والأعلام الذين (كانوا أجلَّ من الملوك جلالة ، وأعز سلطاناً) وكانوا حماة الإسـلام ، وحرَّاس الحضارة ـ لولاهم ما اتَّصلت حضارة العرب الأولى بحضارة العرب الجديدة ، ولم يصل إرث الآباء من عهود الازدهار إلى الأبناء في عهد النهضة . هم حملوا أمانة العلم حين غلبت على أمة الإسلام الجهالة ، وهم رفعوا مصباح الدين حين انتشر الظلام ، وإليهم كانت تشـدُّ الرحال من كل بلد إسلامي : يَفِـدِ عليهم الأمي الجاهل فيرجع وهو إمام الهداية ، وعالم البلد ، كما كان يَفِـدُ الأعرابي على الرسول ، فيعود وفي يمينه من نور النبوَّة قبس يهدي الضالين .

أولئكم علماء الأزهر ، وهل في الدنيا معهد علم له قدم الأزهر ، وعظمة الأزهر ، وأثر الأزهر في الفكر البشري وفي الحضارة الإنسانية ؟ أي معهد يجرّ وراءه أمجاد ألف سنة ؟ ما الجامعات ؟ إنهنَّ بنات اليوم والأمس ، والأزهر لِدَةُ الدهر . تكسَّرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم ، وارتدَّت عن بابه هجمات الجهـالة والضلالة والشهوات والأوهام ، غالب الفناء ، وزاحم الزمان في طريق الخلود ، وكان الأفق الذي أطلع شموساً وأقماراً وأخرج للدنيا نجوماً كانت هدى السالكين .

الجامع الأزهر لا تظلموه ، فتسمّوه جامعة ، فلقد كان والله الجامع ، جمع شعوب الإسلام على الحق في أزمان تفرقت فيها شعوب الإسلام ، إنه الجامع ، وفي الجامع العبادة والعلم ، وفيه الروح والجسم ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، فأين منه الجامعات ؟

فياشباب الأزهر افخروا بجامعكم فما له على ظهر الأرض قرين !

يا شباب الأزهر أنتم ورثة هذا المجد كله ، أنتم خلفاء أولئك الجدود فَصِلوا طريفكم بتليدكم ، وأتمّوا بفعالكم مجد أسلافكم : بالعلم لا تسمو الأمم إلا بالعلم ، بالبيان لا علم إلا ببيان ولا فكر إلا بلسان بالأخلاق أخلاق العلماء الذين أخلصوا الخضوع لله ، فخضع لهم جبابرة البشر ، وألقوا كلمة السماء فرفعتهم فوق أهل الأرض .

وزهدوا بزخارف الدنيا ، وأوهام الجاه ، فانقادت لهم الدنيا وسعى إليهم الجاه ، بالأخلاق فالأخلاق قبل العلم ، ونحن لا نريد نسخاً من الكتاب ، ولكن نريد رجالاً يكونون نماذج للمسلم الكامل ، نريد دعاة إلى الله بالأفعال لا بالأقوال .

ولقد دخل أهل البلاد المفتوحة أفواجاً في الإسلام ، وما سمعنا أن محاضرة في الإسلام دعوا إليها ، ولا رسالة فيه وزّعت عليهم ، ولكنها أخلاق المسلمين ، هي التي أدخلتهم في الدين . على أننا نحتاج مع ذلك إلى دعاة يلخّصون أصول الإسلام في كلمات ، ويلقونها في جلسات، وتكون أسوتهم برسول الله ، يجيئه الأعرابي المشرك ، فيقيم معه اليوم واليومين ، ويسمع منه الحديث والحديثين ، لا يقرأ عنده كتاباً في الفقه ، ولا يتلقّى دروساً في التجويد ، ولا يحفظ قواعد الأصول ، ولا يلقّن أدلة العقائد ، ويصير بذلك مسلماً ، ويرجع عالماً ، ويكون

داعي قبيلته ومرشد قومه ، وانتشر بذلك الإسلام ، وعمّ ثلث المعمور ، في أقل من ثلث قرن .

واجتنبوا الغلظة في الدعوة . فإن لبعض المتديّنين غلظة تنفر من الدين ، ودعوا الرقّة التي تذهب الرجولة ، وتجري بالداعي مع هوى الخصم ، واعرفوا أقدار نفوسكم ليعرف الناس أقداركم ، فمن أهان نفسه لم تكرم على أحد بعده . وابتغوا القوة في كل شيء ، فلا شيء كالقوة يزين الرجال ، قوة الجسم وقوة العلم ، وقوة اللسان وقوة الجنان ، فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً كامل الرجولة ، وكان رياضيّاً صبوراً [1] لما صرخ النذير بالغابة ، وابتدر المسلمون أفراسهم وكانت مرتبطة بأفنيتهم وأسرعوا رأوا رسول الله ، قد سبقهم إلى الحمى على فرس عار بلا سرج ولا لجام ، وعاد يقول لاتراعوا ! .

ولما تحدّاه (رُكَانَة) بطل المصارعة في الجزيرة العربية ، صارعه صلى الله عليه وسلم فصرعه ، ثم صارعه فصرعه فأسلم الرجل . وكان يسابق السيدة عائشة ، فإذا جدّ الجد ، وحمي الوطيس ، احتمى به أبطال الحروب ، وفرسان الملاحم ، وكان (إذا القادة تخفّوا في مثل هذا الموقف واستتروا) ـ ينادي ، أنا النبي لاكذب ، أنا ابن عبد المطلب . فاجمعوا القوة من أطرافها ، واستكملوا أسباب الرجولة ، واستعدوا فإن الرجاء منوط بكم ، والأمل معقود عليكم ، أنتم يا من أدركوا مقاصد الشرع ، وعرفوا حاجات العصر .

إن شعلة الإسلام اليوم وسط هبّات من زوابع الباطل ، ولن تنطفىء إن شاء الله ، وستخمد هذه الرياح كما خمدت من قبل رياح أشد منها قوة ، وأعلى عزيفاً ، ولكن لا بدّ من دفعها عن الإسلام فدعوا النسفيّة والسنوسيّة وشرح المواقف والرد على أقوام بادوا ولم يبق لهم أثر ،

---

(1) لم لا نقول في ترجمة (سبور) رجل صبور ؟ .

ورواية شبههم ودراية ضلالاتهم ، واعمدوا إلى الرد على الشيوعية والقاديانية وأهل الإلحاد والداعين بدعوة الجاهليّة ، وما في كل بلد إسلامي من جند إبليس ، وكل محب للظهور ، على فراغ في رأسه ، وضعف في علمه ، يعجز عن ولوج العظمة من الباب فيدخل من النافذة ، فيأتي بحماقة يحسبها فلسفة ، ويظنّها مذهباً اجتماعياً ، ويقلّده فيها من هو أجهل منه جهلا ، وأشد حمقا .

وشرّ من هذه المذاهب كلها هذا الفجور البادي في المجلات والأفلام وعلى الشواطىء وفي النوادي وهذا الاختلاط في الأسواق والسينمات وفي الجامعات ، هذا هو السهم المسموم الذي يقصد كل قلب ، وذلك لأن تلك النِحَل والمذاهب لا تجد لها إلا عند الأقل رضاً وقبولا ، أما ما يثير الغرائز ويحرّك الشهوات ، فلا يكاد يخلص منه إلا من عصم الله ، وقليل ما هم .

ولا تشتغلوا جميعاً بمناظرة أهل تلك المذاهب الضالة ، لا خوفا منهم فالإسلام لا يخاف من مناظرة أحد ، ولكن خوفاً على جهدكم ووقتكم ، وليتفرّغ لهم قوم من كباركم ، ممن قوي في العلم ، وتمرّس بالجدل ، واعلموا أنهم أقل وأذل من أن تجعلوهم شغلكم .

ودعوا المناقشة بينكم في الأمور الاجتهادية ، وما لا جدَى منه ولا نفع فيه ، فلقد ضاع من وقت هذه الأمة ومن تفكير أبنائها في الكلام في التوسّل ، حلّه وحرمته ، وفي الهجوم على الوهّابية والدفاع عنها ، وفي محاربة الصوفيّة وتأييدها ، ما لو أنفق بعضه في العلم النافع لسبقنا به في طريق الحضارة سبقاً بعيداً ، وما دام أمامنا عدو واحد هو الكفر البارز والمستتر ، والفجور الظاهر والباطن ، فلنحارب هذا العدو أولا ، ولنصمد له جميعا ، ولندع الخلاف بيننا معشر أهل الدين إلى ما بعد ذلك . ولا يبلغ بنا ضيق الفكر وقصر النظر ، أن نجعل همنا

كله توافه الأمور ، كإطلاق اللحية ، وإرسال العذبة ، وترك الدخان ، وأمثال ذلك مما وقفت عنده همّة أقوام نعرفهم فلا يشتغلون إلا به ، ولا يقبلون إلا عليه وأمامنا ما هو أهم وأجدى ، وأعظم عند الله خطراً وأظهر في الأمة أثراً .

واعلموا أن أولى من ذلك كله بكم ، وأوجب عليكم ، أن تدفعوا عنا شر ما ابتلانا به الضعف والتخاذل وهو أنّا أغنى أمة في الدنيا في التشريع [1] أصول نظرياته ، وفروع مسائله ، ولدينا منه كنز هائل ولكنا تركناه ورحنا (نشحد) فضلات موائد التشريع عند الأمم ، نأخذ من كل مائدة لقمة حتى صار تشريعنا كطبق المسحَّر ، فيه من كل شيء ... وليس فيه شيء ! وصار عجباً في التخليط ، وعجباً في ضعف اللغة ، وركاكة التعبير [2] وقصور اللفظ وغموض المعنى ، ولو لم يكن هذا التشريع لنا ديناً لكان علينا أن نتمسك به لأنه ثوب فصِّل علينا ، وقطع على مقدارنا ، وأخذ من أعرافنا وأوضاع ناسنا ، فكيف وهو مع ذلك دين ، إن تركناه تركنا ديننا ، وكفرنا بإسلامنا .

وليس الذنب كله على من جاء به من عند غير الله ؛ ولكن الذنب (كما قال ابن القيّم) على العلماء الذين ضيّقوا الواسع من شرع الله ، وحصروا الدين في كتب المتأخرين ، فلما لم يجد عندهم الحاكمون علاج الداء الذي يجدون ، أعرضوا عنهم ، وطلبوه من غيرهم ، ولا تكون العودة إلى التشريع الإسلامي بالخطب ولا بالصياح ، بل بأن يتفرّغ قوم منكم إلى استخراج القانون المدني الشامل من كتب الفقه من المذاهب الأربعة ، وأوسعها الحنفي والمالكي : الحنفي لأنه صار مذهب

---

(١) الفصيح هو الشرع لا التشريع ولكنه حرف تمكن من الألسنة والأقلام .

(٢) انظر مقدمتي لرسالة (لغة القانون) للدكتور عدنان الخطيب .

الدولة طول عهد العباسيين والعثمانيين ، والمالكي مذهب الدولة في الأندلس والمغرب إلى اليوم ، ثم الشافعي ثم الحنبلي ، ومن مذاهب غيرهم إن صحّ نقلها وقام دليلها ، من المحلّى لابن حزم ، والفتاوى والرسائل لابن تيمية ، والأعلام والطرق لابن القيّم (١) وأمثالها .

وملاك الأمر كله أن يكون منكم فرق كفرق الجيش ، ففرقة للعلم والانقطاع إلى كتبه ، وفرقة لدعوة المسلمين إلى الرجوع إلى دينهم ، وفرقة لدعوة غير المسلمين ، وفرقة لمحاربة الدعارة والمذاهب الضالّة ، وفرقة للعمل في التشريع الإسلامي .

وعليكم بكتبكم ، لا يزهدكم بها ويصرفكم عنها عداوة أقوام لها وسخرهم منها ، ونبزهم إياها بالكتب الصفراء ، فما في الصفرة عيب ، والذهب أصفر مذ كان الذهب ، ولكن العيب أن نكون عوناً للعدو على أنفسنا . ولقد رأى العدو عظمة المكتبة الإسلامية ، فحسدنا عليها ، فعمل على صرفنا عنها ، وما أظن أن البشر صنع شيئاً أعظم منها ، وإنكم لتعلمون ما أصابها من النكبات ، نكبة هولاكو لما ألقاها في دجلة فسوّدت بياض الماء ، والإسبان لما أوقدوها ليالي الفتح فبيّضت سواد الليل ، وما أصابها من نكبات الأفراد ، من التخريق والتمزيق والتحريق . حتى لم يبق منها إلا الأقل ، ولا تزال المطابع في الشرق والغرب ، تطبع مخطوطات هذا الأقل ، ولم يطبع من مئة سنة إلى اليوم رُبعه ولا خُمسه ، فكيف لو وصلت إلينا كاملة ؟ وكيف لو كانت المطبعة معروفة على عهد الجدود ؟

---

(١) نأخذ منها عند الضرورة ، وللتشريع العام ، وعندما يصحّ دليلها ، أما أن نرجع إليها وندع مذاهبنا ، كما يصنع قوم أولعوا بآراء ابن حزم وجعلوها مادة لدروسهم ، ومرجعاً لفتاواهم فلا . وابن حزم (على علمه) لا يُفتى بأقواله .

ولكن لا تقفوا عندها ، ولا تكتفوا بكيمياء العرب عن كيمياء الإفرنج ، ورياضة ابن الهيثم عن رياضة انشتاين ، كلا ، ولا بفقه ابن عابدين [1] عن الاستنباط والبحث ومعرفة حكم الله فيما جدّ من أحداث ، وما تبدّل من أعراف ، على أن يكون وقوفكم عند الكتاب والسنة وقواعد الإسلام ، لا تكونوا عبّاد نصوص المتأخرين . ولا تحكّموا آراءكم واهواءكم في الدين .

★ ★ ★

وما بكم حاجة إلى نصح مثلي وفيكم المشايخ الأعلام ، أئمة الدين . ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

وثقوا بأن المستقبل لنا ، للإسلام ، إن العالم اليوم على فم البركان، والناس صفّان يتباريان أيهما يسبق فيحمل إلى الدنيا الموت والخراب ، ولا أمل إلا بكم ، بشباب المسلمين ، فإن لم تحققوا الأمل ، يستبدل الله بكم قوماً غيركم ، أمة حية ترفع راية الإسلام ، ونبقى نحن لا دنيا ولا دين . ولن يكون ذلك إن شاء الله أبداً ، لن يكون وفينا الصالحون المصلحون ، والعلماء العاملون .



(1) ابن عابدين أعظم فقيه نعرفه نشأ في القرون الثلاثة الأخيرة .

ماذا يراد بالأزهر ؟!

كتبت سنة ١٩٥٨

أنا لا أقرأ هذه المجلاّت المصرية ، وأمنعها أن تدخل بيتي ، كما أمنع نفسي أن تدخل بيوت الفحش ، وأنزّهها عنها كما أنزهها عن مواطن الإثم ، لذلك لم أرَ شيئاً مما كتب طه حسين في هذا ، و لاما كتبوا عنه ، حتى خبّرني صديق لي ، أن طه حسين يقترح إغلاق الأزهر ، إي والله ، طه المصري المسلم ، يطلب إغلاق المعهد الذي علّمه وأفضل عليه ، والذي هو فخر مصر ، ومهوى قلوب المسلمين .

الأزهر الذي جعل لمصر في دنيا الإسلام من المنزلة في القلوب ، والحرمة في النفوس ، ما ليس لبلد بعد المساجد الثلاثة ، فلا تذكر مصر إلاّ ذكر الأزهر ، ولا يتمنّى مسلم الحج إلا تمنى معه زيارة الأزهر ، والذي صيّر مصر (معلّمة) العالم الإسلامي ، عن علمائها يؤخذ العلم ، ومنهم يتعلم التقى ، وغاية أماني الشامي والعراقي ، والأفغاني والهندي ، والبخاري والتركي ، والجاوي والملاوي ، وكل شاب مسلم في الشرق والغرب ، من الصين وأندونيسيا إلى مراكش والصومال ، وألبانيا والمجر ، أن يرحل إليهم ، ويكون له شرف القعود بين أيديهم .

الأزهر الذي بقي ألف سنة ، وهو أمل المسلمين في أرجاء الأرض كلها ، كلما أدلهمّ ظلام الجهل ، وتراكبت دجى الشهوات ، وتتالت عواصف النكبات والأرزاء ، وكاد يملأ القلوب اليأس ، نظروا إليه فرأوا مصباحه لا يزال يضيء ، يلمع من بعيد كالمنار الهادي ، يبدو للسفن الضالة في سواد الليل ، يدلها على الشاطئ الآمن ، فسعوا إليه ، يقبسون من نوره ما يبدد ظلام الأحداث .

الأزهر الذي كان يتسابق الملوك إلى رفع دعائمه ، وتوسيع جنباته وعمارته : عمارة الإشادة والبنيان ، وعمارة العبادة والإيمان ، فلا يرى الملك أنه كتب في التاريخ حتى يترك في الأزهر أثراً . الأزهر الذي كان يجيئه الحاكم الجبّار ، فإذا دخل حِماه ، وجازَ عتبته ، أحسَّ أن سلطانه وجبروته ، قد بقيا خارج الباب فطأطأ الرأس خضوعاً ، ثم جاء حتى قبّل يد الشيخ ، وقعد في حلقته مع أصغر تلاميذه . الأزهر الذي طالما ورده الغلام الجاهل ، الريفي أو الأعجمي ، ثم صدر عنه وهو إمام العربيّة وحجّة الله على الناس ، فأحيا به الله قرية ، أو بلدة ، أو قطراً كاملا .

الأزهر الذي وقف في وجه الزمان ، وتكسَّرت على جدرانه أمواج الأحداث ولم تلْوِ به ولم تزعزعه ، نكبات الشرق ولا نكبات الغرب ، لا جحافل المغول نالت منه ولا جيوش الصليبيين ، أفتكون نهايته أن يقضي عليه الحكّام المسلمون ، في البلد المسلم ؟

أبعدَ ما لبث أكثر من ألف سنة — هل في الأرض جامعة نيّف عمرها على الألف سنة [1] ؟ ألف سنة ! كم أقيم فيه خلالها من صلاة ؟ كم ألقي فيه من دروس ؟ كم ظهر فيه من علماء ؟ كم انبثق عنه من مصنّفات ؟ كما أحيا بالعلم عقولاً كانت ميتة ؟ كم أنار بالموعظة قلوباً كانت مظلمة ؟ كم صفّت على ثراه أقدام ، تقوم فيه وراء سجف الظلام لا يدري بها إلا الله ؟ كم وضعت عليه من جباه كريمة ما كانت تذل في طلب الدنيا لأحد ؟ كم ارتفع من جوف الأزهر ، في جوف الليل ، من دعاء صادق ، من قلب مخلص ، فمضى يشق الفضاء حتى يصل إلى الله ؟ كم تلي فيه من قرآن ، من لسان ذاكر وفؤاد شاكر ؟

سلوا هذه الحجارة ، تخبركم لو كانت تنطق ، انه ما من موطىء قدم فيه ، إلا وقد شهد من حِلَقِ العلم ، ومجالس الذكر ، ما لا يحصيه إلا الله .

---

(١) إلاّ الأزهر وجامع القرويين بفاس .

تحدّثكم حديث المشايخ الذين (كانوا) أعزّ من الأمراء ، وأنبل من الملوك ، يسعى السلاطين إلى أبوابهم ولا يسعون إلى باب أحد ، ويبتغي الحاكمون ما عندهم ولا يبتغون ما عند أحد ، عزّوا بالله عن الخلق ، فأحوج الله إليهم الخلق ، وقنعوا بالقليل من الدنيا ، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا ، إن الافرنج (يا من يقلّد الإفرنج ، ويرى اتّباعهم رشدا) يحجّون إلى بيت العالم من علمائهم يدخلونه متخشّعين يتلمسون مواطىء قدميه ، ومواقع جنبيه ، ويتبرّكون بموضع طعامه ، وسرير منامه ، فما لكم والأزهر بيت أئمتكم وعلمائكم من ألف سنة تريدون أن تغلقوه ؟ أن تغلقوا (يا ويلكم) الدار التي عاش في جنباتها عشرة آلاف عالم ، لو كان الواحد منهم ، لأمة من أمم الافرنج لجعلت مدرسته معبداً مقدساً .

انه لولا الأزهر لاستطاع الفرنسيون أن يقولوا إن (الصوربون) أقدم جامعات العالم ، فتصوروا لو أن أحمق كطه حسين ، قام في فرنسا يقول : ياأيها الفرنسيون أنصحكم أن تغلقوا (الصّرْبون) مجدكم وعزكم ، ومناط فخاركم ، ماذا ترونهم يصنعون به ؟ إنهم يرجمونه بالحجارة ! ذلك لأنهم شعب يعرف قيمة أمجاده ومفاخره .

سيقول قائل ، إن (الصربون) جامعة عصرية ، ولكن الأزهر شيء قديم ، أي أن أهله (بعض أهله مع الأسف) لا يزالون يتّخذون العمائم والجبب ، ويتبعون بعض طرائق القرون الوسطى [1] ...

فهل علم هذا القائل أو رأى مرة في السينما ، ما يلبسه رجال الجامعات في أوربة وأميركة : هذه الجبّة الواسعة التي تشبه الملاءة المصرية ذات اللف ، وهذه القبّعة المضحكة ، ذات السقف المشرف ،

---

(١) من جهالات المقلّدين ، اتخاذهم القرون الوسطى رمزاً للتأخر والانحطاط والجهل وإنها لكذلك ولكن في أوربة ، أما عندنا فالقرون الوسطى هي عهد الحضارة الاسلامية .

كسقف كوخ الحارس ، والطرر النازلة كطرر (قراكوز) ؟ هذا اللباس لا ينتقد ولا يقال فيه ، لأنه لباس الأقوياء الذين يملكون القلاع الطائرة والقنابل الذريّة ، أما الجبة والعمامة فشيء رجعي قديم يستحق أهله ، أن يحكم عليهم عقوبة لهم ، بإغلاق جامعتهم !

أما الطرائق القديمة في الأزهر ، فهل سمعتم بنظام أوكسفورد وكامبردج ؟ إن فيهما الى اليوم من الطرق والأساليب في معاملة الطلبة ، وترتيب حلقاتهم ، وحياتهم الداخلية ، ما لا يختلف عن أنظمة التكايا والمدارس الشرقية من مئة سنة إلا بأنهم أفظع وأقسى من كل ماكان في التكايا والمدارس ، فهل يجرؤ طه حسين أن يذهب إلى الانكليز ، فيقول لهم : أغلقوا كامبردج وأكسفورد ؟ إنهم يضعونه في عربة المجانين ، فيحملونه فيلقونه في البحر ، ليسبح حتى يبلغ مصر فيقول ذلك فيها .

قل هذا في مصر ، تكن حبيبنا وصديقنا ، ونصفّق لك بأيدي أعواننا فيها وإخواننا ، ونؤيدك بأقلام جماعتنا وأصحابنا ، ونشكرك لأنك تزيح من طريقنا أكبر عائق لنا ، وهو (الأزهر) ، أما أن ترمينا بسهمنا ، وتقولها لنا في بلادنا ، وتدعونا أن نغلق مفخرتينا كامبردج وأكسفورد ، فلا ، لا يا شاطر !

★ ★ ★

وبعد ، فأنا أعرف أن طه حسين مولع بالخلاف ، مُذْ كان طالباً في الأزهر ، فاستطال عليه طريق التحصيل ، فتركه وقفز من فوق السطوح كي يبلغ الغاية بلا كدّ ولا تعب ، إلى أن صار (شيئاً) كبيراً يشار إليه بالبنان ، ويعجب به الأغرار والشبان ، وأنه ما نال ما نال من ذيوع الاسم ، وعلوّ المنصب إلا بهذا ، لا ببلاغة أسلوب ، فأسلوبه أبعد الأساليب عن البيان المشرق ، والمعنى البكر ، والمجاز العبقري ، ولا

بتصرّف في فنون القول ، فليس له إلاّ ثوب واحد ، للشتاء والصيف ، والبيت والمدرسة ، يخرج به إلى الشارع ويدخل به في الفراش ، أسلوب واحد للقصة (وما نجح في قصة قط) وللبحث وللوصف (وليس بالوصّاف) وللمقالة السياسية ، ولا بأثر خالد فكل آثاره من الأدب الوسط ، ليس فيها أشباه (الأجنحة المتكسرة) ، على ضعف أسلوبها ، ولا (في المرآة) على تكلف فيها ، وليس له صناعة الزيات ، ولا استعارة الرافعي ، ولا سلاسة المازني ، ولا طبع أحمد أمين ، ولا فكر العقّاد ، ولا فتنة الجمال في أسلوب زكي مبارك ، ومتى ارتفعت عن عيون الشباب غشاوة التقليد رأوا أن هذا الذي أقول ، هو محض الحق.

ماعنده إلا المخالفة ، إن ذهب الناس يميناً ذهب شمالاً ، وإن أقبلوا على شيء أدبر عنه ، وإن أدبروا عنه أقبل عليه ، إن قالوا ، ان القرآن حق وصدق ، قال هو (في الشعر الجاهلي) إن للقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، ولكن ليس علينا أن نصدق ما يقول القرآن . لأن القرآن ليس كتاب تاريخ ! وإن قالوا : امرؤ القيس ومجنون ليلى . قال : ما كان قط امرؤ القيس ولا مجنون ليلى ، وإن رأوا الأزهر مفخرة مصر ، وشرفها وعزها ، قال : أغلقوا الأزهر وأريحونا منه !

ولا يريد بذلك كله إلا أن يُتحدّث عنه ، ولو باللّعن ، كما يُتحدث عن إبليس ، كلما سكت عنه الناس ، طلع بحماقة جديدة من حماقاته فتكلّموا فيه ، والدليل على أن هذا مراده ، وأنه لا يعتقد شيئاً ، وأنه ليس مؤمناً ولا كافراً ، ولا محافظاً ولا مجدداً ، وإنما هو طالب (شهرة) [1] ، انه يرجع (آخراً) فيكذب نفسه في كل ماقاله

---

(١) أصل الشهرة في اللغة الفضيحة وفي الحديث : (من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة) .

(أولا) ، كذّب القرآن ثم رجع يصدّق القرآن وأنكر الشعر الجاهلي ثم عاد يشرح الشعر الجاهلي ، وسينسى غداً ما قال في إغلاق الأزهر ، ويكون من خطباء الاحتفال الكبير بانتصار الأزهر على هذه الحملة الجديدة ، كما انتصر من قبل على حملات لا تعدّ هذه إن قيست بها شيئاً ...

ولو اقتصر الأمر على ما كتب طه حسين لم أحفله ولم أبال بالرد عليه ، ولكن هؤلاء الصحفيين ... (وهم أشد ما ابتلى الله به هذه الأمة) قد علّقوا [1] وكتبوا وحاولوا خداع الناس ، فلذلك (نزلت) إلى الكتابة في التعليق على ما قال وما قالوا .

وأنا لم أقرأ ما كتب ، ولا ما كُتب عنه ، ولا أحتاج الى قراءته ، لأنها ليست مناظرة علمية في مسألة لها وجهان ، لا بدّ فيها من معرفة مقال الخصم للردّ عليه ، بل هي إبطال لمسألةٍ ظاهرة البطلان ، ولا وزن لما يقوم لإثباتها من أدلّة ، فأنا استطيع (إن تركت ديني وأخذتها على أنها قضية بيان) أن أقبّح الحسن وأحسّن القبيح ، كما كان يصنع شيخنا الجاحظ ، وان أقيم الدليل على وجوب هدم المآذن لأنها لم تكن في أول الاسلام ، ولأنها تكشف عورات الناس ، ولأن مكبّرات الصوت تغني عنها ، وعلى ضرورة منع الأذان ، لأن الناس كلهم عندهم ساعات يعرفون بها الأوقات والأذان يزعج المرضى والنائمين ، ويسوّىء الإسلام في عيون السيّاح والأجانب ، ومن مصلحة الإسلام تحسينه في عيونهم ليدخلوا فيه ، وعلى لزوم منع طبع المصاحف عشر سنين ، لأن نسخها اليوم كثيرة ، وكثرتها تؤدي الى تعطيلها وإهمال القراءة فيها ، واتّخاذ هذا القرآن مهجوراً ، وعلى جواز تحويل المساجد الى مدارس لأن الصلاة تجوز في كل مكان ، والتعلّم لايكون إلا في بيوت مخصّصة

---

(١) أو (علّكوا) وإنما أعني بعض الصحفيين لا كلهم .

له ، مقصورة عليه ، ثم نجعلها بعد المدارس نوادي للمحاضرات ، ثم مسارح للتمثيل ، أعني التمثيل الأخلاقي الذي ليس فيه إلا العناق والقبل ، فقط لا غير !

وكذلك تنقض عرى الاسلام عروة عروة ، بمثل هذا المنطق الشيطاني . وللشيطان مداخل عجيبة ، وقد يحاول هدم الدين بحجة الدفاع عن الدين ، وقد يسخر لذلك جماعة من المتسمين بالعلم والصلاح ، كما سخر شيخاً في الشام فأفتى بسقوط فرض الحج بحجة أنه لا بدّ فيه من الخضوع لقوانين الكفار ، من لصق الصورة على الجواز ، واتّباع طرق المكوس وما لست أدري ما هو الآن ، نسيته لبعد العهد به ، وسخر آخر فأفتى بأنه لا زكاة في النقد الورقي ، لا في الليرة السورية ولا في الجنيه ولا الدينار ، ولا ربا فيه ، فأسقط الزكاة وأحلّ الربا ، وهو يظن أنه يقرّر أحكام مذهب الشافعي ، وثالثاً في مصر كاد ينسخ وجوب الصيام ، والرابع من بلغنا أنه يقول : لا صلاة إلا عند التمكين في الأرض .. فلم يبق من أركان الإسلام الخمسة ، إلا شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولا ندري متى يرسل إبليس بعض أتباعه المخلصين ، خالد محمد خالد أو القصيمي ، فيخفف عن الناس ، فيريحهم منها !

ولولا أننا اتّبعنا هؤلاء ، وكل شر جاءنا (مع الأسف) من عندهم ، فأغضينا عن النساء حتى كشفن الوجه أولاً ، ثم الشعر والنحر ، ثم الأيدي والأرجل ، ثم تجرّدن على السواحل كتجرّد المرأة لزوجها ، وأبحنا الربا ففتحنا له المصارف ، وحكمنا به في المحاكم ، وأقررنا الزنا ، وأعطينا الزانيات بطاقات (هويّات) وفتحنا لهن المنازل ، وأقمنا الشرطة على ابوابهن لحمايتهن من رجعي ينكر عليهن ، والأطباء لدفع الأمراض عنهن ، وإعدادهن لممارسة عملهن ، لو لا هذا ما طمع عدونا وعدو الله ، بتسخير طه حسين حتى يقترح هذا الاقتراح .

ولو كان الذي دعا لهذا إنكليزياً أو إفرنسياً لما عجبت ، ولكن الذي يدعو إليه مسلم ابن مسلم ، ناشىء في الأزهر ، والذين يسمعون له ويؤيّدونه مسلمون أبناء مسلمين ، وهذا كله (لو فكّرتم) من أثر هذه المدارس الأجنبية ، التي تراها حيثما ذهبت من ديار الاسلام في دمشق وبيروت وعمان والقاهرة وبغداد ... وفيمَ جاء هؤلاء ؟ حباً بنا ؟ ومتى كانوا يحبوننا ويعشقون دعج عيوننا ، وسمرة خدودنا ؟ إنهم ما جاؤوا إلا لهدم ديننا ، ونحن نبعث إليهم بأولادنا ، ونعطيهم أموالنا ، ليجعلوا من أولادنا أعداء لنا ولديننا ، فهل في الغفلة أبعد من هذا ؟ وهل رأيتم أو سمعتم أن نصرانياً وضع ابنه في مدرسة مشايخ ؟ فلماذا نضع أبناءنا في مدارس الرهبان ، وبناتنا في معاهد الراهبات ؟

إن كل شر نراه ، ومنه هذا الاقتراح ، من عمل هذه المدارس ، وهل تظنون أن طه حسين اقترح الغاء الأزهر من عند نفسه ؟ إن طه ، مُذْ كان طه ، بوق الفرنسيين ، يدافع عن بلدهم ويدعو إلى ثقافتهم ، ويكتب في تمجيدهم ، وسفيرتهم في بيته[1] ، وهم إنما يحاربون الأزهر لأن لواء الثورة على الاستعمار ، والجهاد للحرية والاستقلال ، إنما عقد فيه ، وخرج منه ، وأنه كان دار القيادة لهذا الجهاد من سنة ١٩١٩ الى كل ما كان في مصر وفي غير مصر ، من ثورة على الظلم وعمل للحرية والمجد ، وما يريدون من إغلاق الأزهر إلا أن يتفرق طلابه وطلاب معاهده ومدارسه ، وهم يزيدون على أربعين ألفاً ، في هذه المدارس : التبشيرية منها ، كالجامعة اليسوعية في بيروت والفرير والعازارية وتيراسانتا ، والإلحادية كالجامعة الأميركية في بيروت وبناتها في مصر والشام والعراق واللاييك ، والتي في مدرسيها الصالح وفيهم خريج

(١) وهي ضجيعته على فراشه .

هذه المدارس كالجامعات الحكومية في البلاد العربية ، ولكن ذلك لن يكون أبداً .

★ ★ ★

هذا ولست أدافع عن الأزهر اليوم ، لأنه كامل مكمّل ، مبرأ من العيوب ، لا والله ، ولكن الأزهر القديم كان أتقى لله ، وأحرص على الدين ، ولكن أزهر القديم في كتبه الصفراء ، وبسطه الممزّقة ، وسرجه الخافتة ، كان أعزّ وأكرم وأحفظ للعلم ، وأزهد في الدنيا ، وأرغب عن مناصبها وأموالها ، وأعظم في عيون حاكميها وملوكها ، وإن كان هذا أكثر ترتيباً وأفخم مظهراً ، وكان أهله أطلق عقولاً ، وأبلغ ألسنة ، وأحد أقلاماً .

ولو بقي أهل الأزهر كما كانوا ، يطلبون العلم لله لا للدنيا ، ويرغبون فيما عند الله لا فيما عند الخلق ، ويعملون لرضا الله ولليوم الآخر لا للمناصب والمراتب ولا لرضا السلاطين ، لما جرؤ عليهم أحد ، ولكنهم أرادوا الدنيا فرماهم الله ، بواحدٍ من صغار أهلها ، بطه حسين ، كما رمى العرب لما جانبوا شرعة محمد صلى الله عليه وسلم وتنكّبوا طريقه ، بأذلّ الخلق : اليهود !

ولن يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم !



دروس الديانة في المدارس

قرأت (تصريح) وزير المعارف الذي بيّن فيه أن الوزارة لا تفكر في تخفيض عدد ساعات دروس الديانة بل تبحث في زيادة عددها .

وأنا أشكر الأخ الوزير الدكتور حومد ، ولم أكن أنتظر منه إلاّ هذا ، لذلك تردّدت في تصديق ما نقله الناس عنه من أنه يريد نقص هذه الساعات ، أو إعفاء الطلاب من الامتحان في الدين .

وما كتبت هذه الكلمة لمجرّد الشكر بل لأنبّه الوزارة إلى أمر ما أحسبها إلا متنبّهة له ، ولكنها تتغافل عنه . ليس عندنا شيء اسمه علم الديانة ، ولا يعرفه علماء المسلمين وليس في كتبنا كتبٌ في هذا العلم إنما الذي عندنا علم الفقه ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التجويد ، وعلم الحديث ، وعلم التفسير ، وعلم مصطلح الحديث ، وأشباه ذلك من العلوم التي ألّفت فيها آلاف الكتب وظهر فيها آلاف العلماء ، تجمعها كلها كلمة (الدّين) ، كما تجمع كلمة (الرياضيات) في المدارس ، بين الحساب والهندسة بأنواعها المسطّحة والفراغية والنسبية والجبر والمثلثات وكما تجمع كلمة (الطبيعيات) بين الفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي وعلم النبات وعلم الحيوان ، ولو قلنا لمدرّس الرياضيات أعطيناك ساعة في الأسبوع أو ساعتين لتدريس هذه المادّة ، لصعق من دهشته ، وقال : وماذا أصنع بساعتين ؟ هل أدرّس فيها الحساب أم الهندسة أم الجبر أم ماذا ، وكل علم من هذه العلوم يحتاج إلى أكثر منها .

فكيف نطالب ، مدرّس الدين أن يوسع ساعتين لدرس هذه العلوم كلها ؟

وسيضحك كثير من التقدمين ... من هذه المقابلة لأنهم تعوّدوا أن يروا الدين دائماً في المرتبة الثانية ، ولأنهم ربّوا على احترام هذه العلوم وتقديمها عليه .

ولكن هل هذا هو الواقع ، أم أنهم هم المخطئون ؟

الصحيح أنهم هم المخطئون . وأيسر دليل على خطئهم أنهم يحكمون على الدين ، من غير معرفة به أو اطّلاع عليه ، ولو حلّلت ما في نفوس هؤلاء الإخوان ، لوجدت أنه ليس للدين في نفوسهم إلا صور مشوهة ، رسمها بعض من عرفوا من جهلة المشايخ ومن سخفاء العامّة الذين يدّعون التديّن والصلاح ، ولقد صرح لي بهذا الأستاذ ساطع الحصري في حديث طويل كان بيني وبينه في مصر سنة ١٩٤٧ بحضور الأستاذ نهاد القاسم ، ونشرته في يومه .

ونحن نُقرّ بهذه المبادىء الغربية التي تقول بفصل الدين عن العلم والدين عن السياسة . إنها صحيحة بلا شك ، بشرط أن نفهم معناها عند من وضعوها .

إن الغربيين الذين وضعوا هذه المبادىء يقصدون بالدين ما يحدّد صلة الإنسان بالله ، ومن هنا قالوا : (الدين لله والوطن للجميع) ، ونحن نقول مقالتهم ونفصل بين الصلاة والصيام ـ وبين السياسة والعلم ، ولكن الإسلام ليس ديناً فقط يحدّد صلة الإنسان بالله ، بل هو دين وتشريع وقانون دولي وأخلاق ، وهو يحدّد صلة الأفراد بعضهم ببعض ، وصلة الأفراد بالدولة ، وصلة الدولة بالدول الأخرى ، ويرسم طريق الأخلاق والسلوك ، فالإسلام إذن ليس ديناً لتطبّق عليه هذه القواعد ، بل هو نظام كامل للحياة لا يشابهه في هذا دين من الأديان التي يتّبعها البشر .

والعلوم الإسلامية ـ بناءً على هذا الأساس ـ قسمان ، قسم

منها للدين فقط كالعبادات وهذا للمسلمين وحدهم ، وقسم هو من الثقافة العامة ، كفهم القرآن باعتباره النص البياني الأول في اللغة العربية ودراسة الفقه الإسلامي في المعاملات باعتباره أكبر مصدر تشريعي في العالم بكثرة نظرياته وعمقها ، ولأن غير المسلمين من أمم أوروبا تدرسه أوفى دراسة وتعرف قدره» ، والعناية بنصوص الأحاديث ولو من الناحية البيانية فقط ، وما إلى ذلك من العلوم الإسلامية التي يجب أن يدرسها في رأيي المسلم من الطلاب وغير المسلم ، للبيان وللخلق وللثقافة ، أي للعربية التي نشترك فيها جميعا ، ولأنها تراث قومي لا يختلف فيه مسلم عن نصراني ، ولأن أعلام النصارى وفصحاءهم وأهل البيان فيهم كاليازجيين والبستانيين وفارس الخوري وبشارة الشاعر وأمثالهم ما بلغوا هذه المنزلة التي تقصر دون بلوغها الهمم إلا لأنهم تأدّبوا بأدب القرآن والحديث وأخذوا من بيانهما ، وما ضرّ الأستاذ فارس بك أنه مطّلع على الثقافة الإسلامية أكثر من كثير من أهلها بل نفعه ذلك ، وزاده شهرة في الناس ، فلماذا لا يدرس الطلاب جميعاً هذه العلوم ؟ لا مايتعلّق منها بالدين الإسلامي وبالعبادات ، لا فهذا للمسلمين وحدهم . بل ما يتّصل منها بهذه الثقافة اللغويةوالعقلية وإذا كان الطلاب المسيحيون يكرهون أن يقرؤوها على المشايخفي دروس الدين ، فإن في غير المشايخ وان في المستشرقين حتى الأجانب منهم من يستطيع ان يقرئهم هذه العلوم . أقول هذا ليعلموا أننا لا نريد بها أن نضطرهم إلى ما يكرهون ، ولا نحتال عليهم بها لنجبرهم على الدخول في الاسلام ، وانه ليس لهذا الكلام ظاهر وباطن ، ما فيه إلا ما يدل عليه ظاهره ، وحين يطّلع هؤلاء (التقدميون ...) الذين ربّاهم الأجانب على اعتبار الإسلام (بعبعاً) مخيفا ، وشيئا عتيقا رجعيا ، حين يطلعون على الإسلام الحقيقي ، لا الإسلام الذي صوّره لهم بعض

المشايخ ، أو رأوه في بعض الكتب المتأخرة ، يسعون هم أنفسهم إلى تعلّم علوم الاسلام ، ويسعى إليه النصارى للعلم لا للدين ، ومن لم يصدّق فليسأل الأستاذ الكبير فارس بك الخوري عن قيمة الثقافة الإسلامية وعن أثر القرآن في الفصاحة والبيان .



كلمة في المعجزات والكرامات

كتبت سنة ١٩٤٠

هذه كلمة موجزة أحب أن أخاطب بها عقول هذه الفئة الملحدة منا ، على علمي بهوان العقل عليها وخفّته في ميزان هواها ، وما علّمتنيه الأيام من أن هؤلاء الملحدين يقولون (العقل) و (العقل يقضي) ولا معنى لذلك عندهم إلا أن الذي (يقضي ويقول) إنما هي الكتب التي قرؤوها مترجمة أو بلسان أهلها .

وأن الحق ليس الذي يقابل الباطل ، ولكن الحق عندهم ما جاءهم من حيث تغرب الشمس ، وما كان سنده خلواً من كل اسم شرقي .

وإلا فخبِّرني في أي عقل يستقيم للملحد المنكر الخالق ، أن ينكره باللسان الذي منحه إيّاه ذلك الخالق ؟

أم تبلغ به الغفلة أن يدّعي أنه هو الذي صنع لسان نفسه ، ووضع هذا العقل في رأسه ؟

إنها ثلاثة لا رابع لها .

إما أن تكون قد خلقت نفسك وهذا أوهن (الفروض) وأهونها .

واما أن يكون قد خلقك ما ترى حولك من (المخلوقات) فيعطيك العقل جبل" لا عقل له أو بحر أو نجم .

أو أن تقرّ أن في الوجود موجوداً أسمى وأقدر ، وأنه الخير كله والجمال المطلق ، والكمال الكامل وذلك هو الله ، فتكون مؤمنا بالله !

ولنأت إلى موضوع المعجزات والكرامات ، وخوارق العادات .

ألا نجد أن عدداً عديداً من ناشئة المسلمين ينكرها ولا يصرّح بالإيمان بها ، وليس لديه برهان ولا سناد عقلي يعتمد عليه في إنكارها ، إلاّ قوله ، ان للكون قوانين وسنناً مستمرة على حالهـا ، لا يعتريها تبديل ولا تغيير فالعصا إن ألقيتها لا تكون إلا عصا ، والجبل يخرج تراباً وحجارة لا يخرج نوقاً ولا جمالاً ، فمالكم تزعمون أن عصا موسى انقلبت حين ألقاها حيَّة عظيمة ، ولا يكفيكم انقلابها حتى تقولوا انها كانت تلقف ما كان يأفك السحرة ، وما لكم تزعمون أن ناقة صالح قد خرجت من الصخرة وما في سنن الكون كلها أن ناقة تخرج من الصخر ، إنّا لا نصدّق ما تزعمون ...

ونقول نحن ، إنّا نسلّم أن لله عز وجل سنناً في هذا الكون ، وان هذه السنن دائمة مستمرة ، ولكنا نعلم أن الله هو الذي وضع هذه السنن والقوانين ، من غير ملجيء ولا موجب ولا رقيب .

وأنه لو شاء لجعل مكان (جذب الأرض) دفعاً إلى العلاء ، فكان قانون السقوط عدماً لا وجوداً ، وكان سقوط التفّاحة من يَدِ (نيوتن) على الأرض حدثاً خارقاً للعادة .

وإذا كان الله قد وضع هذه القوانين بإرادته واختياره ، فلا مانع عنـدنا يمنعه من أن يقف قانوناً منهـا مرّة أو مرّات لحكمـة هو يريدها إذا صحّ عندنا أن الله خبَّرنا بذلك عن طريق الوحي .

ومعنى ذلك أن المستحيل عندنا على نوعين ، (مستحيل في العقل) وهـذا ما لا يتصوّر العقل وجوده أبـداً كاجتماع النقيضين مثـلا (الوجود والعدم) في آن واحد بالنسبة إلى شخص واحد و (مستحيل في العادة) وهذا ما يتصوّر العقل وجوده ولكنه لا يراه مألوفاً ، كانقلاب عصا موسى حيّة ، وكالإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم

من مكة إلى القدس (١) ، وليس للعقل إنكاره إذا صحّ الخبر بـه ، ولو استبعده أكابر المفكّرين في عصر من العصور ، والدليل على ذلك أنه لو خبّر مخبرٌ أساطين علماء الطبيعة في القرن السابع عشر وأكابر علمائها يومئذ بخبر المذياع أو السينما الناطقة ووصفها لهم لكذّبوه وأنكروا كلامـه ، ورأوه مستحيلاً ، أفكان المذياع إذن مستحيلاً عقلياً في القرن السابع عشر ثم صار الآن ممكنا ، أم كان مستحيلاً في العادة ، والمستحيل في العادة قد تمرّ الأيام فيصير من الممكنات ؟

هذا ، وان المسلم حين قَبِلَ الإسـلام واتّخذه ديناً قـد اقرّ (ضمنا) بصحة الوحي وصـدق ما اشتمل عليه القرآن ، لأن القرآن وحدة لا يتجزّأ ، وليس يمكن للمسلم أن يؤمن ببعضه ويكفر ببعضه. فإنكاره شيئاً مما جاء في القرآن كالإسراء مثلاً ، لا شك أبداً في أنه رجوع منه عن ذلك الإقرار وخروج من الإسلام .

★ ★ ★

ولا يقعنّ في وهم قارىء لكلمتي أن على المسلم أن يسلّم بكل ما يقال له أنه معجزة ، أو كرامة ، أو أن يؤمن بما يذاع في بعض الرسائل المطبوعة على أنه حديث المعراج وفيه أن سماء من ذهب أو سماء من فضة وأن بابها على هندسة كذا وشكل كذا ، ولكن على المسلم أن يؤمن بإمكان (جنس) المعجزات والكرامات لأنها واردة في القرآن ، ككرامة التي دخل عليها زكريّا المحراب ، وكرامة الذي

---

(١) وكل واحد منا اليوم يستطيع ان ينتقل من مكة إلى القدس بالطيارة في ساعـات ، فـدلّ على ان مايراه النـاس في زمن من الأزمان مستحيلا في العادة يمكن ان يكون واقعاً .

عنده علم" من الكتاب ، ويؤمن (بافراد) المعجزات والكرامات التي جاءت في الكتاب والسنّة التي تفيد العلم ، أما الكرامات التي يرويها الناس فخبر " يحتمل الصدق والكذب فإن لم تصح عنده كرامة من الكرامات المرويّة وانكرها فلا شيء عليه مادام مؤمناً بإمكان وقوع جنس الكرامات .

هذا هو الحكم الإسلامي في الخوارق فهل يرى فيه الماكرون الجاحدون ما يناقض العقل أو يرهقه ، وهل يتعارض مع العلم ؟ وهل يطمئنون إليه أم هم ينتظرون أن يأتيهم على لسان واحد من أهل (هذاك الصوب) ليكون حقاً مقبولاً ؟

